جابريل جارسيا ماركيز

الأم الكبيرة

روايات جائزة نوبل

3



الدار المصرية اللبنانية

ترجمة

محمود على مراد

الأم الكبيرة

LES FUNERALES DE LA MAMA GAUDE

جابريل جارسيا ماركيز

نوبل / 1984

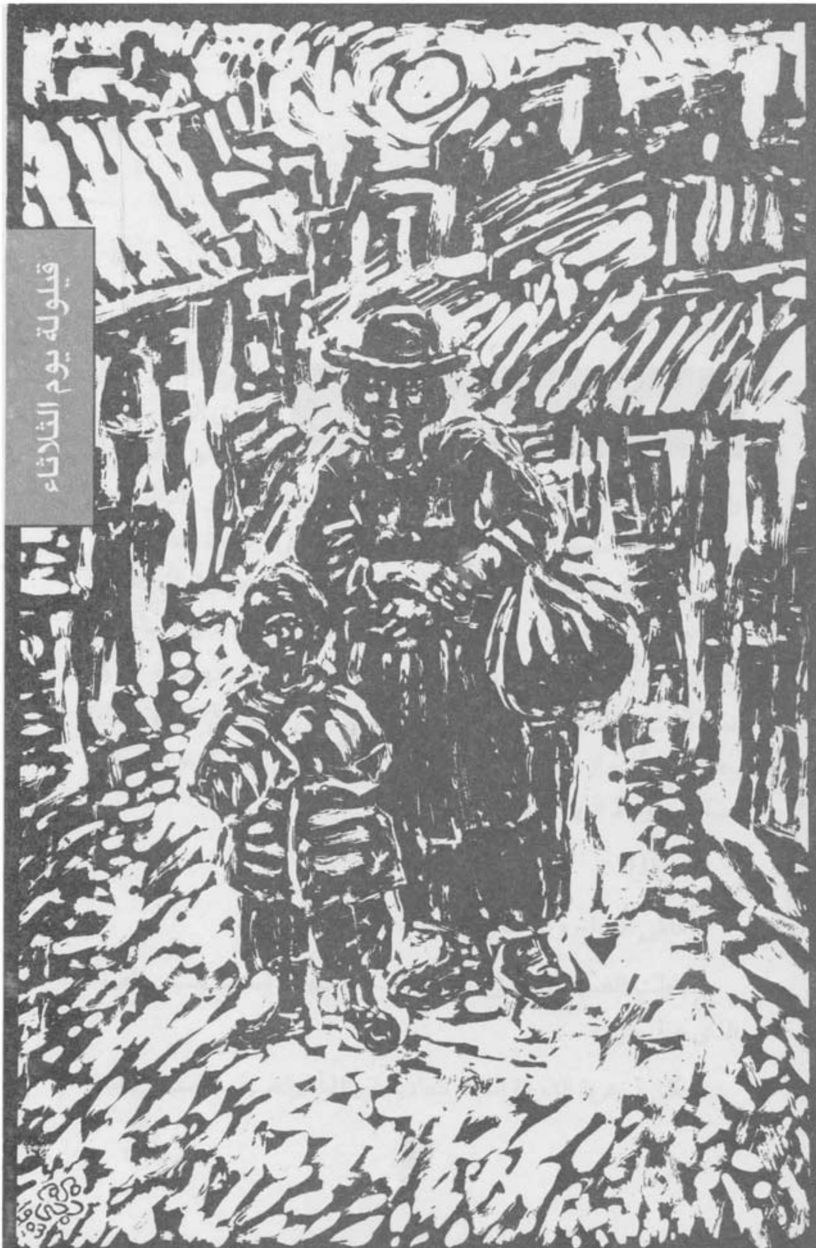
ترجمة محمود على مراد

روايات جائزة نوبل

3

روايات جائزة نوبل
سلسلة تصدرها
الدار المصرية اللبنانية
المدير العام : محمد رشاد
رئيس التحرير : فتحي العشري
الإعداد والصياغة : محمد فتحي
16 عبد الخالق ثروت تليفون : 23910250
فاكس : 23909618 – ص ب 2022
E-mail:inf@almasriah.com
www.almasriah.com
رقم الإيداع : 2746 / 1994
الترقيم الدولي : 6 – 131 – 270 – 977

الطبعة الثالثة : ذو القعدة 1424 هـ - يناير 2004 م
الطبعة الرابعة : رمضان 1429 هـ - سبتمبر 2008 م


قيلولة يوم الثلاثاء

قيلولة يوم الثلاثاء

خرج القطار من النفق الذى يتخلل الصخور الحمراء ، واخترق مزارع الموز السيمترية التى لاتنتهى ، وتشبع الجو بالرطوبة ، وغادرته رائحة نسيم البحر ، وتسرب من نافذة العربة دخان خانق ، وفى الطريق الضيق المحاذى لخط السكة الحديدية عربات تجرها ثيران محملة بعراجين الموز الخضراء ، وعلى الجانب الآخر من الطريق ـ فى مساحات متطفلة لم تُبْذَر فيها البذور ـ مكاتب بداخلها مراوح كهربائية ، فى معسكرات من الطوب الأحمر ، ومساكن وُضِعَت فى شرفاتها كَراسى ومناضد بيضاء بين أشجار النخيل والورد التى علاها التراب . الساعة الحادية عشرة صباحاً ، وقيظ النهار لم يبدأ بعد .

قالت المرأة :

ـ أَغْلِقى الزجاج وإلاَّ غمر تراب الفحم شعرك .

وحاولت الصبية أن تغلق زجاج النافذة ولكنها لم تستطع بسبب الصدأ الذى عاق حركته .

لم يكن فى عربة الدرجة الثالثة العادية غير المرأة والصبية . واستمر دخان

القاطرة فى الدخول من النافذة ، فتركت الصبية مكانها ووضعت فيه كل ما كانت تحمله من متاع لايزيد على كيس من البلاستيك فيه مأكولات وباقة من الزهور فى ورق جرائد . وجلست فى المقعد المقابل بعيداً عن النافذة ، أمام أمها . كانت كل منهما ترتدى ثوبَ حدادٍ كاملاً رخيصاً .

الصبية فى الثانية عشرة من عمرها ، وهذه هى المرة الأولى التى تسافر فيها، وسنُّ المرأة ، وعروق جفنيها الزرقاء ، وجسمها الضئيل الذى فقد نضارته وأصبح كتلة لا شكل لها ، وثوبها الذى يشبه جُبَّة الراهبات ، ترجح لدى الناظر أنها أم الصبية . وطوال الرحلة كانت المرأة تستند بقوة بعمودها الفقرى على ظهر المقعد ، وفى حجرها حقيبة من الجلد المتهرىء كانت تمسكها بكلتا يديها ، وعلى وجهها تلك الرصانة العميقة التى تتسم بها وجوه الفقراء .

وبدأ الحر فى الثانية عشرة ظهراً ، ووقف القطار عشر دقائق فى محطة فى العراء يتزود بالمياه . وفى الخارج كان للظل فى صمت المزارع الملىء بالأسرار مظهر نظيف، أما فى داخل العربة فقد كان للجو الراكد رائحة أشبه برائحة الجلد غير المدبوغ . ولم يستأنف القطار سرعته ، وتوقف فى قريتين لاتتميز إحداهما عن الأخرى بشىء ، بيوتهما مصنوعة من خشب مطلى بألوان زاهية . وحنت المرأة رأسها وأخذتها سِنَةٌ من النوم ، وخلعت الصبية حذاءها ثم ذهبت إلى دورة المياه لتغمس فى الماء باقة الزهور الميتة .

وحين عادت الطفلة إلى مقعدها كانت أمها فى انتظارها لتناول الطعام ، وأعطتها الأم قطعة من الجبن ونصف كعكة ذرة وفطيرة يالسكر ، وأخذت لنفسها مثل ذلك من كيس البلاستيك ، وبينما كانتا تأكلان عبر القطار على

مهل قنطرة حديدية ومر بعرض قرية تشبه القريتين السابقتين ، غير أن حشداً من الناس قد اجتمعوا فى ميدانها أمام فرقة موسيقية تعزف تحت شمس الظهيرة مقطوعة خفيفة . وفى طرف القرية الآخر انتهت المزارع إلى سهل تشققت أرضه من شِدة الجفاف .

وأمسكت المرأة عن الأكل وقالت لابنتها :

ـ البسى الحذاء .

ونظرت الصبية إلى الخارج ، فلم تَرَ سوى السهل المقفر الذى أخذ القطار يجرى فيه من جديد ، ومع ذلك وضعت الصبية قطعة الفطيرة الأخيرة فى الكيس ، وارتدت حذاءها على عجل ، وأعطتها المرأة مشطاً ، وقالت لها :

ـ سَرِّحى شعرك .

وانطلق صفير القطار والطفلة تسرح شعرها ، وجففت المرأة عرق رقبتها ، ومحت بأصابعها بقايا الدسم الذى عَلِقَ بوجهها . وحين انتهت الصبية من تسريح شعرها كان القطار يمر أمام البيوت الأولى من قرية أكبر حجماً ـ وإِنْ كان الحزن يغلبها أكثر ـ من القرى السابقة .

وقالت المرأة :

ـ إذا أَرَدْتِ أن تفعلى شيئاً فافعليه الآن ، فإنك بعد أن ننزلى لن تَجِدِى ماءً فى أى مكان حتى لو مت من العطش ، وإياك والبكاء .

ووافقت الصبية بهزة من رأسها . وهب هواء ساخن جاف عبر النافذة اختلط به صفير القطار وجلجلة عرباته القديمة .

وطوت المرأة الكيس بما تبقى من المأكولات ووضعته فى الحقيبة . وفى لحظة خاطفة بدت من النافذة صورة القرية بأكملها ، وكان ذلك فى يوم مضىء من أيام الثلاثاء من شهر أغسطس . لفت الصبية الزهور فى ورق الجريدة المبتل ، وابتعدت قليلاً عن النافذة ، وسددت نظرها إلى أمها فوجدت وجهها يشع بالهدوء ، وكف القطار عن الصفير وهدَّأ سرعته ، وماهى إلا لحظة حتى توقف .

لم يكن فى المحطة أحد . وفى الجانب الآخر من الشارع ، على الرصيف الذى تُظلله أشجار اللوز ، كان المحل الوحيد المفتوح هو صالون «البلياردو» وكانت القرية تبدو وكأنها تطفو فوق صهد الشمس . ونزلت المرأة والصبية من القطار ، وتركتا المحطة المهجورة التى بدأ البلاط المستخدم فى رصفها يتخلع بفعل الأعشاب ، وعَبَرَتَا الشارع إلى الرصيف الظليل .

كانت الساعة قد قاربت الثانية من بعد الظهر ، وكانت القرية تغط هذه الساعة ، فى نومة القيلولة ، وكانت المحال والمصالح الحكومية ومدرسة القرية فيها تقفل أبوابها عادة منذ الحادية عشرة ، ولاتعيد فتحها إلا قبيل الرابعة حين يمر بها قطار العودة ، ولايظل مفتوحاً إلا الفندق المُواجِه للمحطة وصالون «البلياردو » الملحقان بها ، ومكتب التلغراف الذى يقع فى أحد جوانب الميدان . أما البيوت ـ وقد بُنى معظمها على طراز بيوت شركة الموز ـ فإن أبوابها وشبابيكها توصد من الداخل . وتبلغ حرارة الجو فى بعض هذه البيوت درجة تحمل ساكنيها على تناول وجبة الغداء فى «الحوش» ، ومن الناس من يضع كرسيًا فى ظل شجرة من أشجار اللوز وينام ساعة القيلولة وهو جالس على قارعة الطريق .

ودخلت المرأة والصبية القرية ، وهما تحتميان ـ قَدْرَ الإمكان ـ بأشجار

اللوز من وهج الشمس ، واتجهتا مباشرة إلى بيت ريفى المظهر ، وحكت المرأة بأظافرها شبكة الباب المعدنية ، ثم انتظرت قليلاً ، وبعد فترة صاحت منادية . يُسْمَعُ فى الداخل طنين مروحة كهربائية ، يسمع وقع أقدام . بل كُلُّ ماسُمِعَ هو صرير باب ، ثم صوت قريب جدًّا من الشبكة المعدنية يسأل بحذر :

ـ مَــن ؟

وحاولت المرأة أن تنظر من خلال الشبكة المعدنية ، وأجابت :

ـ أريد «الأب» .

ـ إنه نائم .

قالت المرأة :

ـ المسألة مستعجلة . وكان فى صوتها رنة إصرار هادىء .

وفُتح الباب فى سكون نصف فتحة ، وظهرت امرأة ناضجة ، بدينة ، شاحبة البشرة ، لون شعرها كلون الحديد . وكانت عيناها تبدوان صغيرتين خلف عدستى نظارة سميكة .

ودخلتا إلى صالة تشيع فيها رائحة زهور قديمة . وقادتهما ربة البيت إلى «كنبة» خشبية ، وأشارت إليهما بالجلوس . وجلست الصبية ، ولكن أمها ظلت واقفة وهى تحتضن الحقيبة بيديها وقد بدا عليها الانشغال ، هذا الهدوء الشامل لايقطعه سوى طنين المروحة الكهربائية .

وظهرت ربة البيت عند باب المؤخرة ، وقالت فى صوت خفيض جدًّا :

ـ إنه يطلب أن تعودا بعد الساعة الثالثة ، فهو لم يرقد إلا منذ خمس دقائق .

قالت المرأة :

ـ لكن القطار يغادر المحطة فى الثالثة والنصف .

رَدٌّ حازمٌ ومُقتضب ، ولكن الصوت ظل هادئاً متعدد النغم . وابتسمت ربة البيت للمرة الأولى .

ـ حسناً .

وحين أُغلق باب المؤخرة ثانية جلست المرأة إلى جوار ابنتها . صالة الانتظار الضيقة متواضعة ، وهى حسنة الترتيب ، نظيفة ، وثمة فاصل خشبى يقسم الغرفة ، فى الجانب الآخر مكتب بسيط يعلوه غطاء من المشمع ، وعلى المكتب آلة كاتبة قديمة بجوارها إناء فيه زهور ، وخلف المكتب «أرشيف» الكنيسة . واضح أن الذى يقوم على ترتيب المكتب ونظافته امرأة غير متزوجة .

وفُتح باب المؤخرة وظهر القسيس هذه المرة وهو ينظف نظارته بمنديل . ووضع القسيس النظارة على عينيه ، فأدركت المرأة للتوِّ أنه شقيق السيدة التى فتحت الباب . وسأل القسيس :

ـ أى خدمة ؟

فأجابت المرأة :

ـ مفاتيح المقبرة . كانت الصبية جالسةً والزهور فى حجرها ، وقدماها متقاطعتان أسفل «الكنبة» ونظر إليها القسيس ، ثم نظر إلى المرأة ، ثم مد بصره عبر شبكة النافذة المعدنية إلى السماء المشمسة الخالية من السحاب ، وسأل :

ـ فى هذا الحر ؟ كان بإمكانكما الانتظار إلى أن تخف حرارة الشمس .

وهزت المرأة رأسها فى صمت . وسار القسيس إلى الجانب الآخر من الفاصل وأخرج من الصوان دفتراً مبطناً بمشمع ، وريشة كتابة ومحبرة ، وجلس إلى المكتب ، والشعر الذى خلا منه رأسه كان غزيراً على ظهر يديه . وسأل القسيس المرأة :

ـ أى قبر تريدان زيارته ؟

فأجابت المرأة :

ـ قبر «كارلوس كونتينو» .

ـ من ؟

ورددت المرأة :

ـ «كارلوس كونتينو » .

وظلت علامات عدم الفهم بادية على القسيس .

قالت المرأة بدون أن تغير نبرة صوتها :

ـ اللص الذى قتلوه هنا فى الأسبوع الماضى .

حدق القسُّ فيها ، وصوبت هى إليه عينيها ، رابطة الجأش ، فاحمرَّ وجهه ، وحَنَى رأسه ليكتب . وكان ـ وهو يملأ الصفحة ـ يطلب من المرأة بيانات هويتها ، وكانت هى تجيب بدون تردد بتفاصيل دقيقة ، كما لو كانت تقرأ . وبدأ القسيس يعرق ، وحلت الصبية حزام حذائها الأيسر وخلعت شريط العقب وأسندته إلى مؤخرة الحذاء ، ثم فعلت مثل ذلك بالحذاء الأيمن .

كان كل شىء قد بدأ يوم الاثنين من الأسبوع السابق فى الساعة الثالثة من الفجر ، على مسافة قليلة من هذا المكان . السيدة «ربيكا» ، وهى أرملة تعيش بمفردها فى بيت مملوء «بكراكيب» قديمة لاقيمة لها ، أحست من خلال الصوت الذى أحدثه سقوط المطر الخفيف أن هناك مَنْ يحاول أن يفتح باب الشارع بالقوة من الخارج ، فقامت تتحسس طريقها ، وأخرجت من دولاب الملابس غَدَّارة قديمة لم يستخدمها أحد منذ أيام «الكولونيل أورليانو بونديا» ، وذهبت إلى الصالة : بدون أن تضىء المصباح . ولم يكن ما قاد خطاها هو صوت قفل الباب بقدر ما كان الرعب الذى ولَّدَتْهُ فى نفسها ٢٨ سنة من الوحدة . وأسعفها خيالها ، فلم تحدد موقع الباب، بل حددت أيضاً ارتفاع القفل . وقبضت على السلاح بكلتا يديها ، وأغمضت عينيها وضغطت على الزناد . كانت هذه هى المرة الأولى فى حياتها التى تطلق فيها الرصاص من غدارة ، أطلقت الرصاصة ، ولم تسمع شيئاً أكثر من صوت سقوط المطر على السقف المصنوع من الزنك . ثم سمعت وقوع جسم معدنى فى الممر الأسمنتى ، وصوتاً بالغ الانخفاض ، هادئاً يهتف : «آه ، يا أمى ! » فى إعياء لا حَدَّ له . وكان الرجل الذى أصبح الصبح عليه وهو ميت أمام الدار ، وقد تهشم أنفه ، يرتدى «فانلة» ذات خطوط ملونة و«بنطلوناً» عاديًّا يشده إلى جسمه برباط بدل الحزام ، وكان حافى القدمين ، ولم يكن فى القرية من يعرفه .

وتمتم القسيس حين فرغ من الكتابة :

ـ «كارلوس كونتينو» إذن هذا هو اسمه .

وقالت المرأة :

ـ «كونتينو إيالا» ، ولم يكن لى سواه ولد ذكر .

واتجه القسيس إلى الدولاب . وكان فى داخل الباب مسمار عُلق عليه مفتاحان كبيران علاهما الصدأ ، كأنهما مفتاحا القديس بطرس ، كما كانت تتخيلهما الصبية ، وكما كانت تتخيلهما أمها فى صغرها ، وربما كان القسيس نفسه يتخيلهما أحياناً . نَزَعَ القسيس المفتاحين من مكانهما ووضعهما فوق الدفتر المفتوح على الفاصل الخشبى ، وأشار بسبَّابته إلى موضع فى الصفحة المكتوبة ونظر إلى المرأة قائلاً :

ـ وَقِّعى هنا .

ووقعت المرأة اسمها فى «شخبطة» والحقيبة تحت إبطها . وأمسكت الصبية الزهور واتجهت إلى الفاصل الخشبى وهى تجر فردتى حذائها ، ولاحظت أمها باهتمام .

تنهد القسيس قائلاً :

ـ ألم تحاولى قَطُّ هدايته إلى الطريق المستقيم ؟

فردَّت المرأة بعد أن انتهت من التوقيع :

ـ كان رجلاً غاية فى الطيبة .

أجال القسيس بصره بين المرأة والصبية ، وتأكد بشىء من دهشة الأتقياء أنهما لاتهمان بالبكاء . واستطردت المرأة بنفس اللهجة :

ـ كنت أقول له لاتسرق أبداً شيئاً يحتاج إليه إنسان ليأكل ، وقد سمع كلامى ، لقد كان فى الماضى يكسب عيشه من الملاكمة ، وكان من أثر الضربات يلزم الفراش أحياناً لمدة ثلاثة أيام .

وتدخلت الطفلة قائلة :

ـ لقد اضطر إلى خلع جميع أسنانه .

وأمنت المرأة على كلامها :

ـ فعلاً .

ثم أضافت :

ـ كل لقمة كنت آكلها فى تلك الأيام كان لها طعم اللكمات الشديدة التى كان ابنى يتلقاها فى مباريات ليلة السبت .

وقال القسيس :

ـ حكمة ربنا لايعلمها أحد .

قال ذلك عن غير اقتناع كبير ، أولاً : لأن التجربة قد زرعت فى نفسه شيئاً من الشك ، وثانياً : بسبب الحر . وأوصى القسيس المرأة وابنتها بتغطية رأسيهما بشىء لتفادى ضربة الشمس ، ووصف لهما وهو يتثاءب ويكاد يستسلم تماماً للنوم كيفية الوصول إلى قبر «كارلوس كونتينو» ، وأضاف أنه لاحاجة بهما إلى طرق الباب عند العودة ، وأنه يكفى أن تدفعا بالمفتاح من أسفل الباب ، وأن تضعا الصدقة فى نفس المكان إن أرادتا التصدّق للكنيسة . استمعت المرأة إلى الشرح باهتمام وشكرته بدون أن تبتسم .

وكان القسيس قد تنبه حتى قبل أن يفتح باب الشارع إلى أنَّ شخصاً ما ينظر إلى داخل البيت وقد ألصق أنفه بالشبكة المعدنية ، كانوا جماعة من الأطفال ، وحين فتح الباب بالكامل تفرق الأطفال . والمعتاد فى مثل هذه

الساعة أن يكون الشارع مقفراً ، أمَّا الآن فهناك أطفال ، وهناك أيضاً جماعات من الناس تحت شجر اللوز . وتطلع القسيس إلى الشارع الذى أعوجَّ والتوى ما فيه من سعير الشمس ، ففهم . وبرقة قفل الباب من جديد، وقال بدون أن ينظر إلى المرأة :

ـ انتظرا دقيقة .

وظهرت أخته فى باب المؤخرة وعلى قميص نومها « جاكتة » سوداء وقد انحل شعرها على كتفيها ، ونظرت إلى القسيس فى صمت . وسألها القسيس :

ـ ما الحكاية ؟

وتمتمت الأخت :

ـ ذاع الخبر .

وقال القسيس :

ـ الأفضل أن تخرجا من باب الحوش .

وقالت أخته :

ـ لن يغير هذا شيئاً . الناس كلهم يراقبون من نوافذهم .

لم يبد على المرأة حتى ذلك الوقت أنها فهمت ، وحاولت أن تنظر إلى الشارع من خلال الشبكة المعدنية ، وعلى الفور تركت للطفلة باقة الزهور وبدأت تتحرك صوب الباب والطفلة فى أثرها .

قال القسيس :

ـ انتظرا حتى تميل الشمس .

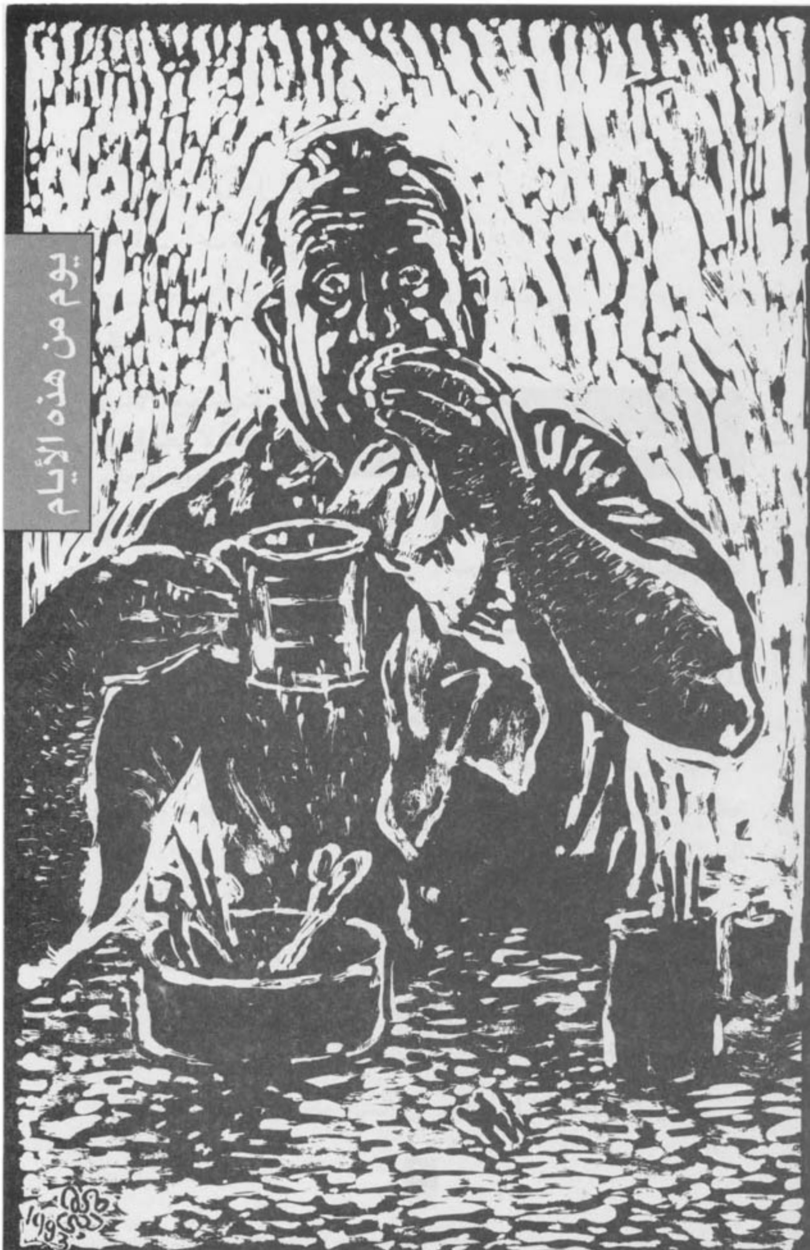
وقالت أخته من آخر الصالة بدون أن تتحرك :

ـ ستذوبان كما يذوب الثلج من حرارة الشمس . انتظرا وسأعيركما مظلة .

فأجابت المرأة :

ـ شكراً ، نحن هكذا بخير .

وأخذت الصبية من يدها وخرجت إلى الشارع .



يوم من هذه الأيام

يوم من هذه الأيام

أشرق يوم الاثنين دافئاً لا مطر فيه ، وفتَح «دون أوريليو اسكوفار» طبيب الأسنان الذى ـ لا يحمل شهادة والذى تعود القيام فى الفجر ـ عيادته فى الساعة السادسة .

وأخرج من الفترينة طقمَ أسنانٍ صناعية لايزال مركباً فى قالب الجبس ، ووضع على المنضدة حفنة من الأدوات رتبها فى نظام ، كما لو كان ينوى عرضها فى معرض . كان يرتدى قميصاً مخططاً بلا ياقة أقفل أعلاه بزرار مُذَهَّب، وبنطلوناً تشده حمالة من الاستيك كان رجلاً متخشباً ، كله عظام، وكانت نظرته لا تمتُّ ـ إلا فى النادر ـ بصلة للموقف ، كنظرة الصمّ .

حين انتهى من صف الأدوات على المنضدة أدار المثقاب ناحية المقعد الآلى وجلس ينظف طقم الأسنان ، وكان يبدو عليه أنه لايفكر فيما بيده ، ومع ذلك فقد كان يعمل بتركيز ويضغط على الدَّوَّاسة لإدارة المثقاب حتى وهو لايستخدمه .

بعد الثامنة توقف قليلاً ليتطلع إلى السماء من النافذة ، فرأى عقابين

مستغرقين فى التفكير يتشمسان على سقف بيت قريب . واستأنف عمله وهو يقول لنفسه : إن الدنيا ستمطر من جديد قبل ساعة الغداء . وانتزعه صوت ابنه البالغ من العمر أحد عشر عاماً - والذى بدا متبرماً - من أفكاره .

- بابا .

- نعم .

- العمدة يطلب أن تخلع له سنًّا .

- قُل له إنى لستُ هنا .

كانت السِّنة التى ينظفها من ذهب ، ومد ذراعه بها ونظر إليها من بعيد مغمضاً عينيه نصف إغماضة . وعاد ابنه من حجرة الانتظار يصيح من جديد :

- يقول إنك هنا لأنه يسمعك .

واستمر طبيب الأسنان فى فحص السنة ، وظل صامتاً حتى وضعها على المائدة بعد أن انتهى منها ، ثم قال :

- أحسن .

وعاد يدير المثقاب . ثم أخرج «بردج» (كوبرى أسنان) من علبة صغيرة من الكرتون كان يحتفظ فيها بالأشياء التى تحتاج إلى عمل .

- بابا .

ـ نعم .

حتى هذا اللحظة لم يتغير تعبير وجهه .

ـ يقول : إنه إنْ لم تخلع له ضرسه فسيرميك بالرصاص .

وبدون أن يتعجل ـ وبحركة مطمئنة إلى أقصى حد ـ كفَّ طبيب الأسنان عن تشغيل المثقاب ، وسحب الدواسة من المقعد ، وفتح الدرج السفلى للمنضدة إلى آخره . كان مسدسه فى هذا الدرج . قال :

ـ حسناً . قل له أن يأتى ليطلق علىَّ الرصاص .

وأدار المقعد بحيث يواجه الباب ، ووضع يده على حافة الدرج ، وظهر العمدة على عتبة الباب ، كان قد حلق خده الأيسر ، أما الخد الآخر فكان متورماً موجعاً ، وكان من الواضح أن العمدة لم يحلق ذقنه منذ خمسة أيام ، ورأى طبيب الأسنان فى تعبير عينى العمدة الذابلتين عدة ليال من اليأس ، وأقفل الدرج بطرف أنامله وقال برقة :

ـ تفضل بالجلوس .

قال العمدة :

ـ طاب صباحك .

فأجاب طبيب الأسنان :

ـ وصباحك .

وبينما كانت المعدات تغلى أسند العمدة يافوخه على مسند المقعد ،

وأحس بتحسن . كان يستنشق رائحة جليدية . عيادة الطبيب كانت عيادة فقيره : كرسى قديم من الخشب ، والثّقابة ، والدواسة ، وفترينة فيها أوانٍ من الخزف ، وكان أمام الكرسى نافذة بستارٍ حاجب من القماش بارتفاع قامة رَجُلٍ . وحين شعر العمدة بأن طبيب الأسنان يقترب ثبَّتَ عقبيه وفتح فاه .

وأدار «دون أوريليو اسكوفار» وجه العمدة إلى ناحية الضوء ، وبعد أن فحص الضرس التالف عدل وضع الفك بضغطة حذرة من أصابعه وقال :

ـ لن أتمكن من تخديرك .

ـ لماذا ؟

ـ هناك خُرَّاج .

نظر العمدة فى عينيه وقال محاولاً التبسم :

ـ موافق .

ولم يعلق طبيب الأسنان . وأحضر إلى منضدة الشغل الإناء الذى غلى فيه المعدات . وأخرج المعدات من الماء بواسطة كلابات باردة ، كل هذا بدون أن يتعجل . ثم أدار المبصقة بطرف حذائه وذهب ليغسل يديه فى الحوض بدون أن ينظر إلى العمدة . أما العمدة فظل مُصوِّباً إليه بصره .

كان الضرس المصاب هو ضرس العقل فى الفك السفلى . فتح طبيب

الأسنان رجليه وضغط على الضرس بالكلاَّبة المغلية . وتشبث العمدة بذراع المقعد وركز كل قوته فى قدميه ، وشعر بفراغ ثلجى فى ظهره ، ولكنه لم يُخرج أىَّ نَفَس ، ولم يحرك طبيب الأسنان سوى رسغه ، ثم قال بدون حقد ، بل برقة مريرة :

ـ ستدفع هنا ثمن قتل عشرين شخصًا يا سيدى .

وشعر العمدة بطقطقة عظام فى الفك ، وامتلأت عيناه بالدموع ، ولكنه لم يطلق أى آهة إلى أن شعر بخروج الضرس . ورأى ضرسه فى هذه اللحظة من خلال دموعه ، وبدا له الضرس غريباً عن ألمه بدرجة جعلته لايفهم عذاب لياليه الخمس السابقة . وانحنى على المبصقة وهو يلهث والعرق يتساقط منه . فك أزرار سترته ، وبحث متحسساً عن منديل فى جيب بنطلونه ، وأعطاه الطبيب قماشة نظيفة وقال له :

ـ جفف دموعك .

فعل العمدة ذلك . كان يرتعش . وبينما كان طبيب الأسنان يغسل يديه رأى العمدة السقف المتهدم ونسيج عنكبوت عَلِقَ فيه بيض العنكبوت وبعض الحشرات الميتة . وعاد طبيب الأسنان وهو يجفف يديه وقال :

ـ ارقد فى البيت وتمضمض بماء مالح .

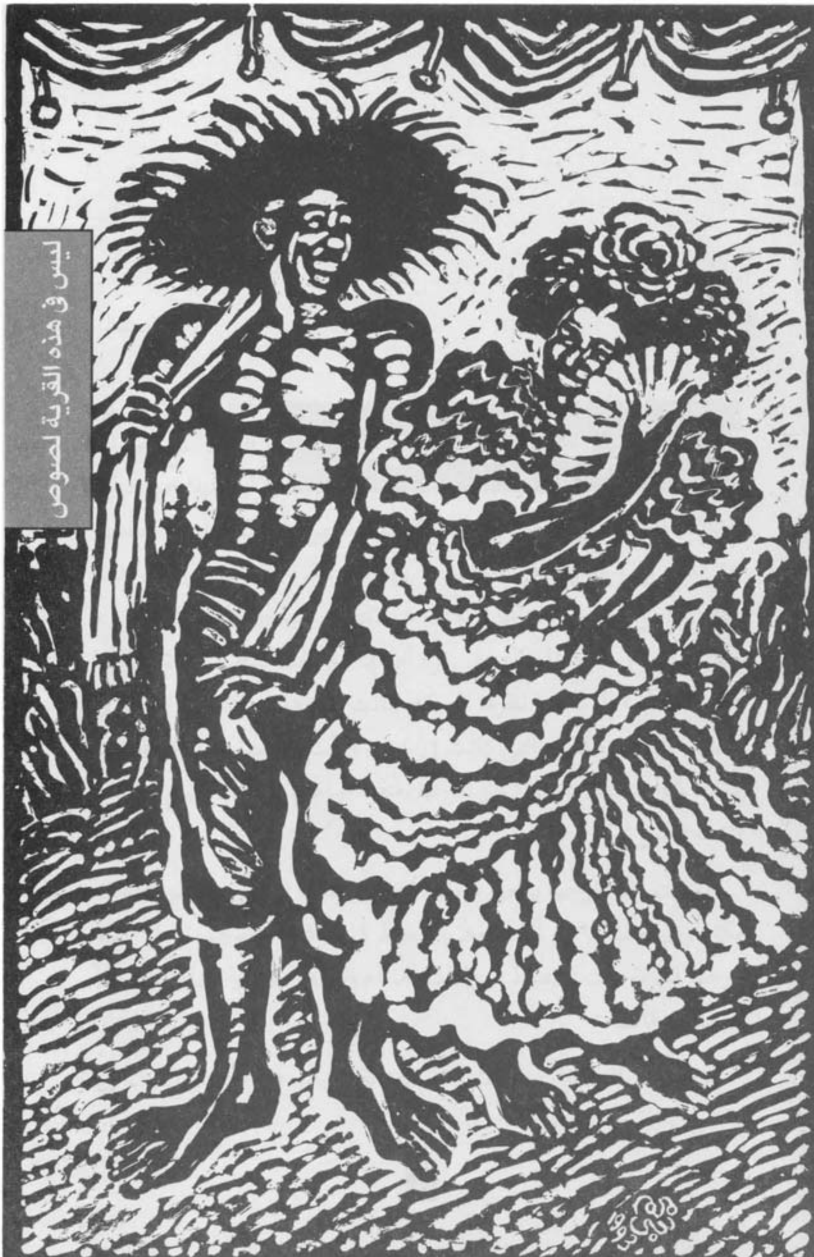
قام العمدة ورفع يده مودعاً بتحية عسكرية فاترة ، واتجه إلى الباب وهو يجر رجليه بدون أن يزرر سترته وقال :

ـ أرسل لى الحساب .

ـ على بيتك أم على البلدية ؟

ـ ولم ينظر إليه العمدة ، وأقفل الباب وقال من خلال الشبكة المعدنية :

ـ سيان .



ليس فى هذه القرية لصوص

عاد «دامازو» إلى الغرفة مع صياح أول ديك من ديكة القرية ، وكانت زوجته «آنا» ـ الحامل فى ستة أشهر ـ فى انتظاره وقد جلست على السرير وحذاؤها فى قدميها ، وبدأت لمبة الجاز تنطفىء . وفهم «دامازو» من هيئة زوجته أنها لم تكف عن انتظاره ثانية واحدة طوال الليل ، وأنها ـ حتى فى هذه اللحظة وهى تراه أمامها ـ مازالت تنتظره . وأشار إليها إشارة مطمئنة لم تلفت نظرها ، فقد كانت عيناها تحدقان فى خوف فى الشنطة القماش الحمراء التى كانت فى يده ، وزمَّت شفتيها ، وأخذ جسمها يرتعد ، وأمسكها «دامازو» من بلوزتها بعنف صامت . كانت تفوح من فمه رائحة الخمر .

وتركت «آنا» زوجها يرفعها بدون أن يستند تقريباً إلى شىء ، ثم انحطت بكل وزن جسمها إلى الأمام وهى تنخرط فى البكاء ، ووجهها على فانلة زوجها الملونة ذات الخطوط ، وظلت تعانقه وتضمه بين ذراعيها إلى أن هدأ روعها . وقالت :

ـ نمت وأنا جالسة ، ورأيت كأنهم يفتحون الباب فجأة و يدفعون بك إلى داخل الغرفة وأنت مضرج بالدماء .

وأبعدها «دامازو» عن نفسه بدون أن يقول شيئاً ، وأجلسها على الفراش من جديد ، ووضع اللفة فى حجرها ، ثم خرج ليتبول فى «الحوش» . وفكت «آنا» رباط اللفة ونظرت إلى ما بداخلها فوجَدَت ثلاثاً من كُرات «البلياردو» ، كُرَتَيْن بيضاوَيْن والثالثة حمراء ، وقد زال لمعانها جميعاً وتشوهت استدارتها من أثر الضربات .

وحين عاد «دامازو» إلى الغرفة وجد على وجه زوجته سمات التأمل والحيرة . وسألته :

ـ فيمَ تُستخدم هذه الكرات ؟

وهز كتفيه وأجاب :

ـ فى لعبة «البلياردو» .

وأعاد «دامازو» ربط اللفة ، ووضعها هى وآلة فتح الأقفال التى صنعها بنفسه ، والبطارية الصغيرة ، والمُدْيَةَ فى قاع الحقيبة الكبيرة ، ورقدت «آنا» ووجهها إلى الجدار بدون أن تخلع ملابسها ، واكتفى «دامازو» بخلع بنطلونه، وتثاءب وهو راقد على الفراش ، ومضى يدخن فى الظلام ويحاول أن يميز أى أثر لمغامرته فى همسات الفجر المتفرقة إلى أن تنبه إلى أن زوجته لم تنم ، وسألها :

ـ فيمَ تفكرين ؟

وأجابت :

ـ لا أفكر فى شىء .

وبدا صوتها الذى كانت تتخلله فى الأحوال العادية نغمات تشبه نغمات

«الباريتون» الرجالى ، أكثر عمقاً من أثر الحنق . وسحب «دامازو» نفساً أخيراً من سيجارته وأطفأ العقب فى أرض الغرفة ، وغمغم :

ـ لم يكن فى صالون «البلياردو» غيرها ، وقد بقيتُ فى داخله مايقرب من ساعة .

وقالت «آنا» :

ـ ليتهم رموك بالرصاص .

وانتفض «دامازو» وقال :

ـ الله يلعنك !

قالها وهو ينقر إطار السرير الخشبى بظهر أصابعه ويبحث متحسساً فى الأرض عن علبة السجاير وعلبة الكبريت ، وقالت «آنا» :

ـ أنت كالحمار عديم الإحساس . كان المفروض أن تدرك أننى ساهرة هنا ، وأننى كلما سمعت صوتاً فى الشارع حسبت أنهم يأتُوننى بجثتك .

ثم أضافت بزفرة :

ـ كل هذا من أجل ثلاث كرات «بلياردو» .

وقال «دامازو» :

ـ لم يكن فى درج الخزنة غير ٢٥ «سنتافو» (*)

ـ إذن كان من الواجب ألاَّ تأخذ شيئاً .

(*) الـ «سنتافو» جزء من مائة من الـ «بيزو» العملة الرسمية فى كولومبيا ، وهى كالقرش بالنسبة للجنيه .

قال «دامازو» :

ـ المشكلة كانت فى الدخول . ما كان باستطاعتى أن أعود خالى اليدين .

قالت :

ـ كان من الممكن أن تأخذ أى شىء آخر .

فقال :

ـ لم يكن هناك شىء آخر .

وقالت «آنا» :

ـ ما من مكان فيه أشياء أكثر مما فى صالون «البلياردو» .

وأجاب «دامازو» :

ـ هذا فى الظاهر ، ولكن المرء حين يكون فى الداخل ينظر حوله ويبحث فى كل مكان فلا يجد فى الصالون شيئاً ذا قيمة .

وصمتت طويلاً مُتَخَيِّلَةً دامازو وهى مفتوحة العينين ، تحاول أن تجد شيئاً ذا قيمة فى ظلام الذاكرة ، قالت :

ـ جائز !

ـ كان عملاً جنونيًّا .

وعاد «دامازو » يدخن ، وبدأت آثار الخمر تنقشع عنه ، وبدأ يحس من جديد بوزن جسمه وحجمه ومسئوليته . قال :

ـ كان فى داخل الصالون قط ، قط أبيض ضخم .

واستدارت «آنا» وأسندت بطنها المتكورة إلى بطن زوجها ، ووضعت ساقها بين ركبتيه ، كانت تفوح من فمها رائحة بصل . وسألت :

ـ تملكك الخوف !

ـ أنا ؟

قالت :

ـ يقولون إن الرجال أيضاً يشعرون بالخوف .

وخُيل إليه أنها تبتسم فابتسم .

ـ خوف قليل . الذى تملكنى هو رغبة شديدة فى قُبْلَة .

وتركها تُقبله بدون أن يرد قُبلتها . ثم حكى لها تفاصيل مغامرته . فعل ذلك وهو يدرك خطورة اعترافه ، ولكن بدون ندم ، وكأنه يستعيد ذكريات رحلة قام بها . وتحدثت هى بعد إطراق طويل .

وقال «دامازو» وهو يغمض عينيه :

ـ المهم هو البداية .

ثم استطرد قائلاً :

ـ وإذا راعينا أن هذه المرة الأولى فالنتيجة لم تكن سيئة .

ولم تشتد حرارة الشمس إلا وقد تقدم النهار ، وحين استيقظ «دامازو» كانت زوجته قد غادرت الفراش من فترة . ووضع رأسه تحت الحنفية فى الحوش وأجرى المياه ، وترك الحنفية مفتوحة دقائق إلى أن أفاق تماماً من نومه . كانت الغرفة جزءاً من مجموعة غرف متساوية ومستقلة على جانبى

ممر، وكانت جميع الغرف تشترك فى حوش مُدت فيه حبال الغسيل بالعرض. وكانت «آنا» قد وضعت لصق الجدار الخلفى الذى يفصله عن الحوش حاجزاً من الصفيح، وموقد بترول للطهى ولتسخين المكاوى، كما وضعت مائدة صغيرة تستخدمها هى وزوجها للأكل، وتستخدمها هى لكىِّ الملابس. وحين رأت «آنا» زوجها يقترب وضعت الملابس التى انتهت من كَيِّها جانباً ورفعت المكاوى الحديدية من على موقد البترول لتسخن القهوة. كانت أكبر منه سناًّ، وكان لونها شديدَ الشحوب، وكان فى حركتها عزم وعذوبة، شأن من يعيشون على أرض الواقع.

وفهم «دامازو» - برغم سحابة الضباب التى ولَّدَها ما يشعر به من صراع - أن زوجته تريد أن تقول له شيئاً بعينيها، وكان حتى ذلك الوقت لم ينتبه إلى اللغط الصادر من الحوش، وهمست «آنا» وهى تقدم له القهوة:

- لم يتحدثوا عن شىء آخر طوال النهار، وقد هرع الرجال إلى المكان من مدة.

ولاحظ «دامازو» بالفعل أن الرجال والأطفال قد اختفوا من «الحوش». وتابع وهو يتناول القهوة فى صمت حديث النسوة اللائى كن ينشرن الغسيل فى الشمس. وأخيراً أشعل سيجارة وخرج من المطبخ، وصاح:

- تيريزا!

وردت على ندائه صبيةِ ابتلت ملابسها والتصقت بجسمها.. وقالت «آنا»:

- حاذِرْ فى كلامك.

واقتربت الصبية، وسألها «دامازو»:

ـ ما الذى جرى ؟

وأجابت الصبية :

ـ ناس دخلوا صالون «البلياردو» وسرقوا كل مافيه .

كان الواضح أنها على علم بكل شىء ، وشرحت كيف فك اللصوص موجودات المحل قطعة قطعة وكيف أنهم سرقوا حتى مائدة «البلياردو» . وكانت تتحدث باقتناع جعل «دامازو» نفسه يتوهم أنها تقول الحقيقة .

قال فى نفسه وهو يعود إلى المطبخ :

ـ فليفعلوا ما يقدرون عليه .

وأخذت «آنا» تغنى بصوت خفيض . ووضع «دامازو» كرسيًّا لصق حائط الحوش ، وحاول التغلب على مخاوفه ، لقد بلغ العشرين منذ ثلاثة أشْهُر ، وكان شاربه المستقيم المشذب ـ الذى كان يعتنى به اعتناء من يبذل من ذات نفسه ـ يضفى طابعاً من النضج على وجهه الذى تحجر من الجُدرى ، ومنذ ذلك الوقت وهو يشعر بأن رجولته قد اكتملت ، ومع ذلك فإنه منذ هذا الصباح وذكريات الليلة السابقة لم تفارقه . لم يكن يدرى من أين يبدأ حياته .

حين فرغت «آنا» من الكىّ قسمت الملابس المكوية إلى كومين متساويين وتهيأت للخروج ، فقال لها «دامازو» :

ـ لاتغيبى .

فأجابته :

ـ لن أغيب أكثر من المعتاد .

وسار معها إلى الغرفة ، وقالت :

ـ هاهو القميص ذو المربعات . يُستحسن ألاَّ ترتدى وأنت خارج «الفانلة» التى كنت ترتديها أمس .

ونظرت إلى عينى زوجها الشفافتين اللتين تشبهان عينى القط ، وأضافت :

ـ ربما يكون أحدهم قد رآك .

وجفف «دامازو» على بنطلونه عرق يديه وقال :

ـ لم يرنى أحد .

قالت :

ـ من يدرى ؟

وحملت كومة من الملابس المكوية تحت كل ذراع من ذراعيها ، وقالت :

ـ على أى حال ، من المستحسن ألاَّ تخرج ، انتظر حتى أقوم بجولة هناك ، وكأنى لا أعلم شيئاً عن الموضوع .

لم يكن فى القرية حديث غير سرقة صالون «البلياردو» واستمعت «آنا» إلى تفاصيل الحادث عدة مرات فى روايات مختلفة ومتضاربة . وبعد أن سلمت جميع الملابس لأصحابها لم تذهب إلى السوق كما تعودت أن تفعل كل يوم سبت ، بل ذهبت رأساً إلى الميدان .

لم تجد زحاماً أمام صالون «البلياردو» كما كانت تتصور . كان بعض الرجال يتحاورون فى ظل شجر اللوز . وكان التجار قد احتفظوا بأقمشتهم

الملونة فى ساعة الغداء ، وبدا وكأن المحلات مستغرقة فى النوم تحت التندات المصنوعة من قماش القلوع ، وثمة رجل كان نائماً فى بَهْو الفندق على كرسى هزاز فى وضع استرخاء تام وقد فتح فيه فمه ورجليه وذراعيه ، كان قيظ الظهيرة قد شل كل حركة فى البلدة .

سارت «آنا» على مسافة من صالون «البلياردو» . وحين مرت على الأرض الفضاء الواقعة أمام الباب صادفت جمعاً من الناس ، وتذكرت شيئاً قاله لها «دامازو» ، شيئاً كان الكل يعرفونه ، وإنْ كان زبائن المحل هم دون غيرهم الذين كانوا يذكرونه ، وهو أن الباب الخلفى لصالون «البلياردو» كان يفضى إلى الأرض الفضاء . وبعدها بلحظة وجدت نفسها ، وهى تحمى بطنها بذراعيها ، وسط الناس ، وعيناها مثبتتان على الباب المكسور ، كان القفل سليماً ، ولكن إحدى حلقتى الباب الحديديتين اللتين ركب فيهما القفل قد انتزعت من موضعها كما يُنتزع السن من الفم . وتأملت «آنا» الضرر الذى أحدثته هذه العملية الفردية المتواضعة ، وفكرت فى زوجها بحسرة ، وسألت :

ـ من الذى فعلها ؟

ولم تجرؤ على إجالة النظر حولها . وأجاب أحدهم :

ـ الله أعلم ، يقال إنه شخص أجنبى عن القرية .

وقالت امرأة خلفها :

ـ لاشك ، فليس فى هذه القرية لصوص ، وليس فيها أحد غير معروف .

وأدارت «آنا» رأسها . وقالت وهى تبتسم :

ـ معك حق .

كان جلدها قد نضح بالعرق ، وكان إلى جوارها رجل طاعن فى السن تغضنت رقبته بأخاديد عميقة . وسألته :

ـ هل سرقوا كل ما فى المحل !

ـ قال العجوز :

ـ سرقوا مائتى «كيزو» و «كرات البلياردو» .

وتفحصها باهتمام غريب وأضاف :

ـ بعد قليل سيكون علينا أن ننام بأعين مفتوحة .

وتفادت «آنا» نظرته وقالت من جديد :

ـ معك حق .

ثم وضعت منديلها على رأسها وابتعدت ، ووقع فى روعها أن العجوز يتبعها بنظرته .

وخيم خشوع على الحشد المتجمع فى الأرض الفضاء على مدى ربع ساعة، وكأن وراء الباب المكسور ميتاً ، ولكن الناس مالبثوا أن تحركوا من موقفهم وأخذوا يدورون حول أنفسهم ، ثم خرجوا إلى الميدان .

كان صاحب صالون «البلياردو» واقفاً لدى الباب مع العمدة واثنين من رجال الشرطة ، وكان قصير القامة ، بديناً ، وكان بنطلونه مرفوعاً بدون حمالة لايمسكه إلا ضغط المعدة ، وكان يضع على عينيه نظارة كالنظارات التى يصنعها الأطفال بأيديهم ، وقد علته مسحة من الوقار .

وأحاط به الناس ، واستمعت «آنا» إلى شرحه وهى مستندة إلى الحائط ، إلى أن بدأ الناس يتفرقون ويمضى كلٌّ إلى سبيله . وعادت إلى الغرفة وقد احتقن وجهها من ضيق التنفس بصحبة عدد من الجيران الذين لايكفُّون عن الكلام عن حادث السرقة .

وسأل «دامازو» نفسه عدة مرات ، وهو متمدد على فراشه : كيف استطاعت «آنا» فى الليلة السابقة أن تنتظره بدون تدخين . وحين رآها داخلة وهى تبتسم وترفع على رأسها منديلها الذى بلله العرق أطفأ السيجارة بحالها تقريباً فى الأرض وسط صف من الأعقاب ، وانتظر بقلق زائد أن تتحدث ، وسألها :

- ما الأخبار ؟

وركعت «آنا» أمام السرير وقالت :

- أنت لست لصًّا فقط ، بل كذاب أيضاً .

- لماذا ؟

- ألم تَقُل لى أن درج الخزنة لم يكن به نقود ؟

وعقد «دامازو» ما بين حاجبيه وقال :

- لم يكن فيه شىء .

وقالت «آنا» :

- بل كان فيه مائتا «بيزو» .

فقال وهو يرفع صوته :

ـ هذا كذب !

ثم جلس فى الفراش وعاد يتحدث بصوت خفيض :

ـ لم يكن فيه غير ٢٥ «سنتافو» .

واقتنعت بكلامه . وقال «دامازو» وهو يضم قبضتيه :

ـ هو يستحق أن أهشم له وجهه .

وضحكت «آنا» ضحكة صريحة وقالت :

ـ لاتكن أحمق .

وضحك هو أيضاً . وأخبرته زوجته ـ وهو يحلق ذقنه ـ بنتيجة تحرياتها ، وهى أن الشرطة تبحث عن فاعل غريب عن القرية ، وقالت :

ـ يقولون إنه وصل يوم الخميس ، وإنهم رأوه الليلة الماضية يحوم حول الميناء ، ويقولون أيضاً إنهم لم يتمكنوا من العثور عليه فى أى مكان .

وفكر «دامازو» فى الغريب الذى لم تقع عيناه عليه قط ، وشَكَّ فيه لحظة باقتناع صادق . وقالت «آنا» :

ـ لعله غادر القرية .

واحتاج «دامازو» كالمعتاد إلى ثلاث ساعات للتأنق . . لتشذيب شاربه أولاً بالمليمتر ، ثم للاستحمام تحت حنفية الحوش . وتابعت «آنا» خطوة خطوة عملية تسريحة لشعره ، وهى عملية كانت تستغرق منه وقتاً طويلاً وتتم على مراحل . كانت تجد فى مشاهدته وهو يسرح شعره سعادة لم ينله منها شىء منذ أن رأته ذات ليلة لأول مرة . وحين نظر إلى نفسه فى المرآة تأهباً

للخروج فى قميصه ذى المربعات الحمراء أحست بأنها جاوزت سن الشباب، وبأنها من سَقْطِ المتاع . وقام «دامازو» أمامها ببعض حركات الملاكمة بمرونة وخفة الملاكم المحترف . وأمسكته من معصميه وسألته :

ـ معك نقود ؟

وأجاب «دامازو» ضاحكاً :

ـ أنا غنى . معى مائتا «بيزو» .

واستدارت «آنا» صوب الحائط وأخرجت من صدرها رزمة من الأوراق النقدية وأعطت زوجها «بيزو» وهى تقول :

ـ خذ يا «خورج نيجريتى» .

وذهب «دامازو» تلك الليلة إلى الميدان والتقى بشلة أصدقائه . ونصب الفلاحون ـ الذين جاءوا من الحقول بمنتجاتهم ليبيعوها فى سوق الأحد ـ خيامهم بين مواقد بائعى البطاطس المقلى وموائد اليانصيب ، وعندما حل الليل أخذت أصوات شخيرهم تتردد فى الميدان . ولم يَبْدُ أن اهتمام أصدقاء «دامازو» بسرقة صالون «البلياردو» كان أكبر من اهتمامهم بمباراة «البيسبول» التى لم يتمكنوا من سماعها هذا المساء بسبب غلق الصالون . وذهب «دامازو» مع أصحابه إلى السينما وهم يتحدثون عن «البيسبول» بدون أن يتشاوروا فيما بينهم ، أو يستعلموا عن الفيلم .

وكان بطل الفيلم المعروض هو الممثل الكوميدى «كنتين فلاس» . وضحك «دامازو» ـ وكان يجلس فى الصف الأول من «اللوج » أثناء العرض ـ ملء شدقيه . وشعر بأنه قد شفى من مخاوفه فى هذه الأمسية العذبة من

أمسيات شهر يونيو . وفى اللحظات التى كانت تتوقف فيها حركة الفيلم ، لم يكن يرى خلالها سوى الأشعة القوية المنبعثة من غرفة العرض ، والتى تُشبه رذاذ المطر ، كان سكون الليل يخيم على دار السينما غير المسقوفة .

وفجأة بهتت الصور على الشاشة ، وسُمعت جلبة فى مؤخرة القاعة ، وأُضيئت الأنوار ، وخيل لـ «دامازو» أنهم اكتشفوه وعرفوا مكانه ، فحاول الهرب ، على أنه رأى جمهور الصالة فى نفس اللحظة وكأنَّ على رءوسه الطير، كما رأى أحد رجال الشرطة وقد لف حزامه على يده وراح ينهال بمشبكه النحاسيِّ الثقيل ضرباً على رجل أسود ضخم الجثة . وتعالى صراخ النسوة، وأخذ الشرطى الذى كان يضرب الزنجى يصيح فوق صياح النساء : «حرامى ! حرامى!» . وجعل الزنجى ينتقل متخبطاً فى سرعة وسط صفوف المقاعد ، وفى أثره شرطيان يوسعانه ضرباً إلى أن تمكنا من القبض عليه ، وماهى إلا لحظات حتى ربط الشرطى الذى كان يضربه بحزامه مرفقيه خلف ظهره ودفعه هو والشرطيان الآخران أمامهم حتى الباب . حدث كل هذا بسرعة جعلت «دامازو» ، لايتبين حقيقة الموقف إلاَّ والزنجى يمر بالقرب منه ، وقد تمزق قميصه ، وتلطخ وجهه بطبقة من التراب والعرق والدم ، وكان يبكى ويردد : «قتلتمونى ، قتلتمونى» . ثم انطفأت الأنوار واستؤنف عرض الفيلم .

لم يعاود «دامازو» الضحك وهو يشاهد بقية الفيلم ، ورأى وهو يدخن بلا توقف شذرات من قصة لا رابط لها ، إلى أن أُضِيئتْ الأنوار ، وأخذ المتفرجون يرمق بعضهم بعضاً بنظرات من يخاف من العودة إلى عالم الواقع . وهتف أحدهم بجواره : فيلم جميل . ولم ينظر إليه «دامازو» . وعاد الرجل يقول :

ـ «كانتين فلاس» ممثل ولاكل الممثلين .

وجرف تيار الناس «دامازو» حتى باب الخروج . وعادت البائعات المتجولات إلى بيوتهن ببضاعتهن التى لا تؤكل . كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ، كان الشارع مع ذلك غاصًّا بالناس الذين انتظروا أن تنتهى حفلة السينما لكى يسألوا من كانوا بالداخل عن حادث القبض على الزنجى .

ودخل «دامازو» غرفته هذه الليلة فى حذر جعل «آنا» لاتتنبه فى نومها إلى وجوده إلا وهو يدخن سيجارته الثانية متمدداً على الفراش . وقالت :

ـ الأكل على الموقد .

وقال «دامازو» :

ـ لست جائعا .

وتنهدت «آنا» وقالت بدون أن تستيقظ :

ـ حلمت أن «نورا» كانت تصنع دُمًى من الزبدة .

وتنبهت فجأة إلى أنها نامت بدون رغبة منها ، واستدارت مستاءة ناحية «دامازو» وهى تفرك عينيها وقالت :

ـ لقد قبضوا على الغريب .

وانتظر «دامازو» لحظة قبل أن يسأل :

ـ من أخبرك ؟

وقالت «آنا» :

ـ قبضوا عليه فى السينما . الكل ذهبوا إلى هناك .

وقصَّتْ قصةً مشوهة عن واقعة القبض على الزنجى . ولم يصحح «دامازو» معلوماتها . وزفرت «آنا» وقالت :

ـ مسكين .

وقال «دامازو» ، بغضب :

ـ مسكين لماذا ؟ كنت تفضلين أن أكون أنا الذى يُزَجُّ به فى السجن ؟

ولم ترد ، فقد كانت تعرفه وظلت تسمعه وهو يدخن ويسحب أنفاس السيجارة كالمصاب بالربو إلى أن صاحت ديوك الفجر ، ثم سمعته وهو يقوم يجوس فى الغرفة متحسسا طريقه بيديه كالأعمى . ولم تفهم ماذا كان يفعل ، ثم سمعته وهو يحفر الأرض تحت السرير أكثر من ربع ساعة ، ثم وهو يخلع ملابسه فى الظلام محاولاً ألاَّ يحدث صوتاً ، وما درى أنها لم تكف لحظة عن مساعدته بتصنع الاستغراق فى النوم . وتحرك شىء فى غرائزها البدائية ، فعرفت أن «دامازو» كان فى السينما ، وأدركت السبب فى كونه قام للتَّوِّ بدفن كرات «البلياردو» تحت السرير .

فتح الصالون أبوابه يوم الاثنين وانطلق إلى داخله جمع هائج فى هجوم كهجوم الغزاة ، وكانت مائدة «البلياردو» قد غُطيت بملاءة أرجوانية أضفت على المحل طابع الحداد . وكانت على الحائط لافتة تقول : «لعب البلياردو موقف لعدم وجود كرات» . وكان الناس يدخلون لقراءة اللافتة وكأن فيها جديداً ، وكان بعضهم يقف أمامها وقتاً طويلاً ويعيد قراءة عبارتها بإجلال غامض .

وكان «دامازو» من أول الزبائن . لقد قضى جزءاً من حياته فى المقاعد المخصصة للمتفرجين على لعبة «البلياردو» وها هو ذا يعود إلى مقعده بعد أن أعيد فتح الصالون للجمهور . كانت عملية صعبة كتقديم العزاء لأهل المتوفى ، ولكنها مثل التعزية كانت عملية قصيرة ، وربت «دامازو» على كتف صاحب المحل من فوق «البار» وقال :

ـ حكاية محزنة يا «دون روكيه» .

وهز هذا رأسه بابتسامة المنكوب وهو يتحسر وقال : «وأى حكاية!» ثم مضى يخدم عملاء المحل ، فى حين جلس «دامازو» على أحد المقاعد ذات الأرجل العالية أمام «البار» يتأمل شبح المائدة الراقدة تحت كفنها الأرجوانى ثم قال :

ـ شىء عجيب !

ـ صدقت .

قالها رجل كان يجلس بجواره على البار وأضاف :

ـ كأننا فى أسبوع الآلام(*) .

وحين انصرفت أغلبية الزبائن ساعة الغداء وضع «دامازو» قطعة نقود فى جهاز الأسطوانات الأتوماتيكى واختار أغنية مكسيكية ، كان من كثرة ما طلبها يعرف مكان «الزر» الخاص بها على لوحة الأزرار عن ظهر قلب ، وكان «دون روكيه» فى هذه الأثناء ينقل بعض الموائد والكراسى من مكان إلى مكان آخر فى مؤخرة الصالون . وسأله «دامازو» :

(*) الأسبوع الذى عُذِّب فيه السيد المسيح قبل صلبه ، عند المسيحيين .

ـ ماذا تفعل ؟

وأجاب «دون روكيه» :

ـ سأضع أوراق اللعب على الموائد ، لابد أن أفعل شيئاً إلى أن تصل الكرات .

وبدا وهو يتحرك متخبطاً فى أنحاء الصالون ، وفى كل يد من يديه كرسىّ أشبه بأرمل فقد زوجته منذ قليل . وسأله «دامازو» :

ـ ومتى تصل الكرات ؟

ـ قبل مرور شهر فيما أرجو .

وقال «دامازو» :

ـ ستكون الكرات الأخرى قد ظهرت قبلها .

ونظر «دون روكيه» فى رضًا إلى صف الموائد المرصوصة ، وقال وهو يجفف العرق بكمه من جبهته :

ـ لن تظهر ، لقد قطعوا الأكل عن الزنجى من يوم السبت ، وبرغم هذا لم يذكر مكانها .

وتطلَّعَ إلى «دامازو» من خلال زجاج نظارته الذى تغبش من العرق ، وقال :

ـ أكيد أنه رماها فى النهر .

وعض «دامازو» شفتيه . وسأل :

ـ والمائتا «بيزو» ؟

وأجاب دون روكيه :

ـ لم يجدوا معه منها إلا ثلاثين .

ونظر كل منهما فى عينى صاحبه ، وشعر «دامازو» ـ بدون أن يجد لشعوره تفسيراً ـ بأن هذه النظرة أنشأت بينه وبين «دون روكيه» علاقة أشبه بالتواطؤ. ورأته «آنا» فى عصر ذلك اليوم ، من مكانها أمام حوض الغسيل ، وهو يتقدم نحو البيت موجهاً لكمات إلى خصم وَهْمِىّ ، وتبعته حتى وصل إلى الغرفة . قال «دامازو» :

ـ خلاص . العجوز سلَّم بالأمر الواقع وطلب كرات جديدة ، ولن يلبث الناس أن ينسوا هذا الموضوع .

ـ والزنجى ؟

قال «دامازو» وهو يرفع كتفيه :

ـ لاخوف عليه ، إذا لم يعثروا على الكرات فسيطلقون سراحه .

وبعد أن تناولا الطعام جلسا أمام باب الشارع وظلا يتحدثان مع الجيران إلى أن أُطفىء مكبر الصوت فى السينما مؤذنا بانتهاء الحفلة الأخيرة ، وحين حانت ساعة الرقاد قال «دامازو» ودمه يغلى من التحفز :

ـ خطرت لى فكرة لصفقة عظيمة !

وأدركت «آنا» أنه كان يدير نفس الفكرة فى رأسه منذ ساعة الغروب . واستمر «دامازو» :

ـ سأنتقل من قرية إلى قرية . . أسرق كرات «البلياردو» من إحداها وأبيعها فى الأخرى ، ففى كل قرية «صالون بلياردو» .

قالت «آنا» :

ـ إلى أن يطلقوا عليك الرصاص .

قال :

ـ رصاص إيه ؟ هذا شىء لا يحدث حتى فى الأفلام .

ووقف فى منتصف الغرفة وقد طَغَى عليه حماسه . وبدأت «آنا» تخلع ملابسها ، وقد بدا عليها عدم الاكتراث ، ولو أنها كانت فى الحقيقة تستمع إليه بانتباه يُخالطه الإشفاق . وقال «دامازو» :

ـ سأشترى صفًّا كاملاً من البدل .

ورسم بسبابته مشجباً خياليًّا عرضه بعرض الحائط ، وأضاف :

ـ يمتد من هنا إلى هنا ، وسأشترى كذلك خمسين زوجاً من الأحذية .

وقالت «آنا» :

ـ ربنا يسمع منك .

وصوب إليها «دامازو» نظرة صارمة وقال :

ـ مشروعاتى لاتهمك .

ـ إنها تبدو لى صعبة التحقيق .

قالتها وأطفأت المصباح ، واضطجعت ووجهها إلى الحائط ، ثم أضافت بمرارة حقيقية :

ـ حين تبلغ الثلاثين يكون عمرى أنا قد أصبح ستة وأربعين .

وقال «دامازو» :

ـ دعْكِ من هذا التخريف .

وتحسس جيبه بحثاً عن كبريت ، وقال فى ارتباك :

ـ وأنت كذلك لن تحتاجى إلى غسل ملابس الناس .

وأشعلت له «آنا» سيجارته وحملقت فى الشعلة حتى انطفأ عود الثقاب بعد أن اشتعل طرف السيجارة . واستلقى «دامازو» على الفراش واستطرد :

ـ أتعرفين مِمَّ تُصنع كرات «البلياردو» ؟

ولم ترد «آنا» . ومضى هو يقول :

ـ من ناب الفيل . ومن الصعب الحصول عليها الآن ؛ ولذلك فلابد من الانتظار شهراً حتى تصل . هل تتصورين ؟

وقاطعته «آنا» قائلة :

ـ نَمْ . علىَّ أن أصحو فى الخامسة .

وعاد «دامازو» إلى نمط حياته الطبيعى ، فكان يقضى سحابة يومه فى الفراش وهو يدخن ، ثم ينام نومة القيلولة ، وحين يصحو منها يبدأ عملية التأنق للخروج . وفى المساء كان يذهب إلى صالون «البلياردو» ليستمع إلى وصف مباراة بطولة لعبة «البيسبول» فى الراديو . وكان حماسه فى نسيان مشاريعه لايضارعه إلا حماس ذهنه فى إعدادها . وسأل زوجته يوم السبت :

ـ معك نقود ؟

وأجابته :

ـ أحد عشر «بيزو» .

ثم أضافت بوداعة :

ـ لدفع إيجار الغرفة .

ـ سأعرض عليك صفقة .

ـ ماذا ؟

ـ أقرضينى إياها .

ـ والإيجار ؟

ـ ندفعه فيما بعد .

وهزت «آنا» رأسها ، وأمسكها «دامازو» من معصمها وأرغمها على القيام من المائدة التى تناولا عليها فطورهما ، وقال وهو يمر براحة يده على ذراعها برقة ، شارد الفكر :

ـ حين أبيع الكرات ستكفى نقودنا لدفع كل شىء .

ولم ترضخ «آنا» لإغرائه . وصحبها إلى السينما فى هذا المساء ، ولم يرفع يده من على كتفها حتى وهو يتحدث مع أصدقائه فى الاستراحة ، وشاهد الفيلم على أجزاء ، وفاض الكيل بـ «دامازو» فقال :

ـ ليس أمامى إذَن إلاَّ أن أسرق .

وهزت «آنا» كتفها .

قال «دامازو» وهو يدفعها بين جمهور الناس الذين يغادرون دارِ السينما :

ـ سأضرب بهراوة أول شخص أقابله وسيسوقوننى إلى السجن بتهمة القتل .

وابتسمت «آنا» لنفسها ، ولكنها ظلت على رفضها . وفى صباح اليوم التالى ـ بعد ليلة من العذاب ـ ارتدى «دامازو» ملابسه فى عجلة وتَجَهُّمٍ مُتوعدٍ، ومر أمام زوجته وهو يزمجر :

ـ أنا خارج ولن أعود .

وانتابت «آنا» رعدة لم تتمكن من مغالبتها ، وصاحت :

ـ مع السلامة .

ومنذ أن صفق «دامازو» الباب وراءه بدأ بالنسبة له يوم فارغ لاينتهى . كان اليوم يوم أحد ، وكانت أوانى الفخار زاهية فى سوق الأحد ، وكانت النسوة الخارجات مع أطفالهن من الكنيسة بعد قُدَاس الساعة الثامنة يرتدين ثياباً ذات ألوان فاقعة ، وكان كل ذلك يُضْفِى على الميدان طابعاً من البهجة، ولكن وطأة الجو بدأت تشتد بفعل الحرارة .

أمضى «دامازو» اليوم فى صالون «البلياردو» ، ولعبت مجموعة من الرجال الورق فى الصباح ، وقبل أن تحل ساعة الغداء زاد عدد الزبائن لفترة قصيرة، ولكن كان من الواضح أن المحل فقد قدرته على اجتذاب الناس ، ولم تنتعش حركة الصالون إلا ساعة الغروب حين بدأت إذاعة مباراة «البيسبول» .

وبعد أن أغلق صالون «البلياردو» أبوابه وجد «دامازو» نفسه بدون هدف

فى ميدان بدا كشخص أصابه نزيف جعله يفقد كمية كبيرة من دمه . ونزل إلى الشارع الموازى للميناء وسمع موسيقا مرحة تأتى من بعيد فسار إلى مصدرها . وكانت فى نهاية الشارع صالة رقص فسيحة وبدائية تزينها أكاليل من الورق الملون الذى بهتت ألوانه ، وفى آخر الصالة كانت تجلس فرقة موسيقية على منصة خشبية ، وكانت تفوح فى الداخل رائحة أصباغ نسائية خانقة .

وجلس «دامازو» على البار ، وحين انتهت الفرقة من العزف مر الفتى الذى كان يعزف بالصنجتين بين من اشتركوا فى الرقص ليجمع من الرجال ماتجود به أيديهم . وتركت فتاة ثلة من صويحباتها فى منتصف الصالون واقتربت من «دامازو» .

ـ كيف الحال يا «خورخ نيجريب» ؟

وأجلسها «دامازو» إلى جانبه ، وسأل النادل ـ الذى كان التراب يعلو رداءه ، والذى وضع زهرة قرنفل فوق أُذُنه ـ بصوت نشاز :

ـ طلباتكم ؟

وسألت الفتاة «دامازو» :

ـ ماذا تطلب ؟

ـ لاشىء .

ـ أنا التى سأدفع الحساب .

وقال «دامازو» :

ـ ليست هذه هى المسألة ، ولكنى جائع .

وتنهد النادل وقال :

ـ جائع ولك مثل هاتين العينين ؟

وانتقلا إلى المطعم فى آخر الصالة . وكانت الفتاة تبدو من شكل جسمها فى مقتبل العمر ، ولكن الطبقة الكثيفة من البودرة ومرهم التجميل وأحمر الشفاه التى كانت تعلو وجهها كانت تَحُول دون معرفة سنها الحقيقى . وبعد العشاء تبعها «دامازو» إلى غرفتها التى كانت تقع فى نهاية حوش مظلم يتردد فيه صوت تنفس البهائم النائمة ، وكان على الفراش رضيعٌ ابن شهور قليلة ملفوف فى خِرَق ملونة . وفرشت الفتاة الخرق فى صندوق من الخشب وأراحت عليها الرضيع ، ثم وضعت الصندوق على الأرض ، وقال لها «دامازو» :

ـ ستأكله الفئران .

فقالت :

ـ لن تأكله .

واستبدلت بالثوب الأحمر ثوباً يكشف جزءاً أكبر من نحرها ، رُسِمَتْ عليه زهور صفراء كبيرة . وسأل «دامازو» :

ـ من أبوه ؟

قالت :

ـ علمى علمك .

ثم أضافت ، عند الباب :

ـ سأعود حالاً .

وسمعها تقفل الباب بالمفتاح ، ودخن عدة سجائر وهو راقد على ظهره بكل ملابسه ، وكانت ملاءة السرير تهتز على إيقاع رقصة الـ «مامبو» . ولم يدرِ فى أى لحظة غلبه النعاس ، وحين استيقظ بدت له الغرفة فى صدى الموسيقا أكبر حجماً .

وكانت الفتاة تخلع ملابسها أمام السرير . وسألها :

ـ كم الساعة ؟

قالت :

ـ الرابعة تقريباً . ألم يبكِ الطفل ؟

وقال «دامازو» :

ـ لا أظن .

رقدت الفتاة قريبًا منه جدًّا وهى تتفحصه بعينين فيهما حَوَلٌ خفيف ، وأخذت تفك أزرار قميصه . وأدرك «دامازو» أنها أفرطت فى الشرب ، فحاوَلَ أن يطفىء المصباح ، ولكنها قالت :

ـ دعه فإنى أحب النظر إلى عينيك .

وامتلأت الغرفة بأصوات الريف منذ الفجر ، وبكى الطفل ، ورفعته الفتاة إلى الفراش وأعطته ثديها وهى تغنى بين أسنانها أغنية من ثلاثةِ أنغام إلى أن نام الجميع . ولم يتنبه «دامازو» إلى أن الفتاة قد صحت إلاَّ قرب

السابعة ، وكانت قد خرجت من الغرفة وعادت بدون الطفل ، وقالت الفتاة :

ـ الناس كلهم ذهبوا إلى الميناء .

وشعر «دامازو» كأنه لم ينم طوال الليل أكثر من ساعة . وسأل :

ـ لماذا ؟

فقالت :

ـ ليروا الزنجى الذى سرق الكرات ، سيُرحِّلُونَه اليوم .

وأشعل «دامازو» سيجارة . وتنهدت الفتاة وقالت :

ـ مسكين !

ـ مسكين لماذا ؟ هل أجبره أحد على السرقة ؟

وفكرت الفتاة لحظة ورأسها مائل على صدره ، وقالت بصوت لايكاد يسمع :

ـ لم يكن هو السارق .

ـ من قال هذا ؟

قالت :

ـ عندى الدليل . فى الليلة التى سرقوا فيها صالون «البلياردو» كان الزنجى عند «جلوريا» وأمضى اليوم التالى بأكمله فى غرفتها وتركها عند غروب الشمس . ثم جاء من قال إنهم قبضوا عليه فى السينما .

ـ باستطاعة جلوريا أن تقول هذا للبوليس .

قالت :

ـ الزنجى قال : وذهب العمدة إلى غرفة جلوريا وَقَلَبَهَا رأسها على عقب، وقال إنه سيزج بها فى السجن كشريكة فى السرقة . وفى النهاية سُويت العملية مقابل دفع عشرين «بيزو» .

ونهض «داماوز» قبل الثامنة . وقالت له الفتاة :

ـ ابق معى ، سأذبح دجاجة نتغدى بها .

وهز «دامازو» المشط على راحة يده قبل أن يضعه فى جيب بنطلونه الخلفى، وقال وهو يجذب الفتاة من معصميها :

ـ آسف .

رفعت وجهها ، كانت فى الحقيقة فى ريعان شبابها ، وكانت عيناها السوداوان تجعلانها تبدو مهيضة الجناح ، واحتضنته وذراعاها على خصره ، وقالت بإلحاح :

ـ ابق معى .

ـ نهائيًّا؟

وكست وجهها حمرة خفيفة وابتعدت عنه قائلة :

ـ أيها المخادع !

أحست «آنا» بضعف شديد هذا الصباح ، ومع ذلك انتقلت إليها عدوى الإثارة التى اجتاحت القرية ، فجمعت الملابس المطلوب غسلها

هذا الأسبوع بأسرع من المعتاد ، وذهبت إلى الميناء لمشاهدة ترحيل الزنجى ، كان هناك حشد كبير من الناس ينتظر على أحر من الجمر أمام «اللنشات» الجاهزة للإبحار . وكان «دامازو» هناك . وزغزغته «آنا» فى أسفل ظهره بسبابتها . وقفز زوجها من أثر المفاجأة وسألها :

ـ ماذا تفعلين هنا ؟

قالت :

ـ جئت أودعك .

ونقر «دامازو» بظهر أصابعه عمود النور وقال :

ـ الله يلعنك .

وأشعل سيجارة ثم قذف العلبة الفارغة فى النهر . وأخرجت «آنا» علبة أخرى من طيات ثوبها ووضعتها له فى جيب قميصه . وابتسم «دامازو» للمرة الأولى وقال :

ـ أنتِ بلهاء .

وقالت«آنا» :

ـ صحيح .

وبعدها بقليل اقتيد الزنجى إلى داخل أحد «اللنشات» بعد أن ساقه رجال الشرطة عبر الميدان وقد ربطوا معصميه إلى كتفه بحبل كان يجره أحدهم . وكان يسير إلى جواره عدد آخر من الرجال المسلحين ببنادق . كان الزنجى بلا قميص وقد شقت شفته السفلى ، وظهر أثر الكدمات على

أحد حاجبيه وكأنه ملاكم خارج من المباراة . وكان يقابل نظرات الجمع بإباء سلبى . وعند مروره أمام باب صالون «البلياردو» حيث تجمع أكبر عدد من الناس لِئَلاَّ يفوتهم شىء من المنظر . تابعه صاحب المحل بنظراته وهو يهز رأسه فى صمت ، وكان باقى الناس ينظرون إليه بشىء من العطف .

وأقلع اللنش على الفور ، وصعد الزنجى على ظهره ، وربطوا يديه وقدميه إلى برميل بترول ، وحين غير اللنش اتجاهه فى منتصف النهر وأطلق صفيراً للمرة الأخيرة كان ظهر الزنجى يلمع تحت أشعة الشمس .

وغمغمت «آنا» قائلة :

ـ مسكين !

وقال شخص بجوارها :

ـ إنهم مجرمون . . مَنِ الذى يستطيع أن يتحمل نار هذه الشمس الموقدة؟

كان المتحدث امرأة بالغة البدانة . وألقى «دامازو» عليها نظرة ثم بدأ يتحرك فى اتجاه الميدان . وأسر فى أذن «آنا» :

ـ أنت كثيرة الكلام ، ماالذى يمنعك من إذاعة الحكاية بأعلى صوتك ؟

وصحبته إلى باب صالون «البلياردو» وقالت له وهى تتركه :

ـ اذهب على الأقل لتغير ملابسك ، شكلك شكل شَحَّاذين .

وجذب الخبر إلى صالون «البلياردو» جمهوراً غفيراً من الزبائن الذين لم يكن لهم حديث إلاَّ ترحيل الزنجى ، وكان «دون روكيه» يبذل جهده ليلبى

رغبات الجميع ، فكان يحضر الطلبات لعدة موائد فى وقت واحد . وانتظر «دامازو» أن يمر بالقرب منه وسأله :

ـ تريد أن أساعدك ؟

ووضع «دون روكيه» أمامه ست زجاجات بيرة وقد قَلب على عنق كل منها كوباً زجاجيًّا وقال له :

ـ شكراً يا بنى .

وحمل دامازو «الزجاجات إلى المائدة ، وأخذ عدة طلبات ، وظل يحمل الزجاجات إلى الزبائن ، ثم يرفع الزجاجات الفارغة إلى أن حان وقت الغداء وانصرف الناس ، وحين عاد إلى الغرفة فى الفجر كان مخموراً ، وأخذت «آنا» يده برغم ذلك ووضعتها على بطنها وسألته :

ـ ألا تحس بشىء ؟

ولم يبدُ على «دمازو» أى علامة تدل على الفرح .

وقالت «آنا» :

ـ إنه يتحرك ، طول الليل وهو يضربنى فى بطنى بقدمه الصغيرة .

ولم يعلق على ملاحظتها فقد استغرقته أفكاره . وفى اليوم التالى خرج فى ساعة مبكرة ولم يعد إلا عند منتصف الليل . ومر أسبوع وهو على هذا المنوال ، وفى اللحظات القليلة التى كان يمر فيها بالبيت كان يدخن وهو راقد ، ويتفادى كل حديث ، وضاعفت «آنا» من رعايتها له . كان قد حدث فى إحدى المناسبات ، فى بداية حياتهما المشتركة ، أن انتابته مثل هذه

الحالة ، ولم تكن فى ذلك الوقت تعرف طباعه ، فحاولت إقحام نفسها فى شئونه ، وكانت النتيجة أنه برك عليها فى الفراش وأوسعها ضرباً وأسال دمها .

لذلك تركته فى حاله هذه المرة ، وحين أقبل الليل وضعت بالقرب من المصباح علبة سجائر ؛ لأنها كانت تعلم أنه ـ وإنْ كان قادراً على تحمل الجوع والعطش ـ عبدٌ لعادة التدخين .

وفى يوم عاد «دامازو» إلى الغرفة فى منتصف يوليو قرب الغروب . وتوجست «آنا» شرًّا ، وقالت لنفسها : لابد أن هناك شيئاً يقلقه ، وإلاَّ ما جاء إليها فى هذه الساعة . وتناولا الطعام بدون كلمة ، ومع ذلك بدا «دامازو» قبل أن يأوى إلى الفراش حانقاً شاحبَ اللون . وقال لها فجأة :

ـ بودى لو هجرت هذه القرية .

ـ إلى أين ؟

ـ إلى أى مكان .

وأجالت «آنا» بصرها فى الغرفة . صور ممثلى السينما التى قطعتها من أغلفة المجلات وألصقتها على جدران الغرفة حتى غطتها تماماً بهتت وحَالَ لونُها ، وهى لم تعد تدرى كم من هؤلاء الممثلين ذهب لون بشرتهم شيئاً فشيئاً من كثرة ما نظرت إليهم من فراشها ، وقالت :

ـ لأنك سئمت صحبتى ؟

وقال «دامازو» :

ـ لا . ولكنها هذه القرية .

ـ هى ككل القرى .

وقال «دامازو» :

ـ ولكننى لا أستطيع أن أبيع فيها الكرات .

وقالت «آنا» :

ـ لاتشغل نفسك بأمر هذه الكرات ، فطالما أعطانى الله القُدرة على غسل الغسيل فلن تكون بحاجة إلى المغامرة .

وأضافت برقة بعد هنيهة :

ـ لا أدرى ما الذى جعلك توقع نفسك فى هذه الورطة .

قال :

ـ العملية سهلة لدرجة أنى أتساءل كيف لم يفكر فيها أحد قبلى ؟

وقالت «آنا» موافقة :

ـ لسرقة نقود نعم . ولكن أحداً ما كان يمكن أن تبلغ به الحماقة أن يسرق كرات .

وقال «دامازو» :

ـ فعلتُ ذلك بدون تفكير . كنت على وشك الخروج حين رأيتها خلف الـ «بار» وقد وضعت فى علبتها ، فقلت آخُذها لئلا أعود خالى اليدين بعد كل تعبى .

قالت «آنا» :

ـ حظك سيىء .

وشعر «دامازو» شُعُوَر مَنِ انزاحَ مِنْ على صدره هَمٌّ ، وقال :

ـ والكرات الجديدة لم تصل بعد . «دون روكيه» علم أن ثمنها باهظ ، فقال إنه لايستطيع أن يشتريها .

وأشعل سيجارة وأحس وهو يتحدث أن قلبه يتخفف من شىء كالعَلَقة السوداء ، وقال : إن صاحب المحل قرر أن يبيع مائدة «البلياردو» وإنها لاتساوى قُلامة ظفر ، وإن القماش الذى يغطيها قد تمزق من شدة ضربات المبتدئين فى اللعبة ، فَرَقَّعَهُ صاحبها بمربعات من ألوان مختلفة ، وأصبح من الضرورى تغييره تماماً . كذلك فإن زبائن الصالون الذين قضوا أعماراً حول مائدة «البلياردو» لم يعد لديهم الآن مايسليهم إلاَّ إذاعة مباريات لعبة «البيسبول» . وأنهى «دامازو» كلامه قائلاً :

ـ واقع الأمر أننا أسأنا إلى القرية بدون أن ندرى .

وقالت «آنا» :

ـ ندامة من أولها لآخرها .

وقال «دامازو» :

ـ وبطولة «البيسبول» ستنتهى بعد أسبوع .

ـ ليس هذا هو أسوأ ما فى الموضوع ، أسوأ ما فى الموضوع هو الزنجى .

كانت تعلم ـ وهى تستند إلى كتفه كما كانت تفعل فى الأيام الخوالى ـ فيم كان يفكر، وانتظرت حتى يفرغ من تدخين سيجارته ثم قالت بصوت حذر:

ـ «دامازو» .

ـ ماذا ؟

ـ أَعِدْها .

وأشعل سيجارة أخرى وقال :

ـ هذا ما أفكر فيه منذ أيام ، ولكن المشكلة هى أنى لا أدرى كيف أعيدها .

وقررا أن يتركا الكرات فى مكان عام ، وأدركت «آنا» فى الحال أنهما ـ إن فعلا ذلك ـ سيحلان مشكلة «صالون البلياردو» ، أما مشكلة الزنجى فستظل كما هى ، فإن البوليس يستطيع أن يُؤوِّل ظهور الكرات بطريقة لاتبرئه من التهمة ، ثم إن الشخص الذى سيعثر على الكرات قد يقرر الاحتفاظ بها ليبيعها بدلاً من أن يعيدها لصاحبها . وقالت «آنا» :

ـ ما دمنا قد قررنا أن نفعل شيئاً فلنُحسن فِعْله .

وأخرجا الكرات من مخبئها . ولفتها «آنا» فى ورق جرائد ، وحرصت على ألاَّ تَشِى اللفة بما بداخلها ، ووضعتها فى الحقيبة الكبيرة ، وقالت :

ـ لننتظر حتى تسنح الفرصة .

ولكنَّ أسبوعين مَرَّا بدون أن تسنح . وفى مساء يوم ٢٠ من أغسطس ، بعد شهرين من عملية السطو ، التقى «دامازو» بدون روكيه وهو جالس خلف «البار» ينش الذباب بمنشة من سعف النخل . وكانت وحدته تبدو أشد ؛ لأن الراديو لم يكن دائراً .

وهتف «دون روكيه» وبَدَتْ نبرة كالانتصار فى صوته ؛ لأن ماتوقعه حدث :

ـ قلت لك إنه الخراب .

ووضع «دامازو» قطعة نقود فى جهاز الموسيقا الأتوماتيكى ، وتوهم أن فى الموسيقا الصادحة وفى الأضواء الملونة التى يصدرها الجهاز دليلاً صارخاً على ولائه . ومع ذلك بدا له أن «دون روكيه» لم ينتبه إلى هذا الدليل ، فقرب كرسيه منه وحاول أن يواسيه بحجج مفعمة بالاستنكار ، ولكن صاحب الصالون كان يرفض حججه برفق وبدون انفعال وهو يحرك منشته بإيقاع مهمل . وقال :

ـ وقعت الواقعة ، ولا أمل فى الخروج منها ، بطولة «البيسبول» لن تستمر العمر كله .

ـ ولكن من يدرى . لعل الكرات تظهر .

ـ لن تظهر .

ـ الزنجى لم يأكلها .

وقال «دون روكيه» بيقين يائس :

ـ البوليس لم يترك مكاناً إلا ونقب عنها فيه . قد يكون الزنجى رماها فى النهر .

ـ لعل معجزة تحدث .

ورد «دون روكيه» :

ـ دعك يابنى من هذه الأوهام .

ثم استطرد :

ـ المصائب حين تحل لاتغادرنا بهذه السهولة . إنها كالقواقع فى بطء حركتها . هل تؤمن بالمعجزات ؟

وأجاب «دامازو» :

ـ أحياناً .

وحين غادر «الصالون» لم يكن الناس قد خرجوا بعد من السينما ، وكان صدى الحوار المتقطع الذى يضخمه مكبر الصوت يتردد فى القرية التى أُطفئت أنوارها ، وكان يبدو على البيوت القليلة التى ظلت أنوارها مضاءة أن نورها مؤقت . وتجول «دامازو» قليلاً بالقرب من دار السينما ، ثم اتجه إلى صالون الرقص .

كانت الفرقة الموسيقية تعزف لزبون واحد ، وكان هذا الزبون يرقص مع امرأتين فى وقت واحد ، أما باقى النسوة فكن جالسات فى تعقل لصق الحائط وعليهن سمات من ينتظر خطاباً . وجلس «دامازو» إلى إحدى الموائد، وأشار إلى النادل أن يحضر له زجاجة «بيرة» . وتجرع «البيرة» من فم الزجاجة مباشرة . وكان يتوقف بين الحين والآخر ليلتقط أنفاسه ويتابع بنظراته ـ وكأنه ينظر من خلال لوح زجاجى ـ الرجل الذى يراقص امرأتين . كانت قامت الرجل أقصر من قامة المرأتين .

وعند منتصف الليل وصلت النسوة اللاتى كن فى السينما ، وفى إثرهن مجموعة من الرجال ، وتركت صديقة «دامازو» التى كانت ضمن المجموعة صاحباتها وجلست إلى مائدته .

ولم يلتفت «دامازو» إليها . كان قد أفرغ فى جوفه ست زجاجات من «البيرة» ، وكان مشغولاً بمنظر الرجل الذى كان يراقص امرأتين . إنه الآن يراقص ثلاث نسوة ، ولكن بدون أن يعيرهن انتباهاً ، فقد كان كل اهتمامه منصرفاً إلى حركة قدميه ، كانت تبدو عليه السعادة ، وكان من الواضح أن سعادته ستزيد لو أنه رزق ذيلاً بالإضافة إلى قدميه وذراعيه . وقال «دامازو» :

ـ هذا الرجل ابن كلب .

وقالت الفتاة :

ـ إذن لاتنظر إليه .

وطلب «بيرة» من «النادل» . وبدأت حلقة الرقص تغص بالراقصين والراقصات ، ولكن الرجل الذى يُراقص النسوة الثلاث ظل مستمرًّا فى الرقص وكأن المكان ليس فيه غيره . والتقت عينه وهو يدور فى رقصته بعينى «دامازو» ، فزاد من ديناميكية حركاته ، وافتر ثغره عن ابتسامة ظهرت من خلالها أسنانه الصغيرة كأسنان الأرنب ، وتلقى «دامازو» نظرته بدون أن تطرف عينه ، فعادت النظرة الجادة إلى عينى الرجل وأدار له ظهره ، وقال «دامازو» :

ـ حضرته يظن أنه خفيف الظل .

وقالت الفتاة :

ـ هو خفيف الظل بالفعل . فى كل مرة يأتى فيها إلى هذه القرية يأخذ الموسيقا لحسابه . كل مندوبى المبيعات يفعلون ذلك .

واستدار «دامازو» ناحيتها وقال لها بنظرة رادعة :

ـ اذهبى له إذَنْ . . والأكلة التى تكفى ثلاثة تكفى أربعة .

ولم ترد . وحولت وجهها نحو حلبة الرقص وهى ترشف شرابها بجرعات بطيئة ، وكان ثوبها بلونه الأصفر الباهت يزيد من خجلها .

ورقصا الرقصة التالية ، وبدا «دامازو» بعدها منحرف المزاج ، وقالت الفتاة وهى تأخذه من ذراعه إلى «البار» :

ـ أكاد أموت من الجوع . أنت أيضاً يجب أن تأكل شيئاً .

وأقبل خفيف الظل مع النسوة الثلاث فى الاتجاه المقابل . وقال له «دامازو» :

ـ اسمع .

وابتسم له الرجل بدون أن يتوقف . وخلَّص «دامازو» ذراعه من صاحبته واعترض طريقه :

ـ أسنانك لاتعجبنى .

وشحب وجه الرجل ، ولكنه لم يكف عن الابتسام . وقال :

ـ هى كذلك لاتعجبنى .

وقبل أن تتمكن الفتاة من منعه وجه «دامازو» للرجل ضربة بقبضة يده أصابته فى وجهه . وسقط الرجل جالساً على حلبة الرقص ، ولم يتدخل أحد من الزبائن . وأحاطت النسوة الثلاث خصر «دامازو» بأذرعهن ، فى حين أخذت مرافقته تدفعه إلى مؤخرة الصالون ، ونهض الرجل واقفاً وقد تقلصت

عضلات وجهه من المفاجأة ، وأخذ يقفز كالقرد فى منتصف الحلبة وهو يصيح :

ـ لتستمر الموسيقا !

وقرب الثانية صباحاً كان الصالون شبه خال ، وبدأت النسوة اللاتى لم يكن بصحبتهن زبائن يتناولن الطعام . كان الجو حارًّا ، وأحضرت الفتاة إلى المائدة طبقاً من الأرز بالفاصوليا مع لحم محمر ، وأتت على مافيه بالملعقة . وكان «دامازو» ينظر إليها شبه مذهول . ومدت يدها إليه مرة بملعقة أرز وقالت :

ـ افتح فمك .

وأسند «دامازو» ذقنه إلى صدره وهز رأسه قائلاً :

ـ هذا للنساء ، أما نحن الرجال فلا نأكل .

واضطر لكى يقوم إلى الاعتماد بيديه على المائدة . وحين استعاد توازنه كان صاحب الصالون واقفاً أمامه وقد كتف ذراعيه . وقال :

ـ الحساب ٩ «بيزو» و٨٠ سنتافو . ومن شرب أو أكل عندنا شيئاً لابد أن يدفع حسابه .

ونحاه «دامازو» من أمامه وقال :

ـ أنا لا أطيق المخنثين .

وأمسكه صاحب المحل من كمه ، ولكنه تركه حين أشارت له الفتاة بيدها وقال :

ـ خسارة !

وخرج «دامازو» وهو يتطوح . وفتح ضوء القمر الساطع الذى كان يغمر الشارع طاقة فى ذهنه ، فأفاق لحظة ، لكنها مالبثت أن أُغلقت . وحين رأى باب غرفته فى الطرف الآخر من القرية لم يداخله شك فى أنه كان يسير وهو نائم ، وهز رأسه ، وبصورة غامقة ملحة أدرك أن عليه ، ابتداء من هذه اللحظة ، أن يحتاط فى كل خطوة يخطوها ، ودفع الباب بحذر لكيلا يسمع صرير مفصلاته .

وسمعته «آنا» وهو يفتش فى حقيبة الملابس . واستدارت إلى ناحية الجدار لتتفادى نور المصباح ، ولكنها تنبهت إلى أن زوجها لم يخلع ملابسه ، وخطر لها خاطر مفاجىء جعلها تجلس على الفراش . كان «دامازو» واقفاً بجوار الحقيبة وفى إحدى يديه لفة الكرات ، وفى الأخرى بطارية اليد . ووضع سبابته أمام شفتيه .

وقفزت «آنا» من الفراش وهمست : «أنت مجنون» . وجرت إلى الباب ووضعت فيه المزلاج . ووضع «دامازو» بطارية اليد فى جيب بنطلونه مع المطواة والمبرد ، وتقدم صوبها واللفة تحت ذراعه . وأسندت «آنا» ظهرها إلى الباب وهمست :

ـ لن تخرج من هنا وأنا على قيد الحياة .

وحاول «دامازو» أن يزيحها عن الباب قائلاً :

ـ ابعدى .

وتشبثت «آنا» بيديها فى قوائم الباب . وركز كل منهما نظراته فى صاحبه بدون أن تطرف عينه . وغمغمت «آنا» :

ـ أنت غبى كالحمار . والله الذى وهبك جمال العينين أعطاك رأساً بغير مخ .

وأمسكها «دامازو» من شعرها ولوى معصمها ونكس رأسها وقال وهو يجز على أسنانه :

ـ قلت لك ابتعدى .

ونظرت إليه «آنا» نظرة جانبية وقد التوت رقبتها كالثور تحت النير . وأحست لحظة بأن الألم لايؤثر فيها ، وأنها أقوى من زوجها ، ولكن «دامازو» استمر فى شد شعرها وليّه حتى بلعت دموعها . وقالت :

ـ ستقتل الطفل فى بطنى .

وقادها «دامازو» وهو يكاد يرفعها فى الهواء ، إلى الفراش . وحين شعرت أنه فك قبضته عنها قفزت إليه ، وكان قد أولاها ظهره وأحاطته بساقيها وذراعيها . وسقط الاثنان على السرير وقد اختنقت أنفاسهما وخارت قواهما . وهمست «آنا» فى أذنه :

ـ سأصرخ . إذا تحركت ملأت الدنيا صياحاً .

وتلاحقت أنفاس «دامازو» واستبد به الغضب ، وأخذ يضرب ركبتها بلفة الكرات ، وأطلقت «آنا» آهة خفيفة وخففت قبضة ساقيها ، ولكنها عادت تحتضنه من خاصرته لتمنعه من الوصول إلى الباب وشرعت تتوسل :

ـ أعدك بأن آخذها بنفسى غداً . سأضعها فى مكان بدون أن يدرى أحد به .

ومع كل خطوة كان «دامازو» يخطوها نحو الباب ، كان يضرب يديها بكرات «البلياردو» وكانت ترخى يديها لحظات حتى يزول الوجع ثم تعود لإمساكه من جديد وهى تتوسل . وقالت :

ـ بوسعى أن أقول إننى أنا التى سرقتها . ونظراً لحالتى فإنهم لن يعذبونى و . . . .

وخلص «دامازو» نفسه . وقالت «آنا» :

ـ ستراك البلدة كلها . أنت بغباوتك لاتدرك أن القمر مكتمل .

وعادت تحتضنه من الخلف قبل أن ينجح فى رفع حديدة المزلاج ، وأخذت وهى مغمضة العينين تضربه على عنقه وفى وجهه وتكاد تصيح وهى تردد : «حيوان ، حيوان» . وحاول «دامازو» أن يحمى نفسه من ضرباتها ، فأمسكت بقضيب المزلاج وانتزعته من يديه وانهالت به على رأسه . ولكن «دامازو» تفادى الضربة . ورن القضيب حين مس عظمة منكبه بصوت أشبه بصوت «الكرستال». وصاح «دامازو» :

ـ تضربيننى أيتها العاهرة !

لم يكن يهمه فى هذه اللحظة ألاَّ يحدث صوتاً ، وصفعها على أذنها بظهر يده ، وسمع أنَّتَها العميقة وصوت ارتطام جسمها بالجدار ، ولكن الغضب كان أعماه فلم يرها ، وخرج من الغرفة بدون أن يغلق الباب .

ووقعت «آنا» على الأرض ، وظلت فى مكانها وقد صعقت من شدة الألم ، وتوقعت حدوث شىء فى بطنها ، وجاءها صوت من جانب الجدار الآخر كأنه صوت شخص مدفون . وعضت شفتيها لكيلا تستسلم للبكاء ،

ثم قامت وارتدت ملابسها . لم يخطر ببالها ـ كما لم يخطر ببالها فى المرة الأولى ـ أن «دامازو» كان لايزال أمام الباب ، وأنه كان يقول لها إن الخطة قد فشلت، ومع ذلك ارتكبت «آنا» نفس الغلطة للمرة الثانية ، وبدلاً من محاولة اللحاق بزوجها لبست حذاءها وأغلقت الباب ، وانتظرت وهى جالسة على الفراش .

ولم يفهم «دامازو» أنه لم يعد قادراً على التراجع إلاَّ حين أغلق الباب ، ونبحث وراءه الكلاب حتى آخر الشارع ، ثم ساد صمت كصمت القبور، وتحاشى السير على الرصيف فى محاولة للهرب من وقع أقدامه التى كان صداها الثقيل البعيد يتردد فى أرجاء القرية النائمة ، ولم يتخذ أى احتياط قبل أن يصل إلى الأرض الفضاء أمام باب صالون «البلياردو» الصغير .

ولم تكن به حاجة هذه المرة إلى استخدام بطارية الجيب ، فإن الباب لم يقو إلاَّ فى موضع الحلقة الحديدية المكسورة ، فقد انتزعوا قطعة خشب بحجم وشكل طوبة البناء من الباب ووضعوا مكانها قطعة خشب جديدة وأعادوا نفس الحلقة الحديدية إلى موضعها ، أما كل ماعدا ذلك فقد بقى على حاله . وجذب «دامازو» القفل بيده اليسرى ، ووضع طرف المبرد فى المكان الذى ركبت عليه الحلقة الحديدية ، والذى ظل كما كان. وحرك المبرد عدة مرات كما تحرك فرملة السيارة . حركة بقوة ، ولكن بدون عنف إلى أن انفلق الخشب وتناثرت شظاياه المتهرئة محدثة صوتاً كالفرقعة الخفيفة . وقبل أن يدفع «دامازو» الباب رفع الضلفة المائلة لتخفيف صوت احتكاكها ببلاط الأرض ، وفتح الباب فتحة صغيرة، ثم خلع حذاءه ودفعه إلى الداخل مع لفة الكرات ، ودخل إلى الصالون الغارق فى نور القمر وهو يرسم على صدره علامة الصليب .

كان أمام الباب مباشرة طُرقة مظلمة ازدحمت فيها الزجاجات والصناديق الفارغة ، وكانت مائدة «البلياردو» تلى هذه الطرقة ، وكان ضوء القمر يتدفق عليها من خلال السقف الزجاجى ، وكان هناك عدد من الدواليب والموائد الصغيرة والكراسى تُرِّس بها المدخل الرئيسى . كل شىء كان كما رآه فى المرة الأولى ، ولا جديد سوى نور القمر المنهمر ، والصمت النظيف ، وشعر «دامازو» الذى كان همه حتى هذه اللحظة أن يسيطر على توتر أعصابه، بنشوة نادرة .

لم يهتم هذه المرة ببلاط الأرض المخلوع ، وثبت الباب بحذائه ، وبعد أن عبر المسافة التى غمرها نور القمر أضاء البطارية ليبحث عن علبة كرات «البلياردو» خلف البار . كان يتصرف دون احتراز . ووقعت عينه وهو يحرك أشعة البطارية من الشمال إلى اليمين على كومة من الزجاجات التى علاها التراب وركابى خيل ، ومْهمازَيْنِ ، وقميص ملفوف ومتسخ بزيت محرك ، ثم على علبة الكرات ، وكانت فى نفس المكان الذى تركها فيه . ولم يطفىء البطارية ، وصوبها إلى ماوراء العلبة ، وإذا به يجد القط .

ونظر إليه القط عبر نور البطارية نظرة ليس فيها غموض . واستمر «دامازو» فى تسليط ضوء البطارية عليه إلى أن تذكر برعشة خفيفة أنه لم يره . قَطٌّ فى الصالون خلال النهار . وحرك الضوء إلى الامام وهو يزجر القط ، ولكن القط ظل فى مكانه غير عابىء به . عندها حدث شىء كالانفجار الصامت داخل رأسه ، واختفى القط تماماً من ذاكرته ، وحين فهم ماكان يجرى كان قد ترك البطارية تسقط من يده ، وضم لفة الكرات إلى صدره . كان الصالون يسبح فى النور .

ـ مَنْ هناك ؟

وعرف صوت «دون روكيه» . ورفع قامته ببطء وهو يشعر بألم فظيع فى أسفل ظهره ، وتقدم «دون روكيه» من مؤخرة الصالون فى سرواله وقد أمسك فى يده بقضيب من حديد ، وعيناه لاتقويان على مواجهة النور ، كان هناك سرير من القماش معلق بين قائمين خلف الزجاجات والصناديق الفارغة على مسافة قصيرة من حيث مر «دامازو» عند دخوله ، وهذا أيضاً شىء لم يكن موجوداً فى المرة الأولى . وهتف « دون روكيه » :

ـ أيها الولد !

وشعر «دامازو» وكأن شيئاً لاتحده حدود قد بلغ نهايته . وخفض «دون روكيه» القضيب واقترب منه فاغر الفم ، وقد بدا بدون نظارته وطقم أسنانه أشبه بامرأة ، وسأله :

ـ ما الذى تفعله هنا .

وقال «دامازو» :

ـ لاشىء .

وغير موضعه بحركة من جسمه لاتكاد تراها العين . وسأل «دون روكيه» :

ـ وما الذى فى يدك؟

وأطلق صيحة ، وخَطَا خُطوة إلى الأمام ، وارتفعت يده بالقضيب ، وقدم له «دامازو» اللفة ، فأخذها بيده اليسرى بدون أن ينزل يده المرفوعة ، وفحصها بأصابعه ، عندها فقط فهم «دون روكيه» الموقف وقال :

ـ هذا مستحيل .

ووضع القضيب على «البار» وهو فى شدة الحيرة ، وبدا وهو يفتح اللفة وكأنه نسى «دامازو» تماماً وتأمل الكرات فى صمت . وقال «دامازو» :

ـ جئت لأعيدها .

وقال دون روكيه :

ـ معقول ؟

كان وجه «دامازو» ممتقعاً ، وكانت سكرته قد تبددت كلية ، ولم يبق منها على لسانه سوى طعم عكارة ترابية وشعور غامض بالوحدة . وقال «دون روكيه» وهو يقفل اللفة :

ـ هذه إذن هى المعجزة . ما كنت أتصور أن تبلغ بك الحماقة هذا الحد .

ورفع رأسه وقد تغير تعبيره وسأل :

ـ والمائتا «بيزو» ؟

قال «دامازو» :

ـ لم يكن فى درج الخزنة شىء .

وتطلع إليه «دون روكيه» بإمعان وبدا كأنه يمضغ شيئاً مَّا ثم ابتسم مردداً :

ـ لم يكن فيه شىء .

وكررها عدة مرات .

ـ . . حقًّا لم يكن فيه شىء .

وقبض على القضيب الحديدى من جديد وهو يقول :

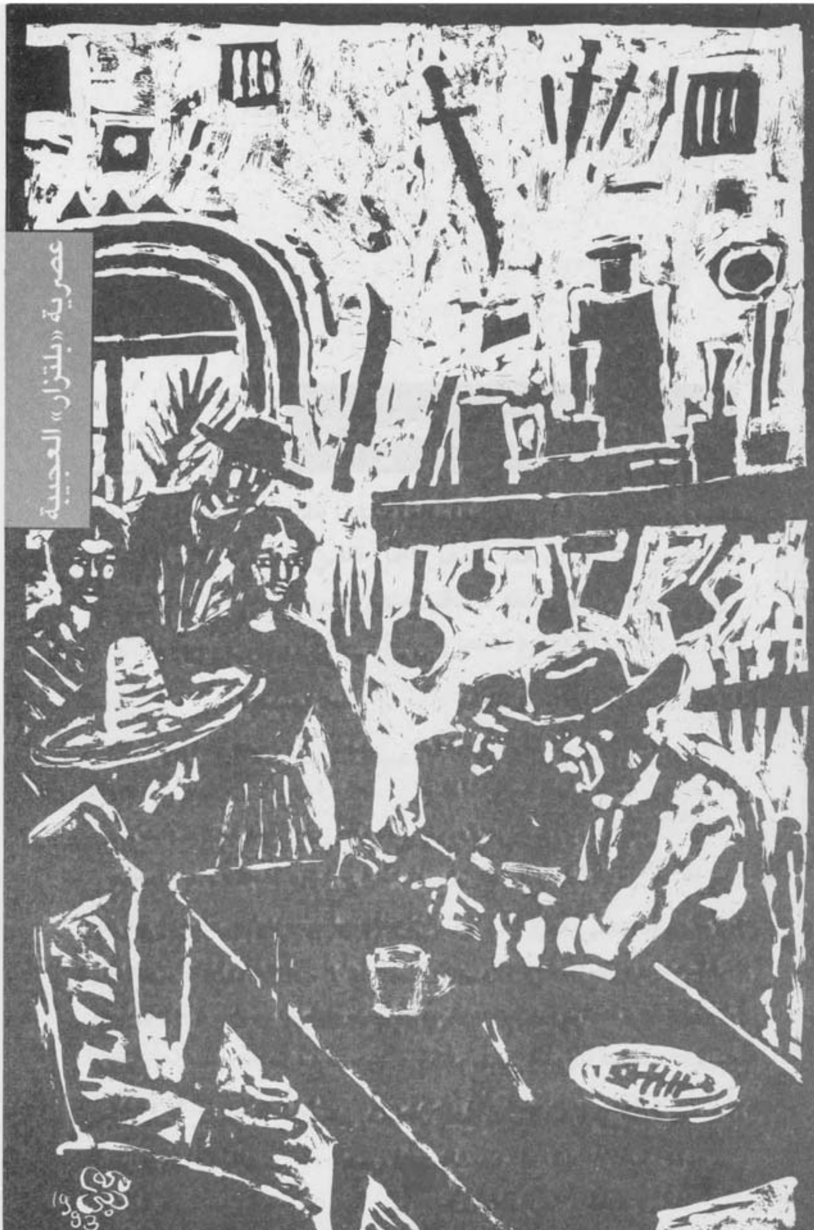
ـ حسناً . هيا بنا لنحكى هذه القصة للعمدة .

ومسح «دامازو» عرق يديه فى بنطلونه وقال :

ـ أنت تعلم أنه لم يكن فيه شىء .

ولم تفارق «دون روكيه» ابتسامته وقال :

ـ كان فيه مائتا «بيزو» وسيرغمونك على ردها ولو اضطروا إلى سلخ جلدك . لا لأنك لص بل لأنك . . مغفل !


1993

عصرية « بلتزار » العجيبة

فرغ « بلتزار » من صنع القفص فعلقه فى السقف الأمامى بحكم العادة، وحين انتهى من تناول غدائه كان الناس حوله من كل صوب يقولون إن هذا القفص أجمل قفص فى العالم ، وجاء الناس زرافات ووحدانا لمشاهدته ، فتكون منهم جمهور غفير أمام البيت . . فما كان من «بلتزار» إلا أن نزع القفص من مكانه وأغلق محل نجارته .

وقالت له امرأته «أورسولا» :

ـ ذقنك بحاجة إلى الحلاقة ، وقد أصبح شكلك كشكل القرود .

فرد عليها :

ـ الحلاقة بعد الغداء لا تجوز .

كان قد مضى عليه أسبوعان بدون أن يحلق ذقنه ، وكان شعر رأسه قصيراً وخشناً وهائشاً كصوف البغلة ، وكان شكله العام أشبه بشكل الطفل المذعور ، وإن كانت حقيقته تختلف عن ذلك ، لقد بلغ الثلاثين فى شهر فبراير ، وكانت «أورسولا» تعيش معه منذ أربعة أعوام تقريباً بدون أن ينجبا أولاداً . وكانت أسباب الحرص لديه كثيرة ، ولكن لم يكن لديه سبب واحد

يدعوه للخوف ، ثم إنه لم يكن يدرى أن بعض الناس يعتبرون القفص الذى انتهى لتوه من صنعه أجمل قفص فى العالم .

والفرق الوحيد بين هذا القفص وغيره ، بالنسبة لشخص مثله تعوَّدَ أن يصنع الأقفاص منذ طفولته ، كان لايعدو أنه كلفه من الجهد أكثر بقليل مما كلفته سائر الأقفاص التى صنعها .

قالت المرأة :

ـ استرح قليلاً إذن ، فلا يليق برجل بمثل هذه الذقن أن يظهر فى أى مكان .

وبينما كان يستريح اضطر عدة مرات إلى ترك فراشه المعلق (الهَمَك) ليرى القفص للجيران . . ولم تكن «أورسولا» تعير القفص ـ حتى ذلك الوقت ـ أى التفات . كانت منحرفة المزاج ؛ لأن زوجها أهمل صنعته كنجار وتفرغ تماماً لصنع القفص ، ولأنه ، طوال أسبوعين ، لم يأخذ كفايته من النوم، وكان يغدو ويروح كالمجانين ، ويقول كلاماً ليس له معنى ، وينسى أن يحلق ذقنه ، ولكن امتعاضها انقشع أمام منظر القفص بعد أن تم صنعه . وحين أفاق «بلتزار» من قيلولته كانت قد كوت له بنطلوناً وقميصاً ووضعتهما على كرسى قريب من فراشه المعلق ، ووضعت القفص على مائدة الطعام ، وجعلت تلحظه فى صمت . . وابتدرت «بلتزار» بهذا السؤال :

ـ بكم ستبيعه ؟

وأجاب الرجل :

ـ لا أدرى . سأطلب فيه ثلاثين «بيزو» لعلى أحصل على عشرين .

قالت «أورسولا» :

ـ بل أطلب خمسين . لقد سهرت عليه ليالى كثيرة خلال الأسبوعين الماضيين . كذلك فهو قفص كبير ، لاأذكر أنى رأيت أكبر منه فى حياتى .

وبدأ «بلتزار» يحلق ذقنه . وسأل :

ـ أتظنين أنهم سيدفعون لى خمسين «بيزو» ؟

قالت «أورسولا» :

ـ هذا مبلغ تافه بالنسبة لرجل مثل «شيبى مونتييل» ، والقفص يساوى هذا المبلغ . اطلب ستين .

كان البيت غارقاً فى ظل يزهق الأنفاس ، وكان هذا هو الأسبوع الأول من شهر أبريل . وحين انتهى «بلتزار» من ارتداء ملابسه فتح «الحوش» لتهوية البيت ، فاندفعت ثلة من الأطفال إلى غرفة المائدة .

كان الخبر قد ذاع ، وكان الدكتور «أوكتافيو جيرالدو» ـ وهو طبيب عجوز راضٍ عن الحياة برغم أن التعب قد نال منه فى ممارسة مهنته ـ يفكر فى قفص «بلتزار» وهو يتناول غداءه مع زوجته المقعدة ، وكان فى الشرفة الداخلية التى كانوا يضمون فيها المائدة أيام الحر ، أصص زهور كثيرة وأقفصة فيها بعض طيور «الكناريا» .

كانت زوجته تحب الطيور لدرجة جعلتها تكره القطط لأن القطط تفترسها . وذهب الدكتور «جيرالدو» ، وهو يفكر فى زوجته ؛ ليعود أحد المرضى ، وعرج فى طريق عودته على بيت «بلتزار» ليشاهد القفص .

كانت غرفة المائدة غاصة بالناس ، وكان القفص ـ الذى يشبه قبة

ضخمة من السلك ـ معروضاً على المائدة ، وكان يتكون من ثلاثة طوابق داخلية، وكان فيه ممرات وغرفة خاصة لنوم الطير وأُخرى لأكلها ، كما كان فى فضائه المخصص لنزهة الطيور أرجوحة تقف عليها ، وكان يبدو كنموذج مصغر لمصنع ثلج ضخم . وتأمل الطبيب القفص بعناية بدون أن يلمسه ، وخُيل إليه أنه بالفعل أعظم من شهرته ، وأروع بكثير من ذلك الذى تمنى فى أى وقت من الأوقات أن يهديه لزوجته .

وبحث الطبيب عن «بلتزار» وسط الزحمة، وقال له حين وجده :

ـ هذا القفص مغامرة من مغامرات الخيال .

ثم أضاف وهو يرمقه بنظراته التى تشع حناناً كحنان الأمهات :

ـ يا خسارة ! كان من الممكن أن تكون مهندساً معماريًا فذًّا .

واحْمَرَّ وجه «بلتزار» خجلاً وهو يقول :

ـ شكراً .

قال الطبيب :

ـ هذه هى الحقيقة .

كان الطبيب بديناً ، وكانت بدانته لطيفة ناعمة كبدانة امرأة حسناء تقدم بها العمر . وكانت يداه رقيقتين ، وكان صوته أشبه بصوت قسيس يتحدث باللاتينية .

قال الطبيب وهو يدير القفص أمام الناس كأنه بائع يعرض بضاعته :

ـ قفص كهذا ليس محتاجاً إلى طيور ، يكفى أن يضعه المرء بين الأشجار لكى يغرد وحده كما تغرد الطيور .

ثم أعاد القفص إلى مكانه على المائدة . وفكر لحظة وهو يتفحصه ثم قال :

ـ لقد اتخذت قرارى . . سآخذه .

قالت «أورسولا» :

ـ ولكننا بعناه .

وقال «بلتزار» :

ـ والمشترى هو ابن «دون شيبى مونتييل [1]» .

ثم أضاف :

ـ وكان قد كلفنى خصيصاً صنعه .

وبدا الاحترام على هيئة الطبيب وقال :

ـ هل أعطاك المواصفات ؟

وأجاب «بلتزار» :

ـ لا . بل قال إنه يريد قفصاً كبيراً مثل هذا لزوج من طيور «السراب» .

ونظر الطبيب إلى القفص وقال :

ـ ولكن هذا القفص لاينفع طير «السراب» .

فقال بلتزار :

ـ نعم يا سيدى الدكتور .

---

(١) دون بالإسبانية لقب معناه «السيد» وهو يطلق على كل من يُعَدُّ من عِلْية القوم .

واقترب «بلتزار» من المائدة والصبية من حوله وقال :

ـ مقاسات القفص محسوبة بدقة .

وجعل يشير بسبابته إلى أجزاء القفص المختلفة ، ثم نقر بظهر أصابعه فامتلأ القفص برنين عميق .

وأضاف «بلتزار» :

ـ ليس هناك سلك مقاومته أقوى من هذا السلك . وقد لحمت كل وصلة من الوصلات من الداخل ومن الخارج .

وتدخل أحد الأطفال فجأة فى الحديث :

ـ إنه لايصلح حتى لببغاء .

وقال «بلتزار» مؤكدًا :

ـ فعلاً .

وهز الطبيب رأسه وقال :

ـ إن «دون شيبى مونتييل» لم يعطك بياناً بالمواصفات ، ولم يكلفك شيئا محدداً ، وكل ما طلبه أن يكون قفصاً كبيراً لزوج من طيور «السراب» . أليس كذلك ؟

قال «بلتزار» :

ـ هو كذلك .

قال الطبيب :

ـ بسيطة : القفص الكبير الذى يصلح لطيور «السراب» شىء، وهذا القفص شىء آخر . ليس هناك مايثبت أن هذا القفص هو ذلك الذى كُلفت صُنْعَهُ .

وقال «بلتزار» فى أَنَفة :

ـ بل هو نفسه ، وماصنعته إلا لهذا الغرض .

وصدرت من الطبيب حركة ضيق ، وقالت «أورسولا» وهى تنظر إلى زوجها :

ـ باستطاعتك أن تصنع غيره .

ثم قالت للطبيب :

ـ أنت لست فى عجلة .

قال الطبيب :

ـ لقد وعدتُ زوجتى بإحضاره لها عصر اليوم .

قال «بلتزار» :

ـ آسف جدًّا ، سيدى الدكتور ، ولكن ليس فى الإمكان أن يُباع شىء سبق بيعه .

وهز الطبيب كتفيه وجعل يجفف العرق من عنقه بمنديله ويتطلع إلى القفص فى صمت بدون أن يحيد نظره عن نقطة بعينها غير محددة ، كما لو كان ينظر إلى قارب يبتعد .

ـ كم سيعطونك ثمناً له ؟

ونظر «بلتزار» إلى «أورسولا» بدون أن يجيب ، فقالت :

ـ ستين «بيزو» .

ولم يحول الطبيب نظره عن القفص وقال وهو يتنهد :

ـ قفص آية فى الجمال . لايمكن أن يكون هناك قفص أجمل منه !

ثم إتجه إلى الباب وأخذ يهوِّى لنفسه بشدة وهو يبتسم ، وانمحت ذكرى هذه الواقعة من ذاكرته إلى الأبد ، وقال :

ـ «مونتييل» رجل واسع الثراء .

وواقع الأمر أن «خوزيه مونتييل» لم يكن بالثراء الذى كانت تبدو عليه مظاهره، ولكنه كان على استعداد لعمل أى شىء ليغتنى . وعلى مسافة قريبة من بيت بلتزار كان «مونتييل» يقيم فى بيت مملوء بكل مايباع ، بيت لايشم فيه أحد رائحة لشىء ليس فى الإمكان بيعه ، وقد سمع (مونتييل) بنبأ القفص ولكنه لم يكترث له . وكان وسواس الموت يقض مضاجع زوجته ويجعلها توصد الأبواب والنوافذ بعد الغداء وتستلقى ساعتين مغمضة العينين فى ظلام الغرفة ، و«خوزيه مونتييل» مستغرق فى نومة القيلولة ، وفُوجئت الزوجة وهى فى هذه الحالة بصخب أصوات كثيرة ، ففتحت باب الصالة ، وإذا بجمع من الناس أمام البيت يتوسطهم «بلتزار» وهو يحمل القفص وقد ارتدى حُلَّةً بيضاء وحلق ذقنه وبدت عليه تلك البراءة المهذبة التى تبدو علي وجوه الفقراء حين يصلون إلى بيت من بيوت الأغنياء .

وأشرق وجه زوجة «خوزيه مونتييل» وهى تقود «بلتزار» إلى داخل البيت وصاحت :

ـ ما أروع هذا القفص . . عينى لم تقع على مثله فى حياتى .

وضاقت زوجة «مونتييل» بزحمة الناس المتجمهرين أمام البيت ، فأضافت :

ـ هاتِه إلى الداخل ؛ لئلاَّ تتحول الصالة إلى حلبة لصراع الديوك .

لم يكن «بلتزار» غريباً فى بيت «خوزيه مونتييل» فكثيراً ما كان يُستدعى إليه ليقوم بأعمال نجارة بسيطة لما عُرف عنه من كفاءة وإتقان لعمله . ولكنه لم يكن يشعر بالارتياح قَطُّ بين الأغنياءِ ، كان يفكر فيهم وفى زوجاتهم القبيحات المناكفات ، وفى عملياتهم الجراحية المخيفة ، ويخالجه حيالهم دائماً شعور بالرثاء ، وكان حين يدخل بيوتهم يجد صعوبة فى التحرك بدون أن يجر قدميه . وسأل :

ـ هل «بيبو» هنا ؟

وكان قد وضع القفص على مائدة غرفة الطعام .

وقالت زوجة «خوزيه مونتييل» :

ـ هو فى المدرسة ، ولكنه سيحضر بعد قليل .

ثم أضافت :

ـ «مونتييل» فى الحمام .

والواقع أن «خوزيه مونتييل» لضيق الوقت لم يستحم ، بل اكتفى بدعك نفسه بسرعة بالكحول المعطر برائحة الكافور وخرج ليرى ما الخبر . . كان «خوزيه مونتييل» رجلاً حَذِراً ، وكان ينام بدون مروحة كهربائية، ليتمكن خلال نومه من مراقبة أصوات البيت . صاحت زوجته :

ـ تعالَ انْظُر هذا القفص البديع !

وأطل «خوزيه مونتييل» بجثته الضخمة من نافذة غرفة النوم وقد ألصق فوطة الحمام بعنقه وسأل :

ـ ماهذا ؟

وأجابه «بلتزار» :

ـ قفص «بيبو» .

نظرت إليه المرأة بارتباك وسألت :

ـ قفص من ؟

فقال «بلتزار» مؤكداً :

ـ قفص «بيبو» .

ثم تحول إلى «خوزيه مونتييل» قائلاً :

ـ «بيبو» طلب منى أن أصنعه .

لم يحدث فى هذه اللحظة شىء ، ولكن بلتزار أحس كما لو كانوا قد فتحوا له بوابة السجن . . وخرج «خوزيه مونتييل» بسرواله من غرفة النوم وصاح :

ـ «بيبو» !

وهنا ظهر «بيبو» على عتبة الباب . غلام فى حوالى الثانية عشرة من عمره ، له رموش أمه المعقوفة وهدوءها المثير للعطف .

وأمره «خوزيه مونتييل» :

ـ تعال هنا . . أنت طلبت منه أن يصنع هذا القفص ؟

وطأطأ الصبى رأسه . . فأمسكه أبوه من شعره ليرغمه على النظر إليه وجهاً لوجه .

ـ انطق !

وعض الطفل شفته بدون أن يجيب . وتمتمت الزوجة :

ـ «مونتييل» !

فترك زوجها الغلام واستدار إلى «بلتزار» منفعلاً وقال :

ـ آسف جدًّا يا «بلتزار» . كان الواجب أن ترجع إلَىَّ قبل أن تبدأ فى صنع هذا القفص . كيف تتعاقد مع صبى قاصر ؟ أنت الوحيد الذى يفعل ذلك .

وبينما كان يتحدث استعاد وجهه تعبيره الهادىء ، ورفع القفص من مكانه بدون أن ينظر إليه وناوله لبلتزار قائلاً :

ـ خذه وحاول أن تبيعه لشخص آخر ، وأرجوك رجاءً خاصًّا ألاَّ تجادلنى فى هذا الموضوع .

وربت كتفَ بلتزار واستطرد على سبيل الشرح :

ـ . . . فقد حذَّرَنى الطبيب أن أستسلم للغضب .

حدث هذا والطفل فى مكانه لايتحرك ولايطرف له جفن . ولمحه «بلتزار»

محرجاً والقفص فى يده . عندها صدرت من حنجرة الطفل زمجرة كزمجرة الكلب الغاضب ثم ارتمى على الأرض وهو يصرخ .

ونظر إليه «خوزيه مونتييل» بدون أن يحرك ساكناً ، وحاولت الأم أنت تسترضى ابنها ، ولكن زوجها نهرها :

ـ لا ترفعيه ، اتركيه يخبط رأسه فى الأرض حتى يكسرها ثم أَلْقِى له بملح وليمون لكى يكون لغضبه طعم .

كان الصبى فى هذه اللحظة ينهج بدون دموع . . وأمسكته أمه من قبضتى يديه لينهض ، فقال لها «خوزيه مونتييل» بلهجة قاطعة :

ـ قُلْتُ دعيه !

ونظر «بلتزار» إلى الطفل نظرته إلى حيوان يحتضر من مرضٍ مُعْدٍ . .

كانت الساعة الرابعة عصراً ، وكانت «أوسولا» فى نفس اللحظة فى البيت تغنى أغنية قديمة جدًّا وهى تخرط بصلة .

قال بلتزار :

ـ «بيبو» !

واقترب من الصبى وهو يبتسم وقدم له القفص . وهب الصبى واقفاً فى قفزة واحدة واحتوى القفص الذى كان فى مثل طوله بذراعيه ، وظل ينظر إلى «بلتزار» من خلال أسلاكه المعدنية وهو عاجز عن التعبير . ولم تذرف عيناه دمعة .

قال «مونتييل» بهدوء :

ـ «بلتزار» . قلت لك خذ القفص .

وقالت المرأة للصبى بنظرة آمرة :

ـ رُدَّهُ إليه .

ولكن «بلتزار» قال :

ـ احتفظْ به .

ثم نظر بسرعة لخوزيه مونتييل قائلاً :

ـ أنا فى الحقيقة ما صنعته إلاَّ من أجله .

وخرج «بلتزار» وتبعه «خوزيه مونتييل» حتى بلغ الصالة ، ثم قال له وهو يسد عليه الطريق :

ـ لا تكن أحمق يا «بلتزار» . خُذْ قفصك معك إلى البيت وكَفَى بلاهة ، أنا لن أدفع لك فيه «سنتافو» واحداً .

ورد «بلتزار» :

ـ لايهم . لقد صنعته خصيصاً لأهديه لبيبى ، ولم أكن أنتظر ثمناً له .

وحين شق بلتزار طريقه وسط من جعلهم الفضول يسدون الباب كان «خوزيه مونتييل» يرغى ويزبد فى الصالة وقد امتقع لونه ، وبدأ الاحمرار يتسرب إلى عينيه . وصاح فى ابنه :

ـ مغفل ! خذ قفصك . . ما كان ينقصنا إلا أن تعطى حشرة مثلك أوامر فى بيتى . عليك اللعنة !

ولما وصل «بلتزار» إلى صالون «البلياردو» قابله كل من فيه بالتصفيق . . لقد كان حتى هذه اللحظة يظن أنه قفص أحسن من باقى الأقفاص التى صنعها ، وأنه أصر على إهدائه لابن «خوزيه مونتييل» لكى يكف عن البكاء، وأن شيئاً من هذا لايستحق الذكر ، فإذا به يكتشف أن هذا حَدَثٌ من الأهمية بمكان لدى كثير من الناس . وخامره شعور كالنشوة . وقال قائل :

ـ يبدو أنهم أعطوك خمسين «بيزو» ثمناً للقفص .

فرد «بلتزار» :

ـ بل ستين !

وقال أحدهم :

ـ ما من شخص غيرك استطاع أن ينتزع مبلغاً كهذا من «دون شيبى مونتييل» . هذا حد جدير بالتسجيل يجب أن نحتفل به .

وقدموا له كوباً من «البيرة» ، ورد لهم بلتزار المجاملة بأن طلب على حسابه شراباً للجميع .

كانت هذه هى المرة الأولى التى يشرب فيها ، وعند الفجر كانت الخمر قد لعبت برأسه تماماً فجعل يتحدث عن مشروع ضخم لصُنع ألف قفص يبيع الواحد منها بستين «بيزو» ، ثم لصنع مليون قفص يجنى من ورائها ستين مليون «بيزو» .

وقال وقد أعماه السكر :

ـ أشياء كثيرة لابد من صنعها وبيعها للأغنياء قبل أن يدركهم الموت . إنهم جميعاً مرضى يوشكون على الهلاك ؛ ولأنهم فى حال سيئة فمن المحظور عليهم حتى أن يستسلموا للغضب .

وظل «الفونوغراف» الأتوماتيكى ، على مدى ساعتين يعزف بلا انقطاع . . وشرب الجميع نخب « بلتزار» وتمنوا له الصحة والحظ والثروة ، كما تمنوا الموت لكل الأغنياء ، على أنهم حين حانت ساعة العشاء تركوه وحده فى الصالون .

وانتظرته «أورسولا» حتى الثامنة وكانت قد أعدت له طبقاً من اللحم البارد المغطى بشرائح من البصل ، وقال لها بعضهم إن زوجها فى صالون «البلياردو» ، وإن السعادة قد ذهبت بعقله ، وإنه طلب بيرة لجميع الحاضرين ، ولم تصدق ؛ لأن «بلتزار» لم يسبق له أن سكر . وحين أوت إلى الفراش قرب منتصف الليل كان «بلتزار» يجلس فى الصالون الذى أُضيئت أنواره ورصت فيه موائد حول كل منها أربعة أشخاص ، أمام حلبة رقص فى الهواء الطلق كانت تمر من فوقها طيور الكروان .

كان وجه «بلتزار» ملطخاً بأحمر الشفاه ، وقد حاول أن يمشى، ولكنه لم يتمكن من السير خطوة واحدة . . لقد أنفق فى الصالون مبلغاً كبيراً واضطر لترك ساعته كرهن مع تعهد بدفع الباقى فى اليوم التالى .

وبعدها بلحظات تنبه ـ وقد وقع فى الشارع وارتمى على الأرض مباعداً مما

بين رجليه ـ إلى أنهم يخلعون حذاءه ، ولكنه لم يرد أن يفيق من حلم كان أسعد حلم فى حياته .

ولم تجرؤ النسوة اللواتى مررن فى الصباح فى طريقهن إلى الكنيسة لحضور قداس الساعة الخامسة ، على النظر إليه ، فقد اعتقدن أنه فى عداد الأموات .



أرملـــة مـــونتييـل

حـين وافت المـنية «دون خـوزيـه مـونتييل» أحس الجميع ـ إلا امرأته ـ بأن المقادير قد اقتصت لهم منه . على أنَّ مِنَ الناس مَنْ لم يصدق أنه مات بالفعل إلاَّ بعد ساعات من سماع الخبر . ولم يبارح الشك نفوس الكثيرين حتى بعد أن رأوا جثته فى غرفة الموت محشورة وسط المخدات والملاءات الكتان داخل نعش أصفر ، وقد تَحدَّبت كالشمامة . لقد كان حسن البزة ، وجيهاً بدرجة تجعله لايبدو أقل حياة مما كان فى أى وقت مضى . كان نفس «دون شيبى مونتييل» الذى كان الناس يرونه أيام الأحد وهو يستمع فى الكنيسة إلى قُداس الساعة الثامنة ، مع فارق واحد هو أنه لايمسك الآن فى يده سوطاً بل صليباً . وكان لابد من دق المسامير فى غطاء النعش ، ومن وضع النعش فى مقبرة الأسرة الفاخرة ، ومن سد المقبرة عليه ، لكى يقتنع كل من فى المدينة بأن «مونتييل» لم يكن يتظاهر بالموت .

وكانت عجيبة العجائب عند الجميع ـ باستثناء زوجته ـ بعد الدفن هى أن «خوزيه مونتييل»! مات ميتة طبيعية ، وبرغم أن الكل كانوا يتوقعون أن يلقى هذا الرجل حتفه صريعاً برصاصات من كمين تستقر فى ظهره ، فإن أرملته لم يكن يخالجها شك فى أنه حين تجىء ساعته يقضى نحبه من كبر

السن على فراشه بعد أن يعترف للقسيس ، وبدون أن يعانى من سكرات الموت ، كأنما هو قديس عصرى ، وقد صدقت نبوءتها إلاَّ فيما يتعلق ببعض التفاصيل ، فمات «خوزيه مونتييل» وهو راقد على همكه(*) ، يوم أربعاء ، فى الثانية من بعد الظهر ؛ لأنه استسلم للغضب ، وكان الطبيب قد حذره منه ، وكانت زوجته تتوقع أيضاً أن تخرج المدينة على بكرة أبيها لتشييع جنازته ، وألاَّ يسع البيت ما سوف يرسله الناس من باقات ، والذى حدث أن المشيعين لم يتجاوزوا أعضاء حزبه وأعضاء كنيسته وأن الأزهار الوحيدة التى وصلت إلى بيته كانت تلك التى أرسلها المجلس البلدى ، كذلك أرسل ابنه برقية من مقر عمله القنصلى فى ألمانيا ، وأرسلت ابنتاه من باريس برقيتين، وكانت تلك البرقيات الثلاث فى ثلاث صفحات ، وكان من الواضح أنهم حرروها وهم وقوف ، بالحبر الذى يستخدمه الناس فى مكتب البريد ، وأنهم مزقوا أكثر من نموذج من النماذج التى تستخدم فى كتابة البرقيات قبل أن يجدوا كلاماً يملئون به برقية نفقة إرسالها ٢٠ دولاراً .

ولم يعد أىٌّ منهم بالعودة ، وفى هذه الليلة عرفت أرملة «مونتييل» لأول مرة ، فى سن الثانية والستين طعم الغيظ ، وهى تنتحب على المخدة التى توسدها الرجل الذى أسعدها ، وقالت لنفسها : «سأحبس نفس مدى العمر . . لا أريد أن أعرف شيئاً عن هذا العالم» .

هذه المرأة الهشة ، التى مزقتها الخرافات ، والتى زوجوها فى سن العشرين، بناء على إرادة أبيها ، من الخطيب الوحيد الذى سمح لها برؤيته

(*) الهمك (بفتح الميم) : قماشة سميكة مربوطة بين قائمتين ، تستخدم فى أمريكا اللاتينية وفى بعض البلاد الحارة فراشا للنوم .

على مسافة تقل عن عشرة أمتار ـ لم تكن في وقت ما على صلة مباشرة بأرض الواقع . وبعد ثلاثة أيام من اليوم الذى حملوا فيه جثة زوجها من البيت ، أدركت من خلال دموعها أن عليها أن تتكيف مع حياتها الجديدة ، ولكنها لم تتمكن من التعرف على وجهة تتخذها فى هذه الحياة ، كان عليها أن تبدأ الطريق من أوله .

لقد حمل «خوزيه مونتييل» معه إلى القبر ـ فى جملة ما حمله معه من الأسرار ـ سر الأرقام التى تفتح بها خزانته الخصوصية ، وقد تكفل العمدة بحل هذه المشكلة ، فكلف مَنْ نقلَ الخزانة إلى الحوش وأسندها إلى الحائط ، ثم أمر اثنين من رجال الشرطة بإطلاق النار بالبندقية على القفل . وظلت الأرملة طيلة يوم كامل تستمع من غرفة نومها إلى صوت الطلقات المكتومة المتلاحقة التى كان العمدة يصيح بأمر إطلاقها . وراحت تخاطب نفسها : «هذا هو الشيء الذى ينقصنا . . . خمس سنوات وأنا أدعو الله أن يكف إطلاق الرصاص وهأنذا الآن مضطرة إلى شكرهم على إطلاق الرصاص فى بيتى» . وقد اجتهدت هذا اليوم أن تركز أفكارها ونادت زوجها الميت ، ولكن أين المجيب ؟ وأخذتها سِنَة عن النوم ، وفى نفس اللحظة اهتز بناء البيت بانفجار هائل ، فقد قرروا تفجير الخزانة بالديناميت .

وتنهدت أرملة «مونتييل» . إن شهر أكتوبر لايريد أن ينتهى بأمطاره ومستنقعاته . كان يغمرها شعور بالضياع ، وبأنها كالقارب التائه فى خضم أعمال مونتييل وتجارته الخرافية التى لاتخضع لنظام . وقد تولى السنيور «كارميخائيل» تابع الأسرة القديم النشط مهام إدارة أموال التركة ، وحين لم يعد هناك فى نهاية الأمر مهرب من التسليم بالأمر الواقع ، وبحقيقة أن زوجها ليس من أهل الدنيا ، خرجت أرملة «مونتييل» من غرفة النوم لتهتم

بالبيت ، فنزعت من الغرف كل زينة ، وغطت قطع الأثاث بأغطية الحداد، ووضعت شريطاً أسود على صور زوجها المعلقة على الجدران . وبعد شهرين من حبسة البيت تعودت على قرض أظفارها . وذات يوم انتبهت ـ وقد احمرت عيناها وانتفختا من فرط البكاء ـ إلى أن «كارميخائيل» دخل البيت ومظلته مفتوحة ، فقالت له :

ـ اقفل هذه المظلة يا سنيور كارميخائيل . لم يبق بعد كل البلايا التى نُكبنا بها إلا أن تدخل البيت بمظلة مفتوحة !

ووضع «كارميخائيل» المظلة فى الركن . كان زنجيًّا عجوزاً لامعَ البشرة ، يرتدى بدلة بيضاء وحذاءً فتح فيه بالموسى فتحات لتخفيف ضغط «الكالُّو» على أصابع قدميه ، وقال :

ـ فقط حتى تجف .

وللمرة الأولى منذ وفاة زوجها تحسست الأرملة نافذتها ، ثم تمتمت وهى تقرض أظفارها :

ـ كل هذه المصائب ، ثم هذا الشتاء ! لايبدو أن المطر سيكف عن الهطول أبداً .

وقال التابع :

ـ لن يكف اليوم ولا غداً ، فقد منعنى «الكالو» من النوم الليلة الماضية .

كانت أرملة «مونتييل» تثق فى نبوءات «كارميخائيل» عن حالة الجو التى يستند فيها إلى «كالو» أصابع قدميه . وتأملت الميدان الصغير ، الذى خلا من المارة ، والبيوت التى خيم عليها الصمت ، والتى لم تفتح أبوابها ليشاهد

أصحابها جنازة «خوزيه مونتييل» ، ثم أحست باليأس لحالة أظفارها ولأراضيها المترامية ، وللمشاكل التى لاتنتهى ، والتى ورثتها عن زوجها ، والتى لن تنجح أبداً فى فهم كنهها .

وقالت ، وقد أخذتها العَبرة .

ـ هذا العالم سيىء الصنع .

وبدا للذين زاروها هذه الأيام أنها فقدت عقلها ، ولكنها لم تكن قط أكثر قدرة على التمييز منها وقت ذاك . لقد كانت منذ ما قبل فترة الاغتيالات السياسية تقضى سحابة أيام أكتوبر الكئيبة أمام نافذة غرفتها وهى تتحسر على مصير من ماتوا .

أفكار سوداء لم يكن لها سبب فى ذلك الوقت ، أمَّا الآن ـ بعد وفاة زوجها ـ فقد أصبح لها سبب محسوس .

وهكذا ، وبينما كان اليأس والقنوط قد بلغا بأرملة «مونتييل» كل مبلغ كان «كارميخائيل» يعمل مافى وسعه لإنقاذ السفينة من الغرق ، ولم تكن الأمور تسير سيراً حسناً ، فقد أخذ تجار المدينة ينتقمون لأنفسهم بعد موت «خوزيه مونتييل» الذى كان يحتكر التجارة المحلية بالإرهاب وتحت التهديد . والبُنّ الذى لم يعد الزبائن يجيئون لشرائه أصبح يفسد فى الخزانات المكدسة فى الحوش ، كما كانت الحموضة تفسد العسل فى القرب المصنوعة من الجلد ، أمَّا الجبُن فقد تفشى فيه الدود فى الدواليب المظلمة المقامة بالمخزن . وكان «خوزيه مونتييل» ـ فى مقبرته التى تزينها المصابيح الكهربائية وتماثيل الملائكة المصنوعة من مادة تُشبه المرمر ـ يدفع ثمن ست سنوات من الاغتيالات والاعتداءات . لم يحدث فى تاريخ البلد قط أن اغتنى

أحد بالسرعة التى اغتنى بها هذا الرجل ، وحين وصل إلى المدينة أول عمدة لها فى عهد الديكتاتورية كان «خوزيه مونتييل» من مناصّرى جميع الأنظمة الحاكمة الحذرين ، وكان قد قضى نصف عمره وهو جالس فى سرواله على باب مضرب الأرز الذى يملكه ، وقد عُرف بين الناس فى وقت من الأوقات بأنه محظوظٌ ومتدين . لقد نذر ذات مرة بصوت عال أن يهدى إلى الكنيسة تمثالاً للقديس «خوزيه» بالحجم الطبيعى لو كسب فى اليانصيب . وبعدها بأسبوعين حالفه الحظ فكسب الرقم الرابح ، ووفى بنذره . والمرة الأولى التى رآه الناس فيها ينتعل حذاءً كانت حين وصل العمدة الجديد ـ وهو رجل أشول فظ الطبع ـ كان فى الماضى شاويشاً ، وكان يحمل تعليمات صريحة بتصفية المعارضة . وبدأ «خوزيه مونتييل» علاقته بالعمدة الجديد بالتجسس لحسابه ، وكان هذا التاجر الصغير التى لم يكن فى طبعه ـ طبع الرجل البدين الهادىء ـ مايثير أدنى قلق عند الناس يقسم خصومه السياسيين إلى فئتين : الفقراء والأغنياء ، والفقراء الذين كان يبلغ عنهم كانت الشرطة تغتالهم بالرصاص فى الميدان العمومى ، أما الأغنياء فكانت تعطيهم مهلة قدرها ٢٤ ساعة ليغادروا البلدة . وعندما كان الأمر يقتضى الإعداد لمذبحة كان «خوزيه مونتييل» يقفل مكتبه الخانق على نفسه أياماً كاملة مع عمدة البلدة ، فى حين كانت زوجته تترحم على القتلى ، وحين كان العمدة يغادر المكتب كانت تعترض طريق زوجها وتقول له :

ـ هذا الرجل مجرم . استخدم نفوذك لدى الحكومة لتنقل هذا الحيوان المتوحش الذى لن يترك فى البلدة إنساناً على قيد الحياة !

وكان خوزيه ـ المثقل بالأعباء فى تلك الأيام ـ يزيح زوجته من أمامه بدون أن ينظر إليها ويقول : لاتخافى . والواقع أن تجارته لم تكن قتل الفقراء ، بل

طرد الأغنياء ، وبعد أنْ كان الرصاص يُطلق على أبواب هؤلاء بأوامر من عمدة المدينة ويُحدث فيها ثقوباً كثيرة ، وبعد أنْ كان العمدة يحدد لهم مهلة لمغادرة المدينة ، كان «خوزيه مونتييل» يشترى أراضيهم ومواشيهم بالثمن الذى يحدده هو .

وكانت زوجته تنصحه وتقول :

ـ لاتكن أَبْلَه . ستنفق مالك كله لمساعدتهم لكيلا يموتوا من الجوع فى مكان آخر ، ولن يعترف لك منهم أحد بالجميل .

وكان «خوزيه مونتييل» الذى كان وقته لايتسع حتى للابتسام ، ينحيها عن طريقه ويقول لها :

ـ اذهبى إلى مطبخك ولاتضايقينى .

وبهذه السرعة صفيت المعارضة فى أقل من سنة ، وأصبح «خوزيه مونتييل» أغنى وأقوى رجل فى البلدة ، ومكنه ذلك من إرسال ابنتيه إلى باريس ، والحصول لابنه على منصب قُنْصلٍ فى ألمانيا . وأصبح همه الوحيد هو توطيد مركزه وسلطاته ، ولكنه لم يستمتع بثروته المغتصبة أكثر من ست سنوات .

وبعد مرور سنة على وفاته لم تعد امرأته تسمع طقطقة السلالم إلاَّ تحت أقدام شخص يحمل إليها خبراً سيئاً ، والشخص الذى كان يأتى كان يصل دائماً ساعة الغروب ليخبرها أن اللصوص قد أغاروا على أملاكها مرة أخرى ، أو ـ كما حدث بالأمس القريب ـ أنهم سرقوا ٥٠ عجلاً ، وكانت أرملة «مونتييل» تجلس بدون حراك فى كرسيها الهزاز وتقرض أظفارها ، وكان الغيظ غذاءها الوحيد ، وكانت تكلم نفسها وتقول :

ـ قلت لك ياخوزيه مونتييل هذه بلدة مشئومة ، وحين مِتَّ لم تبرد جثتك فى قبرك ، وإذا بهم يولوننا ظهورهم .

لم يعد يزور هذه الأرملة أحد ، والإنسان الوحيد الذى كانت تقع عليه عينها فى هذه الشهور التى لاتنتهى ، والتى لم ينقطع فيها سقوط المطر ، كان «كارميخائيل» المثابر ، الذى لم يدخل البيت قط ومظلته مقفلة . الأحوال لم تتحسن . وقد كتب «كارميخائيل» عدة خطابات لابن «خوزيه مونتييل» مبرزاً له فائدة الحضور للجلوس أمام محل أبيه ، بل إنه سمح لنفسه بالإشارة إلى بعض الاعتبارات الشخصية الخاصة بصحة الأرملة ، ولكن الردود التى كان يتلقاها كانت دائماً ردوداً لا يخرج المرء منها بشىء . وأخيراً رد ابن «خوزيه مونتييل» بخطاب قال فيه بصراحة إنه لايجرؤ على العودة ، خشية أن يطلق عليه بعضهم النار ؛ لذلك صعد «كارميخائيل» إلى غرفة الأرملة واضطر إلى مصارحتها بأن ثروتها ضاعت ، وتجارة زوجها بارت ، وأنها تجلس على خراب ، وكان ردها :

ـ أحسن ! لقد شبعت من حديث الجبن والذباب . خُذ إنْ أردت ماتحتاج إليه ودَعْنى أموت فى سلام .

ومنذ تلك اللحظة أصبح اتصال الأرملة الوحيد بالعالم يتمثل فى الخطابات التى كانت تكتبها إلى ابنتيها فى آخر كل شهر . كانت تقول لهما : «هذه بلدة ملعونة . ابقيا حيث أنتما ولاتفكرا فى العودة ، ولاتشغلا نفسيكما بى . يكفى لسعادتى أن تكونا فى خير حال » . وكانت بنتاها تكتبان لها بدورهما . كانت خطاباتهما دائماً تنضح بالمرح ، وكان من الجلى أنهما كانت

تُكتب فى أماكن معتدلة الحرارة ، حسنة الإضاءة ، وأن البنتين كانتا تريان انعكاس صورتيهما على عدة مرايا حين كانتا تستغرقان فى التفكير . ولم تبد الفتاتان بدورهما أى رغبة فى العودة . كانتا تقولان :

« نحن هنا فى بلد مُتمدن ، أما هناك فالوسط ليس مناسباً لنا . من المستحيل أن نعيش فى بلد متوحش يقتل الناس فيه لأسباب سياسية » . وكانت أرملة مونتييل حين تقرأ هذه الخطابات تشعر بتحسن وُتَؤمِّن برأسها على كل جملة فيها .

وحدثتها ابنتاها فى إحدى المناسبات عن محال الجزارة فى باريس فقالتا «إنهم فى هذه المدينة يذبحون الخنازير ويعلقونها على باب الجزارة ويزينونها بقرون وعقود من الأزهار ووردت فى أسفل الخطاب عبارة بخط يختلف عن خط ابنتها تقول : « أتدرين أين يضعون أكبر وأجمل زهرة من أزهار القرنفل؟ فى مؤخرة الخنزير » . وحين قرأت أرملة مونتييل هذه الجملة ابتسمت للمرة الأولى منذ سنتين . وصعدت إلى مخدعها بدون أن تطفىء أنوار البيت . وقبل أن توقد أدارت المروحة الكهربائية ناحية الجدار ، ثم أخرجت من درج المنضدة الصغيرة المجاورة للسرير مقصا وقطعة من المشمع الطبى اللاصق ، وكذلك مسبحتها ، وضمت ظفر إبهام يدها اليمنى الذى تهرأ من كثرة القرض . ثم أخذت تسبح ، ولكنها مالبثت أن حولت المسبحة إلى يدها اليسرى ؛ لأن المشمع الذى ضمدت به أصبع يدها اليمنى كان يجعلها لا تُحِسُّ بعَدِّ الحبات . وتناهى إلى سمعها لفترة قصف الرعد من بعيد، ثم راحت فى النوم ، وانحنى رأسها على صدرها ، وتدحرجت اليد التى تمسك بالمسبحة إلى جانبها . ورأت الأم الكبيرة عند ذاك فى الحوش

تمسك بفوطة حمام بيضاء ومشط فى حجرها وهى تقتل القمل بظفرى إبهاميها وسألتها :

ـ متى يحين أجلى وأموت ؟

ورفعت الأم الكبيرة رأسها وأجابت :

ـ حين يبدأ الألم يسرى فى ذراعك .



يوم بعد يوم السبت

بدأت وساوس السنيورا السيدة «زبيكا» - وهى أرملة حزينة تعيش فى بيت كبير ذى طرقتين وتسع غرف نوم - فى شهر يوليو، حين اكتشفت أن السلك الذى يغطى نوافذ الغرف قد تَثَلَّم ، وكأن بعضهم قد رماه بالحجارة من الشارع . وقد اكتشفت ذلك أول ما اكتشفته فى غرفة نومها ، وفكرت فى أن تتحدث عن هذا الموضوع مع «أرخنيدا» خادمتها ونجيتها منذ أن مات زوجها . وحدث بعد ذلك حين كانت تنقل بعض «الكراكيب» من مكان لآخر (فإن السيدة «ربيكا» لم تكن منذ فترة تفعل شيئاً محددًا فى بيتها غير نقل «الكراكيب») أن لاحظت أن سلك مخدعها لم يكن الوحيد الذى تحطم، وأن نوافذ جميع غرف البيت قد تحطم سلكها كذلك . وكان للسلطة عند الأرملة «ربيكا» معنى أكاديمى ، لعلها ورثته عن جدها الأكبر من ناحية الأب . وكان هذا الجد من أبناء البلد المُوَلَّدِين ، وكان قد قاتل أثناء حرب الاستقلال فى صفوف أنصار ملك إسبانيا ، ثم قام بعد الحرب برحلة مضنية إلى ذلك البلد بغرض واحد ، هو زيارة السراى الذى بناه الملك «كارلوس» الثالث فى «سان الدفونسو» ؛ لذلك فإن الأرملة ، عندما اكتشفت حالة السلك فى النوافذ الأخرى ، لم تعد تفكر فى التحدث

بشأنها إلى «أرخنيدا» ، بل وضعت على رأسها قبعتها القش التى زُينت بزهور صغيرة من القطيفة ، وذهبت إلى دار البلدية للإبلاغ عن الحادث . ولكنها حين وصلت إلى البلدية وجدت أن العمدة نفسه كان مشغولاً بإصلاح سلك نوافذ دار البلدية الذى أصابه ما أصاب سلك نوافذ بيتها ، وقد خلع قميصه وظهر صدره العارى الذى يغطيه الشعر ، وقُوته التى بدت لها بهيمية .

ودخلت السيدة «ربيكا» المكتب القذر الذى تسوده الفوضى ، وكان أولُ ماوقعت عليه عيناها هو كومة من العصافير الميتة على المكتب . ولكنها كانت تشعر بالاختناق بسبب الحر أولاً ، ثم بسبب الغضب الذى أفعم نفسها لما حدث لسلك النوافذ فى بيتها . وقد بلغ من حنقها أن وقتها لم يتسع للإحساس بالدهشة لمنظر الطيور الميتة المكومة على المكتب ، ولا لاستنكار منظر السلطة ، وقد أهانت نفسها واعتلت سلماً وأخذت تصلح الشبكة المعدنية للنافذة بِكُرة من السلك ومفكّ . وكانت الكرامة الوحيدة التى تفكر فيها فى هذه الساعة هى كرامتها ، كرامتها التى أُهينت بتحطيم سلك النوافذ ، وبلغ من حنقها أيضاً أنها لم تفكر فى وجود أى علاقة بين نوافذ بيتها ونوافذ البلدية . ووقفت فى حشمة على بُعد خطوتين من الباب داخل المكتب ، واتكأت على مقبض مظلتها الطويلة المزركشة وقالت :

ـ جئت فى شكوى .

وأدار العمدة رأسه من أعلى السلم الخشبى وقد امتقع وجهه من الحر ، ولم تبدُ عليه أى دهشة لحضور الأرملة إلى مكتبه ، برغم مافى ذلك من غرابة، واستمر ـ متجهماً غير مكترث ـ فى فك الشبكة السلكية المنبعجة وسأل :

ـ ما الحكاية ؟

ـ أطفال الناحية كسروا سلك النوافذ فى بيتى .

عندها التفت إليها العمدة من جديد وتفحصها باهتمام ، ابتداءً من زهور قبعتها المخملية الصغيرة إلى حذائها الذى له لون الفضة القديمة . وبدا وكأنه يراها للمرة الأولى فى حياته ، ونزل درجات السلم بحذر بدون أن يرفع عنها بصره ، وحين وطئت قدماه الأرض وضع يده فى خاصرته وحرك المفك مشيراً إلى المكتب ، وقال :

ـ لم يكن ذلك من فعل الأطفال ، بل من فعل العصافير .

لحظتها فقط تنبهت إلى العلاقة بين العصافير الميتة المُلْقاة على المكتب وبين الرجل الذى صعد السلم وشبك السلك المنبعج على نوافذ غرف النوم فى بيتها . وارتعدت أوصالها حين تصورت جميع هذه الغرف وقد ملأتها العصافير الميتة .

وهتفت :

ـ الطيور !

وقال العمدة مؤكداً :

ـ نعم ، الطيور . عجيبة أنكِ لم تدركى ذلك ونحن نواجه منذ ثلاثة أيام مشكلة هذه العصافير التى تحطم النوافذ لتموت داخل البيوت .

وحين تركت السيدة «ربيكا» دار البلدية أحست بالخجل من نفسها ، وبشىء من الغيظ. حيال «أرخنيدا» التى لم تطرق موضوع العصافير بكلمة برغم أنها كانت تخبرها بكل مايتردد فى القرية من شائعات .

وفتحت مظلتها لتتفادى وهج الشمس الذى بهر نظرها مع اقتراب شهر أغسطس ، وخُيل إليها وهى تذرع الشارع القائظ الخالى من المارة أن رائحة قوية نفاذة ، رائحة عصافير ميتة ، كانت تنبعث من غُرف النوم فى جميع البيوت .

كان هذا فى الأيام الأخيرة من شهر يوليو ، ولم يحدث قط فى حياة القرية أن ارتفعت درجة الحرارة فيها بهذا الشكل ، ومع هذا فإن سكان القرية لم ينتبهوا إلى هذا لفرط انشغالهم بموت كل هذا العدد من العصافير ، وبالرغم من أن هذه الظاهرة الغريبة لم تؤثر بشكل جدى على أنشطة القرية ، فإنها استحوذت على عقول أكثرية الناس فى أوائل شهر أغسطس. ولم يكن من هذه الأكثرية صاحب الفضيلة القسيس أنطونيو إيزابيل «قس مذبح كستانييدا ومونتيرو» المقدس ، ممثل الكنيسة فى الأبرشية . وكان هذا القسيس رجلاً لين العريكة، فى الرابعة والتسعين من عمره ، وكان يؤكد أنه رأى الشيطان فى ثلاث مناسبات ، وإنْ لم ير سوى عصفورين ميتين ، وأنه حين رآهما لم يُلْقِ إليهما بالاً . وقد وجد أحد هذين العصفورين ذات يوم من أيام الثلاثاء بعد القُداس فى الغرفة الملحقة بالكنيسة التى تُحفظ فيها الملابس والأشياء المقدسة، فظن أن الذى جاء به قط من قطط الحى . أما العصفور الثانى فقد عثر عليه يوم الأربعاء فى طُرقة بيته ، وقد دفعه بطرف حذائه إلى الشارع وهو يقول لنفسه : ماكان يجب أن تخلق القطط .

على أنه حين وصل إلى محطة السكة الحديدية يوم الجمعة وجد عصفوراً ثالثاً ميتاً على الأريكة التى اختارها للجلوس . وحدث فى نفسه شىء كومضة البرق حين أمسك الطائر الميت من مخلبيه الصغيرين ورفعه إلى مستوى عينيه ، وأداره وأنعم النظر إليه ، ثم انتفض وهو يقول لنفسه :

مستحيل ! هذا ثالث عصفور أجده هذا الأسبوع . ومنذ هذه اللحظة بدأ يدرك ماكان يجرى فى القرية ، وإنْ يكن بصورة يشُوبها كثيرٌ من الغموض .

ذلك أن الأب «أنطونيو إيزابيل» ـ نظراً لِسِنِّهِ من ناحية ، ثم لأنه كان يؤكد أنه رأى الشيطان فى ثلاث مناسبات (وهى قصة كان أهل القرية يرون أنها «لاتدخل الرأس تماماً») كان فى نظر أهل الأبرشية رجلاً طيباً ومسالماً وخدوماً ، ولكنهم كانوا يرون أنه كثيراً مايسبح فى ملكوت ، ثم أدرك أن شيئاً مّا يحدث للعصافير ، ولكنه حتى بعد أن أدرك ذلك لم ير أن المسألة من الأهمية بحيث تقتضى أن تخصص لها خطبة وعظ فى الكنيسة . وكان هو أول من شم الرائحة . وقد شمها ليلة الجمعة حين استيقظ منزعجاً وقد قطعت عليه نومه الخفيف رائحة كريهة ، ولكنه لم يكن يدرى ما إذا كان مصدرها كابوسًا خانقًا أو حيلة جديدة وغدة ابتدعها الشيطان ليعكر صفو نومه . وتشمم حوله ثم تقلب فى فراشه وهو يقول لنفسه إن هذه التجربة تصلح مادة لخطبة فى الكنيسة ، وإنها ستكون خطبة عصماء يتحدث فيها عن مكر الشيطان ومهارته فى التسلل إلى قلب الإنسان عن طريق أى حاسة من حواسه الخمس .

وحين مر القسيس من الرواق فى اليوم التالى قبل القداس سمع للمرة الأولى حديثاً عن العصافير الميتة . وكان يفكر فى خطبة الوعظ التى سيلقيها، وفى الشيطان ، وفى الخطايا التى يمكن ارتكابها عن طريق حاسة الشم حين سمع شخصاً يقول إن الرائحة التى تفوح فى الليل هى رائحة العصافير الميتة التى جُمعت خلال الأسبوع ، وإذا بمزيج من الأفكار يتجمع فى رأسه وتختلط فى رأسه الاحتياطات الصحية الواردة فى الإنجيل والروائح الكريهة والعصافير الميتة ، والحاصل أنه اضطر يوم الأحد إلى ارتجال خطبة

عن الإحسان لم يفهم هو نفسه أولها من آخرها ، ونسى إلى الأبد احتمال وجود أى علاقة بين الشيطان والحواس الخمس .

والذى لاشك فيه هو أن هذه التجارب ظلت عالقة بمكان بعيد من ذهنه ، وهذا شيء كثيراً ماحدث له ليس فقط فى مدرسة اللاهوت منذ ٧٠ عاماً ، بل كذلك ـ بصفة خاصة ـ منذ أن أتم التسعين . وفى مدرسة اللاهوت كان عصر يوم مضيء من الأيام هطل فيه مطر غزير بدون عاصفة، كان يقرأ جزءاً من مسرحية للشاعر الإغريقى «سوفوكليس» بلغتها الأصلية . وحين توقف المطر أطل من النافذة على الريف المجهد ، وقد بدا وكأنه اغتسل وانتعش . ونسى «أنطونيو إيزابيل» تماماً كل مايتعلق بالمسرح الإغريقى وأمهات الكتب الكلاسيكية التى لم يكن يفرق بينها ، بل كان يسميها بصفة عامة «عجائز الزمن الماضى الصغار» . وفى عصر يوم غير ممطر ، ربما بعد ثلاثين أو أربعين عاماً من ذلك اليوم ، كان «أنطونيو إيزابيل» يعبر ساحة مرصوفة فى قرية كان يزورها وإذا به ينشد عفو الخاطر أبيات «سوفوكليس» التى قرأها فى مدرسة اللاهوت . وفى نفس هذا الأسبوع تحدث وأطال الحديث عن «عجائز الزمن الماضى الصغار» مع ممثل الفاتيكان ، وهو عجوز يحب الكلام ، سهل التأثر ، يعتز بعدد من «الأحاجى» المعقدة التى لا بد أنه اخترعها بنفسه ليطرحها على المتبحرين فى العلم ، وقد راجت هذه الأحاجى بعدها بسنين ، وأطلق عليها اسم «الكلمات المتقاطعة» .

وقد جعله هذا اللقاء يستعيد فجأة كل عشقه القديم لمؤلفات الشعراء الإغريق الكلاسيكيين . وفى عيد الميلاد من نفس العام تلقى خطاباً ، ولولا

أنه كان حتى فى ذلك الوقت البعيد قد اشتهر بالإفراط فى الخيال ، وبالجُرأة فى التفسير ، وبكونه ذا شطحات فى مواعظه ـ لرقُّوه أسقفاً فى هذه المناسبة .

ومع هذه فكان الأمر معروفاً فى القرية قبل حرب ٨٥ بوقت طويل . وحين بدأت العصافير تموت فى غرف النوم كان الناس قد طلبوا قبلها بسنين أن يستبدل به قسيس أصغر سنًّا ، لاسيما بعد أن سمعوه يقول إنه رأى الشيطان ، ومنذ ذلك الوقت لم يعد أحد يحسب له حساباً ، الأمر الذى لم ينتبه إليه تماماً ، بالرغم من أنه كان لا يجد صعوبة فى قراءة كتاب صلواته ذى الحروف المنمنمة بدون نظارة .

لقد كان دائماً رجلاً تسير حياته فى رتابة وانتظام ، كان صغير الهيئة ، عادى المظهر ، قوى العارضة ، بارز العظام ، هادىء الإشارة ، وكان صوته فاتراً فى الحديث العادى ، ولكنه كان يسترخى فى حديثه كالحالم حين يتحدث من المنبر . وكان يبقى حتى ساعة الغداء فى غرفته وهو مستلق على كرسى طويل ، قاعدته من قماش القلوع ، وليس عليه سوى سروال طويل من الصوف ، مربوط بأسفل عرقوبيه .

وكان عمله الوحيد هو إقامة القداس . وكان يجلس مرتين فى الأسبوع فى المكان المخصص لتلقى اعتراف التائبين، ولكن أحدًا لم يكن يأتى ليعترف بخطاياه ، وذلك منذ سنين ، وكان يعتقد بسذاجة أن مرجع ذلك هو أن الناس قَلَّ إيمانهم ؛ لانغماسهم فى عادات العصر ؛ ولهذا كان يعتبر أن رؤيته للشيطان ثلاث مرات حدث له دلالة فى هذا الصدد ، ولو أنه كان يعلم أن الناس لم تكن تصدق كلامه ، ربما لأن كلامه لم يكن مقنعاً حين كان يحدثهم عن هذه التجارب التى تعرض لها . وفيما يتعلق به هو شخصيًّا

فإنه لم يكن ليندهش لو أنه اكتشف أنه كان ميتاً ليس فقط على مدى السنوات الخمس الأخيرة ، بل كذلك فى هذه اللحظات العجيبة التى وجد فيها العصفورين الأولين ، ومع ذلك فإنه أطل قليلاً على الحياة حين وجد العصفور الثالث ، فكان يكثر فى الأيام الأخيرة من التفكير فى الطائر الميت الذى وجده على أريكة المحطة .

لقد كان يعيش على بُعد عشر خطوات من الكنيسة فى بيت صغير ، نوافذه ليس لها أسلاك ، وفيه طُرقة تفضى إلى الشارع ، وغرفتان كان يستخدم إحداهما كغرفة مكتب ، والأخرى كغرفة نوم . وكان يتصور ـ ربما فى اللحظات التى لم تكن إفاقته فيها كاملة ـ أن من الممكن أن تتحقق السعادة على الأرض لو خف الحر ، وكانت هذه الفكرة تزعجه إلى حد مَّا ، كان يحلو له أن يرتاد متاهات الميتافيزيقا ، وكان هذا شأنه حين يجلس فى طُرقة بيته كل صباح ، وبابه نصف مفتوح ، مغمض العينين مسترخى العضلات . ولكنه هو نفسه ماكان يخطر بباله أن أفكاره ـ منذ ثلاث سنوات على الأقل ـ قد بلغت من الدقة حدًّا جعله فى لحظات تأمله لايفكر فى شىء .

وفى الثانية عشرة بالضبط عبر الطرقة غلام يحمل آنية «عموداً» (*) من أربعة أجزاء لم تكن محتوياتها تتغير قط : شوربة عظام ، مع قليل من دقيق

(*) «العمود» اسم أطلق على ثلاث أو أربع من صحاف الطعام التى تشبه «الحلل» الصغيرة ، مصنوعة من الألمونيوم بنفس الحجم ، توضع إحداها فوق الأخرى ، ولها حامل تُحمل به عادة إلى من يعملون بعيداً عن بيوتهم .

البطاطا ، وأرز مسلوق ، ولحم مطهى بدون بصل ، وموزة مقلية ، أو كعكة دقيق الذرة وشىء من العدس لم يذقه الأب «أنطونيو إيزابيل» قط .

ووضع الغلام «العمود» قريباً من الكرسى الذى كان يضطجع عليه القسيس ، ولكن القسيس لم يفتح عينيه إلا بعد أن سمع من جديد وقع أقدامه المبتعدة فى الطرقة ، ولهذا كان أهل القرية يعتقدون أن الأب ينام نومة القيلولة قبل الغداء (وهذا شىء آخر لايفعله إلا مخبول) وفى الواقع أنه لم يكن ينام كسائر الناس حتى فى الليل .

لقد أصبحت عادات القس فى هذه الفترة بسيطة كعادات البدائيين : كان يتغدى بدون أن يتحرك من كرسيه القماشى الطويل ، وبدون أن يخرج الطعام من العمود ، وبدون أن يستخدم طبقاً أو شوكة أو سكيناً ، مكتفياً ـ بالكاد ـ بالملعقة ، نفس الملعقة التى كان يرتشف بها الحساء ، ثم كان ينهض ويصب ماءً قليلاً على رأسه ويلبس ثوب القس الأبيض المرقع بقطع عريضة مربعة من القماش ، ويتجه إلى محطة السكة الحديدية فى نفس اللحظة التى كان باقى أهل القرية يتمددون فيها على أسِرَّتِهِم لنومة القيلولة . وكان منذ شهور يسلك نفس الطريق إلى المحطة وهو يردد الصلاة التى ألَّف هو نصها فى المرة الأخيرة التى ظهر له فيها الشيطان .

وفى يوم من أيام السبت ـ بعد تسعة أيام من اليوم الـذى بدأت فيه الطيور تسقط ميتة ـ اتجه الأب «أنطونيو إيزابيل» إلى المحطة وإذا طائر يسقط عند قدميه وهو فى النزع الأخير . أمام بيت «السنيورا» «ربيكا» بالضبط . وبرق بارق من الوعى فى رأسه ، وعرف للتو أن هذا الطائر ـ دون الطيور الأخرى ـ يمكن إنقاذه . وأخذه بين يديه وطرق باب «السنيورا» «ربيكا» فى

اللحظة التى كانت فيها هذه السيدة تفك أزرار ثوبها استعداداً لنومة القيلولة .

وسمعت الأرملة فى غرفة نومها الطَّرقات ، فحولت نظرها بصورة غريزية إلى سلك النافذة . لم يكن أى عصفور قد دخل هذه الغرفة منذ يومين . ومع ذلك كانت شبكة السلك لاتزال منبعجة ، فقد اعتبرت الأرملة أن الإنفاق على إصلاحها مع استمرار غزو العصافير ـ هذا الغزو الذى يثير الأعصاب ـ إنفاق فى غير محله . سمعت الطرق على الباب من خلال هدير المروحة الكهربائية ، وتذكرت بضيق أن «أرخنيدا» نائمة فى قيلولتها فى آخر غرفة نوم على الطُّرقة ، ولم يخطر لها حتى أن تتساءل عمن يحتمل أن يكون هذا الشخص الذى يريد إزعاجها فى هذه الساعة ، وزررت أزرارها من جديد ، واجتازت الباب المغطى بالسِّلك ، وسارت بطول الطُرقة وقد نصبت قامتها واتخذت هيئة متكلفة ، وعبرت الصالة المكتظة بالأثاث وأشياء الديكور ، ورأت من خلال الشبكة المعدنية ـ قبل أن تفتح الباب ـ أن الطارق هو الأب «أنطونيو إيزابيل» بهيئته الصامتة وعينيه الخابيتين ، وأنه يحمل فى يده عصفوراً ، وقال الأب «أنطونيو» : إذا غمرناه فى شىء من الماء ثم وضعناه تحت زرعة «دباء» فأنا واثق أنه سيحيا . وحين فتحت السنيورا «ربيكا» الباب خُيل إليها أنه يكاد يغمى عليها من الرعب .

لم يبق القسيس فى البيت أكثر من خمس دقائق ، وتصورت أنها هى التى اختصرت الجلسة ، ولكن الحقيقة هى أن الأب هو الذى اختصرها . ولو أن الأرملة فكرت فى هذه اللحظة لأدركت أن القسيس لم يبق فى بيتها مرة واحدة ـ خلال السنوات الثلاثين التى قضاها فى القرية ـ أكثر من خمس دقائق ، فقد كان يبدو له أن ازدحام صالة البيت بالأثاث والتحف دليل واضح على

شهوة التملك عند صاحبته ، برغم أنها تمت بصلة قُربى صحيحة ـ وإن تكن بعيدة ـ إلى الأسقف . وعلاوة على ذلك كانت هناك أسطورة (أو قصة) عن أسرة السنيورا «ربيكا» ـ كان الأب «أنطونيو» واثقاً من أنها لم تصل إلى قصر الأسقفية ـ مؤداها أن الكولونيل «أوليانو بوينديا» ابن عم الأرملة ، الذى كانت ترميه بالعقوق ، كان يؤكد أحياناً أن الأسقف لم تطأ قدمه القرية قط منذ بداية القرن ليتفادى زيارة قريبته . والحاصل ـ بغض النظر عن هذه القصة أو الأسطورة ـ هو أن الأب «أنطونيو إيزابيل» لم يكن يشعر بالارتياح فى هذا البيت الذى لم تُظهر ساكنته الوحيدة تقوى أو ورعاً ، ولم تكن تعترف له فى الكنيسة بذنوبها إلا مرة فى السنة ، وكانت تجيب إجابات مبهمة حين كان يحاول أن يستعلم منها عن وفاة زوجها الغامضة . وإذا كان قد ذهب إلى بيتها الآن ليطلب أن تحضر إناء فيه ماء ليستحم فيه عصفور محتضر ، فقد كان ذلك تحت ظرف لو خُيِّر لما اختاره .

وإلى أن تعود الأرملة أحس القس ـ وهو جالس فى كرسى هزاز فاخر من الخشب المنحوت ـ رطوبة هذا البيت الغريبة ، هذا البيت الذى لم يستعد هدوءه منذ أربعين عاماً ، يوم أن سمعت طلقة من مسدس خرّ بعدها «خوزيه أركاديوبوينديا» أخو الكولونيل على وجهه صريعاً وسط صلصلة مشابك الأحزمة والمهمازات ، فوق قماط ساقه الذى كان قد خلعه لتوه ، والذى كان لم يفقد بعد حرارته .

وحين دخلت السنيورا «ربيكا» الصالة من جديد رأت الأب «أنطونيو إيزابيل» جالساً على الكرسى الهزاز وقد اكتسى وجهه تعبيره الضبابى الذى كان يجعل فرائصها ترتعد . وقال القس :

ـ حياة الحيوان لاتقل جمالاً عند الرب عن حياة الإنسان .

قال هذا بدون أن يتذكر «خوزيه أركاديو بويندیا» . غير أن الأرملة تذكرته ، ومع ذلك فقد اعتادت ألاَّ تحمل مايقول «الأب» على محمل الجد منذ أن تحدث من المنبر عن المرات الثلاث التى ظهر له فيها الشيطان ، وبدون أن تلقى إليه بالاً أخذت العصفور بين يديها وغمرته فى الكوب ثم هزته ، ولاحظ الأب من حركاتها أنها مهملة ، وأن قلبها ليس فيه تقوى ، وأنها لاتعبأ بحياة الطائر ، وقال بدماثة ولكن بلهجة التأكيد :

ـ أنت لاتُحبين الطيور .

ورفعت العجوز جفنيها بحركة امتزج فيها الضيق والعداء وقالت :

ـ حتى إذا كنت قد أحببتها فى وقت من الأوقات فإننى أكرهها الآن ؛ لأنها تعودت أن تموت داخل البيوت .

وقال القس فى إصرار :

ـ مات منها الكثير .

وكان من الممكن لمن يستمع إليه أن يتصور أن رتابة صوته تخفى دهاءً كثيراً ، وقالت الأرملة : ماتت كلها .

ثم أضافت وهى تجفف الطائر باشمئزاز وتضعه تحت شجرة من أشجار الدباء :

ـ وما كان الأمر يهمنى لولا أنها ثلّمت أسلاك النوافذ .

وبدا القسيس أنه لم ير قط قلباً بهذه القسوة . وأخذ العصفور الصغير المحتضر فى يده ، ثم تنبه بعد لحظة إلى أن جسمه قد كف عن الخفقان ،

عندها نسى كل شيء : رطوبة البيت ، وجشع المرأة ، ورائحة البارود التى لاتُطاق ، والتى كانت تنبعث من جثة «خوزيه أركاديوبوينديا» .

وأفاق على الحقيقة العجيبة التى كانت تحيط به منذ بداية الأسبوع، ففى نفس هذا المكان ، وبينما كانت الأرملة تراه وهو يغادر البيت والطائر الميت بين يديه وعلى وجهه تعبير تهديدى ، كان هو يكتشف اكتشافاً رائعاً : عصافير ميتة تنهمر على المدينة كالمطر وهو (رجل الدين) الذى هيأته المقادير لهذا الدور ، والذى عرف طعم السعادة حين كانت وقدة الحر تزول، قد نسى نهاية العالم التى تحدث عنها الكتاب المقدس نسياناً تامًّا .

وذهب فى هذا اليوم إلى المحطة كالمعتاد ، ولكنه كان فى غير وعيه ، كان يعرف بصورة مشوشة أن شيئاً ما يحدث فى العالم ، ولكنه كان يحس بثقل فى أطرافه ، وبأنه غبى ، وبأنه ليس أهلاً لهذه اللحظة ، وحاول وهو جالس على أريكة المحطة أن يتذكر ما إذا كانت الدنيا قد أمطرت عصافير ميتة فى قصة نهاية العالم كما وردت فى الكتاب المقدس أم لا ، ولكنه وجد أنه نسى كل شيء عن هذه القصة .

وخطر له فجأة أن توقفه فى بيت «السنيورا» «ربيكا» جعله يتأخر عن موعد وصول القطار . ومد رقبته فوق الزجاج المترب المكسور ، ورأى فى ساعة المحطة أن الساعة هى الواحدة إلا اثنتى عشرة دقيقة . وحين عاد إلى الأريكة أحس أنه يختنق ، وتذكر فى هذه اللحظة أن اليوم يوم سبت ، وحرك مروحته المصنوعة من سعف النخل المجدول مرة أو مرتين وهو يتخبط فى ضبابه الداخلى ، ثم أحس بالقنوط بسبب أزرار عباءته وأزرار حذائه ذى العنق ، وسرواله الطويل الضيق المصنوع من الصوف ، وأدرك بانزعاج أنه فى حياته لم يشعر بمثل هذا الحر .

وبدون أن يتحرك من الأريكة فك أزرار العباءة وأخرج منديله من كمها ومسح به وجهه المحتقن ، وهو يتصور فى لحظة تَجَلٍّ مؤثِّر أنه قد يكون بسبيل مشاهدة زلزلة زلزال ، لقد قرأ ذلك فى مكان ما ، ومع ذلك فقد كانت السماء صحواً ، سماء صافية زرقاء اختفت منها كل العصافير بصورة غامضة .

ورأى لون السماء وشفافيتها ، ولكنه نسى مؤقتا أمر العصافير الميتة ، كان يفكر الآن فى شىء آخر : فى احتمال أن تثور عاصفة ، هذا بالرغم من أن السماء كانت رائقة وهادئة كأنها سماء قرية أخرى بعيدة ومختلفة لاتعرف الحر، وكأن العينين اللتين كانتا تتأملانها ليستا عينيه . ثم نظر ناحية الشمال فوق الأسقف المصنوعة من النخل والزنك الصدىء ، فرأى مجموعة من النسور تحلق فى السماء كبقعة سوداء فى حركة بطيئة صامتة متوازنة فوق مقلب القمامة .

ولسبب ما لم يتبينه خامره شعور بأنه يشعر من جديد ، فى هذه اللحظة ، بالأحاسيس والانفعالات التى مرت به يوماً من أيام الأحد وهو فى مدرسة اللاهوت قبل انتهاء المرحلة الأولى من مراحل إعداده كقسيس بقليل . كان عميد المدرسة ، قد سمح له باستخدام مكتبته الخاصة ، فكان يقضى ساعات طوالاً (لاسيما أيّام الأحد) وهو غارق فى مطالعة كتب صفراء تفوح منها رائحة الخشب القديم ، على صفحاتها ملاحظات باللاتينية كُتبت بخط العميد بحروفه الصغيرة المدببة . وفى يوم من أيام الأحد، بعد أن ظل يقرأ طيلة النهار ، دخل عميد المدرسة الغرفة ، وأسرع ـ وهو مضطرب ـ إلى التقاط بطاقة «كارت بوستال» سقطت من بين صفحات الكتاب الذى كان يقرؤه . ولاحظ اضطراب العميد بعدم اهتمام كّيس ، ولكنه استطاع أن يقرأ

البطاقة . لم يكن فيها سوى جملة واحدة بالفرنسية كتبت بالحبر البنفسجي وبحروف مستقيمة وأنيقة : «مدام إيفيت ماتت هذه الليلة» . هاهو ذا بعد أكثر من نصف قرن من الزمان يتذكر هذه الواقعة وهو ينظر إلى بقعة فى السماء ، كانت مجموعة نسور تحوم فوق قرية منسية . وتذكر تعبير العميد الصامت وهو جالس أمامه ، وقد أضفى عليه الشفق لونه الأحمر ، واضطربت أنفاسه بصورة تكاد لاتفطن إليها العين .

واهتز لتداعى خواطره على هذا النحو ، فزال شعوره بالحر ، بل شعر بنقيضه ، ثم شعر بلسعة كلسعة الثلج فى إبطيه وفى أسفل قدميه ، وارتعدت أوصاله بدون أن يدرى لخوفه سبباً ، وأصبح نهبة لأفكار هوجاء كان من المستحيل التمييز فيها بين الشعور المقزز ، وحافر إبليس المشقوق الغائص فى الطين ، وسرب من العصافير النافقة التى تتساقط على العالم ، وهو - «أنطونيو إيزابيل قس المذبح المقدس » - فى مكانه لايعبأ بهذا الذى يحدث ، ثم نهض واقفاً ورفع يداً مستغربة ، كما لو كان يشرع فى تحية تضيع فى الفراغ ، وهتف فى فزع : «اليهودى التائه» .

فى هذه اللحظة صفر القطار ، ولكنه - للمرة الأولى منذ سنوات - لم يسمع هذا الصفير ، ورأى القطار وهو يدخل المحطة وقد غمره بخار أسود كثيف . وسمع صوت ارتطام الفحم الحجرى بصفائح الزنك الصدىء ، ولكن هذا بدا له كالحلم البعيد الذى ليس له تأويل ، حلم لم يستيقظ منه تماماً حتى عصر هذا اليوم بعد الرابعة بقليل حين وضع اللمسات الأخيرة فى نص خطبة الوعظ القوية التى أعدها ليوم الأحد ، وبعد ذلك بثمانى ساعات جاءوا يستدعونه لإجراء شعائر القداس الأخير لامرأة أوشكت على الموت .

وكانت النتيجة أن الأب «أنطونيو» لم يعرف من الذى وصل اليوم بـالقطار. لقد ظل زمناً طويلاً يشهد مرور عربات القطار الأربع «المخلعة» التى حال لونها ، وهو لا يذكر أن كائناً مَنْ كان نزل منها للبقاء فى البلدة ، على الأقل فى السنوات الأخيرة .

وقبل ذلك كان الأمر مختلفاً ، كان بوسعه البقاء فترة العصر بأكملها وهو يتابع مرور قطار محمل بالموز . مائة وأربعون عربة محملة بالموز تمر بدون أن تمر ، إلى أن تمر آخر عربة ، وقد حل المساء ، وفيها رجل يرفع فانوساً أخضر، عندها كان يرى القرية فى الطرف الآخر من الخط الحديدى وقد أُضيئت أنوارها . وكان يبدو له أن مجرد رؤية القطار وهو يمر تنقله إلى قرية أخرى . ومن الجائز أن هذه كانت بداية العادة التى تعودها فى الذهاب إلى المحطة ، حتى بعد أن أطلقوا رصاص المدافع على العمال ، وأوقفوا استغلال مزارع الموز ، وبعد أن توقف مجىء القطارات ذات المائة والأربعين عربة ، لم يبق غير هذا القطار الأصفر المترب ، الذى لم يكن يجىء بأحد ولاكان يستقله أحد .

وبرغم ذلك فقد جاء شخص فى هذا اليوم ، يوم السبت . وحين ابتعد الأب «أنطونيو إيزابيل» من المحطة رآه شاب هادىء ليس فيه شىء غير عادى سوى جوعه ، رآه من نافذة آخر عربة من عربات القطار فى نفس اللحظة التى تذكر فيها أنه لم يذق طعاماً منذ اليوم السابق .

وقال الشاب فى نفسه : إذا كان فى هذه القرية قسيس فلابد أن فيها فندقاً . ونزل الصبى من العربة وعبر الشارع الملتهب من هجير شمس أغسطس الشديدة ، ودخل فى ظل منعش ، هو ظل منزل مواجِهٍ للمحطة ،

يصدر من داخله صوت أسطوانة جراموفون مستهلكة . وقالت له حاسة شمه التى أرهفها جوع يومين : إن هذا هو الفندق . ودخل بدون أن ينظر إلى لافتة كتب عليها اسم الفندق «فندق ماكوندو» الذى لن تتاح له من بعد أبداً فرصة قراءته .

كانت صاحبة الفندق حاملاً فى أكثر من خمسة أشهر ، وكان لونها أصفرَ كلون المسطردة ، ومنظرها صورة طبق الأصل من منظر أمها حين كانت حاملاً بها . وطلب الفتى «غداءً بأسرع مايمكن» فقدمت له صاحبة الفندق ـ بدون تعجل ـ طبقاً من الحساء مع عَظْمة بالمخ وسلطة موز خضراء . وفى اللحظة ذاتها صفر القطار ، وحسب الفتى ـ وقد غطاه بخار الحساء الساخن المغذى ـ المسافة التى تفصله عن المحطة ، ثم تملكه فجأة ذلك الشعور الغامض بالذعر الذى يُحدثه دائماً قيام قطار فاتنا أن نأخذه .

وحاول أن يجرى ، ووصل إلى الباب فى خوف عظيم ، ولكنه كان يدرك حتى قبل أن يتخطى العتبة إلى الخارج أنه لن يتمكن من اللحاق بالقطار ، وعاد إلى المائدة وقد نسى جوعه ، ورأى بالقرب من «الجراموفون» فتاة تنظر إليه بدون إشفاق ، وعلى سيماها تعبير فظيع ، كتعبير كلب يهز ذيله . وللمرة الأولى فى اليوم كله خلع الفتى القبعة التى كانت أمه قد أهدتها إليه منذ شهرين ووضعها بين ركبتيه إلى أن انتهى من الأكل ، وحين قام من على المائدة لم يبدُ عليه انزعاج ؛ لأن القطار فاته ، ولأنه مضطر لقضاء نهاية الأسبوع فى قرية لن يهتم بمعرفة اسمها . وجلس فى ركن من الصالة مستنداً بعظام كتفه إلى كرسى عمودى غير وثير ، وبقى فى وضعه هذا فترة بدون أن يسمع الأسطوانات ، إلى أن قالت له الفتاة التى كانت تختار الأسطوانة :

ـ الجو فى الطُّرقة أجمل من هنا .

كان متضايقاً ، وكان ينفر بطبعه من الدخول فى علاقات مع من لايعرف، وكان يؤذيه أن ينظر إلى وجوه الناس حين كانت الظروف تضطره إلى الكلام ، وكانت كلماته إذا اضطر إلى ذلك لاتعبر عن أفكاره . وأجاب بنعم ، وشعر برعشة خفيفة ، وحاول أن يهز نفسه ناسيًا أن الكرسى الذى كان يجلس عليه ليس كرسيًّا هزازاً . وقالت الفتاة :

ـ الذين يحضرون إلى هنا يجرّون كرسيًّا إلى الطرقة ؛ لأن الحر فيها أخف من الحر هنا .

وشعر بقلق ؛ لأنه فهم من كلامها أنها تريد جذب أطراف الحديث ، وجازفَ فنظر إليها فى اللحظة التى كانت تدير فيها يد الجراموفون لتملأه . خُيل إليه أنها تجلس فى هذا المكان منذ شهور ، بل ربما منذ سنوات ، وأنها لاتشعر بأقل رغبة فى مبارحته ، وأن وظيفتها أن تملأ «الجراموفون» كأن حياتها مركزة فيه . وابتسمت الفتاة . فنظر إليها قائلاً :

ـ شكراً .

قالها وحاول أن يقوم وأن يعطى حركاته مظهرًا من اليسر والتلقائية . ولم تكف الفتاة عن النظر إليه ، وقالت :

ـ وهم كذلك يتركون القبعات على المشجب .

وأحس هذه المرة بسخونة فى أُذنيه وبتأفف لهذه الطريقة التى تحاول بها الفتاة توجيه تصرفاته . كان متململاً ، وشعر بأنه محاصر ، وتملكه من جديد شعور بالأسف للقطار الذى فاته ، ولكن صاحبة الفندق دخلت فى نفس اللحظة وابتدرته :

ـ ماذا تفعل ؟

فقالت الفتاة :

ـ ينقل الكرسى إلى الطرقة كما يفعل الجميع .

وخُيل إليه أن فى نبرة صوتها نغمة ساخرة . وقالت صاحبة الفندق :

ـ لاتزعج نفسك ، سأُحضر لك مقعداً .

وضحكت الفتاة ، وأحس هو بارتباك ، كان الجو حارًا حرارة جافة مسطحة ، وكان العرق يسيل من جسمه . ونَقلت صاحبة الفندق مقعدًا خشبيًا ذا قاعدة جلدية إلى الطرقة . وكان يتأهب للحاق بها ، وإذا بالفتاة تتحدث من جديد :

ـ المشكلة أنه سيخاف من العصافير .

ورأى النظرة الغاضبة التى رمت صاحبة الفندق بها الفتاة حين أدارت إليها عينيها . كانت نظرة خاطفة ، ولكنها حادة ، وقالت صاحبة الفندق :

ـ أحسن لكِ أن تلزمى الصمت .

والتفتت إليه بابتسامة ، فخفف إحساسه بالوحدة ، وشعر برغبة فى الكلام ، وسأل :

ـ ماهذا الذى تقوله ؟

وقالت الفتاة :

ـ إن عصافير ميتة تسقط فى الطُّرقة فى هذه الساعة .

وقالت صاحبة الفندق :

ـ كلام اخترعته .

وانحنت تعدل وضع غصن الزهور الصناعية على المائدة الصغيرة التى تتوسط الصالة .

كانت أصابعها ترتعش بعصبية .

وقالت الفتاة :

ـ اخترعته ؟ أنتِ نفسك كنست اثنين أمس الأول .

ونظرت إليها صاحبة الفندق بسخط . كان تعبيرها يدعو للرثاء ، وبدا أنها تريد أن توضح كل شىء لكيلا يظل فى المسألة شك ، قالت :

ـ الذى حدث ياسيدى هو أن الأولاد رموا عصفورين ميتين فى الطرقة لكى يغيظوها ، ثم قالوا لها إن طيوراً ميتة تسقط من السماء ، وهى تصدق كل مايقال لها .

وابتسم ، وبدا له هذا الشرح طريفاً ، وسر خاطره ، واستدار لينظر إلى الفتاة التى كانت تنظر إليه بوجل . كان الجراموفون قد توقف عن الغناء ، وانسحبت صاحبة الفندق إلى الغرفة الأخرى ، واتجه هو إلى الطرقة ، فسمع صوت الفتاة وهى تقول بنبرة منخفضة وفى إصرار :

ـ رأيتها تسقط بنفسى . صدقنى ، كل الناس رأوها .

وفهم سر تعلق الفتاة «بالجراموفون» وغضب صاحبة الفندق الشديد .

وقال بلطف :

ـ فعلاً .

ثم أضاف وهو يتحرك إلى الطرقة :

ـ أنا أيضاً رأيتها .

كان الجو فى الخارج ـ فى ظل أشجار اللوز ـ أقل حرارة ، ووضع المقعد لصق قائم الباب وألقى رأسه إلى الوراء وأخذ يفكر فى أُمه ، أمه الجالسة فى مقعد هزاز وهى تهش الدجاجات بمكنسة طويلة وقد تنبهت للمرة الأولى إلى أنه ليس بالبيت .

فى الأسبوع الماضى كان فى إمكانه أن يتصور أن حياته حبل أملس مستقيم ، مشدود أوله فجر الحرب الأهلية الأخيرة المُمطر الذى ولد فيه داخل أربعة جدران من الطين والخوص ، هى جدران إحدى المدارس الريفية ، وآخره هذا الصباح من شهر يونيو الذى أتم فيه ٢٢ عاماً من عمره، والذى اقتربت فيه أمه من هَمكِه (أى فِرَاشِه المُعلق) لتهدى له قبعة عليها بطاقة كتبت عليها : «إلى ابنى الحبيب فى عيد ميلاده » . وكان يحدث أحياناً ـ نتيجة للفراغ ـ أن تحن أُمُّه إلى المدرسة ، وإلى السبورة ، وإلى خريطة البلد المكتظ بفضلات الذباب ، وإلى الصف الطويل من القلل الفخارية المعلقة فى الحائط أسفل اسم كل طفل ، هناك لم يكن حر ، كانت قرية خضراء هادئة ، فيها دجاجات ذات أرجل طويلة رمادية كانت تعبر قاعة الدرس لتضع بيضها تحت دولاب ترشيح المياه . كانت أمه فى ذلك الوقت امرأة حزينة منطوية على نفسها ، وكانت تجلس عند الغروب لتتلقى نفحات النسيم الذى لطفته أشجار البن وتقول : «مانور أجمل بلد فى العالم» ثم تلتفت نحوه وتقول وهى تراه يكبر ويترعرع فى هَمَكِه المُعَلَّق : « حين تكبر ستدرك هذا» . ومع ذلك فإنه لم يدرك شيئاً ، لم يدرك شيئاً فى سن الخامسة

عشرة التى كان يبدو فيها أكبر من عمره الحقيقى ، شابًّا يتفجر بالصحة الوقحة الطائشة التى يسبغها الفراغ . وإلى أن بلغ العشرين لم يكن فى حياته شىء يميزها أكثر من مجرد تغيير وضع جسمه على الهَمَك ، ومع ذلك فإن الروماتيزم اضطر أمه فى ذلك الوقت إلى ترك المدرسة التى ظلت تديرها ١٨ عاماً، وترتب على ذلك أنهما انتقلا إلى بيت من حجرتين له حوش كبير ربَّت فيه أمه دجاجات رمادية الأرجل كتلك التى كانت تعبر قاعات الدرس .

وكانت العناية بالدجاج أول صلة له بالواقع ، وظلت صلته الوحيدة به حتى شهر يوليو ، الشهر الذى فكرت فيه أمه فى المعاش ، ورأت أن لدى ابنها قدراً من الكفاءة يكفى للقيام بإجراءاته ، وتعاون هو بصورة فعالة فى إعداد المستندات ، بل وجد الكياسة اللازمة لإقناع القسيس بزيادة ست سنوات إلى عمر أمه فى شهادة العماد (التى تقوم مقام شهادة الميلاد) لأن سنها الفعلى لم يكن يسمح لها بالخروج على المعاش . وزودته أمه يوم الخميس بآخر التعليمات ، كانت تعليمات مفصلة تفصيلاً دقيقاً بفضل خبرة أمه الطويلة فى مجال التعليم . وبدأ الرحلة إلى المدينة وفى جيبه اثنا عشر «بيزو» ولفة ملابس ، وملف الأوراق ، وفكرة بدائية جدًّا عن كلمة «المعاش» التى كان يفسرها على أنها مبلغ معين من النقود مطلوب أن تعطيه الحكومة لأمه لكى تربى خنازير .

وغفت عيناه فى شرفة الفندق واعترته دوخة بسبب الحر الشديد ، فلم يفكر فى خطورة وضعه ، لقد افترض أن مشاكله ستنتهى فى اليوم التالى بعودة القطار ، وكان شاغله الوحيد الآن هو انتظار حلول يوم الأحد لاستئناف الرحلة ونسيان هذه القرية ـ التى لايُطاق حرها ـ إلى الأبد .

وقبل الرابعة بقليل رأى فى المنام حلماً مزعجاً غير مريح ، وقال لنفسه فى

الحلم : إن من المؤسف أنه لم يحمل معه الهَمَك ، ثم تنبه إلى أنه نسى لفة الملابس وملف أوراق معاش أمه فى القطار ، واستيقظ فجأة وهو ينتفض ، وفَكَّرَ فى أمه ، واستحوذ عليه شعور الذعر من جديد .

وحين أعاد الشاب المقعد إلى الصالة كانت أنوار القرية قد أُضيئت ، لم يكن له عهد بالنور الكهربائى ؛ ولذلك دهش أشد الدهشة لرؤية مصابيح الفندق ، برغم أنها كانت ضعيفة وقذرة ، ثم تذكر بعد قليل أن أمه حدثته عن هذا .

واستمر فى جر مقعده حتى غرفة الطعام وهو يحاول تفادى الدبابير التى كانت تصطدم كالقذائف بالمرايا . وأكل بلا شهية ، وقد كدره وضوح موقفه، وشدة الحر ، ومرارة هذه الوحدة التى يعانى منها للمرة الأولى فى حياته . وبعد الساعة التاسعة قادوه إلى غرفة خشبية فى آخر البيت ، غُطيت جدرانها بصحف يومية ومجلات . وحين انتصف الليل كان غارقاً فى حلم مستنقعى محموم فى حين كان الأب «أنطونيو إيزابيل» على بُعد خمسة شوارع من الفندق يرقد على ظهره فى فراشه ويقول لنفسه : إن تجارب هذا اليوم تقوى دلالة العظة التى أعدها لقُداس السابعة من صباح الغد . كان الأب يستريح فى سرواله الصوفى الطويل الضيق وسط طنين البعوض ، وكان قبل الثانية عشرة بقليل قد عبر القرية ليؤدى شعائر القداس الأخير لامرأة فى الرمق الأخير ، وكان منفعلاً ثائر الأعصاب ، ووضع لوازم القداس قريباً من الفراش ورقد ليراجع العظة فى ذاكرته ، وظل على هذا الحال عدة ساعات وهو ممدد على ظهره إلى أن سمع صوت كروان الفجر ، فعرف الساعة ، وحاول النهوض ، ونصب قامته بصعوبة ، وداس بدون أن يدرى ـ على

الجرس الذى يُستخدم لإعلان التناول الأخير فى القداس ، فسقط منكفئاً على أرض الغرفة الجافة الصلدة .

وما إن أفاق إلى نفسه حتى أحس بوخز شديد فى ضلوعه ، وشعر فى هذه اللحظة بوزنه الكلى : مجموع وزن جسمه وأوزاره وسنه ، وشعر على خده بصلابة الأرض المبلطة ، التى كثيراً ما استخدمها ، وهو يعد مواعظه ، لتكوين فكرة دقيقة عن الطريق المؤدى إلى جهنم . وتمتم فى فزع : «سيد ى المسيح» ! وهو يقول لنفسه : «من المؤكد أننى لن أستطيع الوقوف على قدمى بعد الآن» .

ولم يدر كم من الوقت مضى عليه وهو منبطح على الأرض بدون أن يفكر فى شىء ، وبدون أن يسأل الله أن يخفف عنه سكرات الموت ، وبدا له وكأنه فى الحقيقة قد أسلم الروح مدى لحظة ، ولكنه استرد وعيه فلم يشعر بألم ولابخوف ، ورأى شعاعاً خافتًا أسفل الباب ، وسمع صياح الديكة يأتيه من بعيد ، وتنبه إلى أنه على قيد الحياة ، وأنه يذكر ألفاظَ العِظة بحذافيرها .

وحين رفع مزلاج الباب ورأى نور الصباح ، لم يعد يشعر بألم ، بل خُيل إليه أن الواقعة حررته من شيخوخته . ونفذت كل طيبة القرية وكل آثامها وكل آلامها إلى صميم فؤاده حين استنشق أول نفس من هذا الجو الذى كان أشبه برطوبة زرقاء تعمرها الديكة . ثم أجال البصر حوله كما لو كان يريد التصالح مع وحدته ، ورأى فى ظلمة الفجر الهادئة ثلاثة عصافير ميتة فى شرفة البيت .

وخلال تسع دقائق تأمل الجثث الثلاث وهو يقول لنفسه ، وفقاً للعظة التى أعدها : إن هذا الموت الجماعى للعصافير محتاج إلى كفارة . وسار حتى

الطرف الآخر من الشرفة والتقط العصافير الثلاثة الميتة وعاد إلى الزير ورفع غطاءه وألقاها الواحد بعد الآخر فى الماء الأخضر الراكد بدون أن يعرف بالضبط لِمَ فعل ذلك . وقال لنفسه : ثلاث ، وثلاث ، يعنى نصف دستة فى أسبوع . وبرقت بارقة رائعة من الوعى فى نفسه ، ففهم أن أعظم يوم فى حياته قد بدأ .

وبدأ الحر فى السابعة ، وكان الزبون الوحيد فى الفندق ينتظر إفطاره ، ولم تكن فتاة الجراموفون قد نهضت من فراشها بعد . واقتربت صاحبة الفندق وبدا عليها فى هذه اللحظة كما لو كانت دقات ساعة الحائط السبع تدق داخل بطنها المتكور . وقالت المرأة برثاء متأخر :

ـ مؤسفٌ أن القطار قد فاتك .

ثم قدمت له وجبة الإفطار : قهوة باللبن الحليب ، وبيضة مقلية ، وبعض أصابع من الموز الأخضر .

وحاول أن يأكل ، ولكنه لم يشعر بجوع ، وشعر بالانزعاج ؛ لأن الجو بدأ يسخن ، كانت قطرات العرق تسيل غزيرة من جسمه ، وأحس باختناقٍ . نومُه لم يكن مريحاً ، وقد نام بملابسه وهو يشعر بمبادىء حُمّى . وتملكه الذعر من جديد ، وتذكر أمه فى اللحظة التى اقتربت فيها صاحبة الفندق لتجمع الصحاف وقد ملأها الحبور . كانت ترتدى ثوباً جديداً رسمت عليه زهور خضراء كبيرة ، وجعله هذا الثوب يتذكر أن اليوم يوم أحد . وسألها :

ـ هل يُقام قداسٌ فى هذا البلد ؟

وقالت المرأة

ـ أجل ، ولكنه كعدمه ؛ لأن أحداً لايذهب إلى الكنيسة ، فقد رفضوا أن يرسلوا إلينا قسيساً جديداً .

ـ وما عيب القسيس الحالى ؟

ـ عيبه أنه كاد يبلغ المائة ، وأنه نصف مخبول .

قالتها وظلت واقفة وقد استغرقها التفكير ، والصحاف كلها فى إحدى يديها .

ثم أضافت :

ـ منذ مدة أقسمَ وهو على المنبر أنه رأى الشيطان ، ومنذ ذلك الوقت لم يذهب أحد إلى القداس .

وذهب الشاب إلى الكنيسة ، أولاً لشعوره باليأس ، ثم من باب الفضول؛ ليرى شخصاً بلغ المائة ، ولفت نظره أن القرية كالميتة ، وأن شوارعها متربة لاتنتهى ، وأن بيوتها مظلمة ومصنوعة من الخشب ، وأن أسقفها من الزنك ، وأنها تبدو كالمهجورة ، هذا هو منظر القرية يوم الأحد : شوارع بدون أعشاب ، وبيوت بأسلاك ، وسماء عميقة بديعة تحتها قيظ خانق . وقال لنفسه : إنه ليس فى هذه القرية أى شىء يسمح للمرء بأن يفرق بين يوم الأحد وأى يوم آخر . وبينما هو يسير فى الشارع المهجور تذكر قول أمه : «كل الشوارع فى كل القرى تؤدى قطعاً إلى الكنيسة أو المدافن» ووصل فى هذه اللحظة إلى ميدان صغير مرصوف فيه مبنى مطلىّ بالجير ، وبرج ، وديك خشبى على قمته ساعة توقفت عند الرابعة وعشر دقائق .

وعبر الميدان بدون أن يسرع الخطو ، وصعد درجات الرواق الثلاث ،

ونفذت إلى أنفه على الفور رائحة عرق بشرى قديم ممتزجة برائحة البخور . ودخل إلى ظلام الكنيسة الدافىء ، كانت الكنيسة شبه خالية .

وكان الأب «أنطونيو إيزابيل» قد صعد لتوّه إلى المنبر ، وكان يتهيأ لإلقاء العظة حين رأى شابًّا يدخل وعلى رأسه قبعته (*) ورآه يتفقد الكنيسة التى تكاد تكون خالية بعينيه الواسعتين الهادئتين الشفافتين ، ورآه وهو يجلس فى الصف الأخير مطرق الرأس ، ويداه على ركبتيه ، وعرف أنه أجنبى عن القرية ، وقد جعلته السنوات التى تزيد على العشرين التى قضاها فى القرية قادراً على معرفة أى شخص من سكانها بمجرد الشم ؛ ولهذا عرف أن الشاب الذى وصل منذ قليل ليس من أهل القرية ، وبنظرة سريعة نفاذة اكتشف أنه إنسان انطوائى يغلب عليه الحزن ، وأن ملابسه متسخة وغير مكوية . وخطر له أنه لابد أن يكون قد نام بها منذ وقت طويل ، وخامره حياله شعور هو خليط من الاشمئزاز والشفقة ، ولكنه حين رآه يجلس أحس بعرفان غامر نحوه ، واستعد ليلقى من أجله أهم عظة قُدِّر له أن يلقيها فى حياته ، ودعا فى نفسه : أيها المسيح اجعله يتذكر أن يخلع قبعته لكيلا أُضطر إلى طرده من الكنيسة . وبدأ يلقى العظة ، كان يتحدث فى بداية الأمر بدون أن يدرى ما يقول ، بل إنه هو نفسه لم يكن يسمع مايقول ، الشىء الذى كان يسمعه بالكاد هو نغم محدد سيال يتدفق من نبع ساكن مستقر فى صدره منذ بداية العالم . كان لديه يقين غامض بأن الكلمات تنبثق منه دقيقة موفقة محددة فى الترتيب والمناسبة اللذين أرادهما ، وكان يشعر بأن بخاراً ساخناً يضغط على أحشائه ، ولكنه كان يعلم كذلك أن روحه كانت بريئة من الغرور ، وشعور المسرة الذى كان يملأ جوانحه لم يكن ناتجاً عن

(*) المفروض أن يخلع الرجال قبعاتهم ؛ احتراما فى القداس .

صلف ولاتمرد ولاعنجهية ، بل عن سعادة روحية ، سعادة خالصة بالسيد المسيح .

كانت السنيورا «ربيكا» فى غرفة نومها تشعر بأنه سيغشى عليها ؛ لأن صهد الشمس سيصبح بين لحظة وأخرى فوق ماتحتمل ، ولولا أنها كانت تشعر بالارتباط بالقرية ـ لأنها تخاف خوفاً غامضاً من كل جديد ـ لوضعت كراكيبها فى صندوق ، ووضعت معها «نفتالين» وانطلقت تجوب العالم كما فعل جدها الأكبر فيما قيل لها ، ولكنها كانت تعرف فى قرارة نفسها أن مصيرها هو أن تموت فى القرية وسط دهاليز شقتها التى لا آخر لها ، وغرف النوم التسع التى يجب ـ فيما خطر لها ـ أن تستبدل بسلك نوافذها زجاجاً مقوى حين يخف الحر .

أجل . ستبقى فى هذه القرية ، هذا هو قرارها (وهو قرار اتخذته حين كانت ترتب ملابسها فى الدولاب) . وقررت أيضاً أن تكتب لابن عمها العزيز تطلب منه أن يرسل قسيساً شابًّا لكى تتمكن من التردد على الكنيسة من جديد ، وترتدى قبعتها ذات الزهور القطيفة الصغيرة ، وتحضر من جديد قداساً يُقام حسب الأصول ، وتستمع إلى خطبة وعظ لها معنى يخرج المرء منها بعبارة مفيدة ، وقالت لنفسها : إن غداً يوم الاثنين عندما بدأت تفكر للمرة الأخيرة فى الصيغة التى ستستهل بها خطابها إلى الأسقف (وهى صيغة كان الكولونيل «بويندیا» يعتبر أنها عابثة وغير مهذبة) إذا بـ «أرخنيدا» تفتح الباب المغطى بالسلك فجأة وتهتف :

ـ سيدتى ، يقولون إن القسيس أصابه مسٌّ من الجنون وهو يخطب على المنبر . وأدارت الأرملة صوب الباب وجهاً خريفيًّا تشيع فيه المرارة ، هو وجهها بكل ملامحه ، وقالت :

ـ هو مجنون من خمس سنوات على الأقل .

واستمرت ترتب ملابسها بعناية ، ثم أضافت :

ـ لابد أنه رأى الشيطان من جديد .

ـ لم يكن الشيطان هو من رأى هذه المرة .

وسألت السنيورا «ربيكا» بخشونة وعدم اكتراث :

ـ مَن إذن ؟

ـ يقول الآن إنه رأى « اليهودى التائه » !

وشعرت الأرملة بقشعريرة ، دوامة من الأفكار اختلطت فيها أسلاك نوافذها المحطمة ، والحر ، والعصافير الميتة ، والطاعون ، عصفت برأسها لدى سماع هذه الكلمات التى لم تتذكرها منذ عهد طفولتها البعيدة : «اليهودى التائه» ثم بدأت تتحرك وقد شحب وجهها ، وبردت أطرافها برودة الثلج ، نحو «أرخنيدا» التى كانت تتأملها فاغرة الفم ، وقالت بصوت خارج من أحشائها .

ـ صحيح ، الآن فهمت السبب فى موت العصافير !

واستبد بها الرعب فغطت رأسها بطرحة سوداء مشغولة ، وعبرت فى لمح البصر الطرقة الطويلة ، والصالة المكتظة ببعض الديكور ، وباب الشارع والشارعين اللذين يفصلان بيتها عن الكنيسة التى كان الأب «أنطونيو إيزابيل» يعظ فيها ، وقد تغير وجهه وهو يقول : « . . . أقسم لكم إننى رأيته . أقسم لكم إننى التقيت به فجر هذا اليوم لدى عودتى بعد أن مسحت بالزيت المقدس على زوجة « خوناس » النجار . أقسم لكم إن

وجهه كان ملطخاً كله بلعنات الرب ، وإنه ترك على الأرض وراءه سحابة من الرماد المتقد » .

وتوقفت كلمات القسيس وحلقت فى الفضاء ، وتنبه هو إلى أنه عاجز عن التحكم فى ارتعاش يديه ، وإلى أن جسده كله يرتجف ، وإلى أن خيطاً من العرق البارد ينزل بطول عموده الفقرى ، وخارت قواه ، وشعر برعدة ، وأحس بعطش وبألم شديد فى أمعائه ، وبأن فى حناياه صدى نغمٍ كنغم الأرغن العميق ، عندها أدرك الحقيقة .

ورأى أن فى الكنيسة قوماً ، وأن السنيورا « ربيكا » تتقدم فى صحن الكنيسة الرئيسى بهيئة مؤثرة وملفتة للنظر ، وذراعاها مفتوحتان ، ووجهها الذى ارتسمت عليه المرارة والجمود متجه إلى أعلى . وبصورة غامضة فهم الحقيقة ، بل وجد لديه من وضوح الرؤية ما جعله يدرك أن من الغرور أن يتصور أنه أتى بمعجزة ، وأسند يديه المرتعشتين على حافة المنبر الخشبى ، واستأنف عِظته بتواضع كبير وقال :

ـ ثم اقترب منى .

وسمع هذه المرة صوته مقنع النبرة جياشاً .

ـ وسار فى اتجاهى بعينين فى لون الزمرد ، وشعر أكرت ، ورائحة كرائحة التيس . ورفعت يدى لأُبكّته باسم الرب ، وقلت له : « مكانك . يوم الأحد لم يكن قط يوماً مناسباً لذبح حمل الضحية » .

وحين انتهى من وعظه كان الحر قد بدأ فى الانتشار ، هذا الحر الشديد الجامد الموقد ، حر هذا الشهر الذى لا ينسى ، شهر أغسطس ، ومع ذلك فإن الأب « أنطونيو إيزابيل » لم يشعر بالحر ، كان يعرف أن القرية وراء ظهره

عادت من جديد ساجدة خاشعة من أثر خطبته ، ومع ذلك لم يطرب فؤاده، كما لم يثلج صدره كونه سيشرب بعد قليل شيئاً من النبيذ يلطف به حنجرته الموجوعة ، كان يشعر بالقصور وعدم الارتياح والارتباك ، وبأنه ليس فى حالة تسمح له بالتركيز فى لحظة الفداء الدقيقة فى نهاية القداس . لقد عانى من نفس الحالة منذ فترة ، ولكن سرحانه الآن مختلف ، فإن فكره مستغرق فى نوبة من القلق المحدد ؛ لأنه ـ للمرة الأولى فى حياته ـ عرف طعم الكبرياء ، وشعر بأن الكبْر ـ على نحو ما تصوره وما عرّفه فى خطبه ومواعظه ـ شىء شديد الوطأة كالعطش . وأقفل بيت القربان بحركة عنيفة ونادى .

ـ « بيتاجوراس » .

واقترب مساعده ـ وهو طفل حليق الرأس ، لامِعُه ، اتخذه الأب « أنطونيو إيزابيل » ابناً بالمعمودية ، وكان هو الذى سماه بهذا الاسم ـ من المذبح ـ وقال له القسيس :

ـ اجمع الصدقات .

ورمش الطفل بعينيه واستدار دورة كاملة ، ثم قال بصوت لا يكاد يسمع :

ـ لا أدرى أين طبق الصدقات ؟ .

وهذا صحيح ، فمن شهور لم تُجمع الصدقة . وقال القسيس :

ـ ابحث إذن فى الغرفة الملحقة بالكنيسة عن كيس كبير واجمع أكبر مبلغ ممكن . وسأل الغلام :

ـ وماذا أقول لهم ؟

وتأمل الأب وهو غارق فى أفكاره رأس الطفل الحليق الأزرق ، ومفاصل عظامه البارزة ، وكان هو الذى رمش الآن بعينيه :

ـ قل لهم إن صدقتهم ستخصص لطرد « اليهودى التائه » .

قال هذا وشعر أنه حين قاله حمل عبئاً كبيراً على قلبه ، لم يكن يسمع فى هذه اللحظة سوى صوت الشموع وهى تحترق فى المعبد الصامت ، وصوت تنفسه اللاهث الثقيل ، ثم وضع يده على كتف الطفل الذى كان ينظر إليه بعينيه المستديرتين الخائفتين وقال :

ـ اجمع النقود ثم أعطها للفتى الذى كان وحده فى البداية ، وقل له إن الأب يرسله له لكى يشترى لنفسه قبعة جديدة .


زهـور صناعيـة
1993

زهـــــور صناعـــــية

لبست « مينا » ثوبها الذى لا أكمام له وهى تتحسس طريقها فى ظلمة الفجر ، وكانت فى الليلة السابقة قد علقته بالقرب من الفراش ، وأخذت تقلب فى الحقيبة بحثاً عن الكُمَّيْن المستعارين فلم تجدهما ، وقالت لنفسها : لعَلَّهما معلقان فى أحد المسامير المثبتة فى الجدران أو خلف الأبواب ، وبحثت عنهما محاولة ألاَّ تحدث صوتاً لكيلا توقظ جدتها المكفوفة التى كانت تقيم معها في نفس الغرفة ، ولكنها حين تعودت عيناها على الظلمة اكتشفت أن الجدة كانت قد نهضت وذهبت إلى المطبخ لتسألها عن الكُمَّيْن وقالت الجدة الضريرة :

ـ هما فى الحمام . لقد غسلتهما بعد ظهر أمس ، وكان الكُمَّان فعلاً فى الحمام ، وكانا معلقين على سلك بمشبكين من الخشب ، ولكنهما كانا مبتلين ، وعادت « مينا » إلى المطبخ ، ووضعت الكمين على حجارة المدفأة ، وكانت جدتها الضريرة أمامها تحرك فى القهوة وحدقتاها المثبتتان مصوبتان إلى جدار الغرفة المنخفض المصنوع من الطوب ، والذى وُضِعَت عليه أُصص زُرِعَت فيها أعشاب طبية . وقالت « مينا » :

ـ أرجوك يا جَدَّة ألا تقربى أشيائى ، فالشمس فى هذه الأيام لا يمكن الاعتماد عليها .

وحركت الجدة الضريرة وجهها نحو الصوت وقالت :

ـ نسيت أن اليوم هو أول يوم جمعة فى الشهر ، وأنه يوم القداس . وبعد أن تحققت بشمة عميقة من أن القهوة جاهزة سحبت الوعاء الفخارى من الموقد وقالت :

ـ ضعى ورقة أسفل الكمين لئلا يتسخا من حجارة المدفأة .

ومرت «مينا» بأصبعها على حجارة المدفأة فوجدتها متسخة بالفعل ، ولكن بطبقة من الهباب المتجمد ، لايحتمل أن توسخ الكمين ؛ إذْ لن يحتكا بشدة بالحجارة ، ولكنها قالت :

ـ إذا اتسخ الكمان فأنتِ المسئولة . وسكبت الجدة الضريرة لنفسها فنجاناً من القهوة ، ثم قالت وهى تجر مقعداً إلى ناحية الطرقة :

ـ أنتِ غاضبة ، وتناول القربان والمرء غاضب حرام .

وجلست لاحتساء القهوة أمام شجر الورد فى الحوش ، وحين سمعت «مينا» صوت ناقوس الكنيسة وهو يدق دقته الثالثة التى تدعو الناس إلى القداس التقطت الكُمين من على ظهر المدفأة . كانا لايزالان مبتلين ، ولكنها لبستهما بالرغم من ذلك ، فإن القسيس «انخيل» لن يقبل مناولتها قطعة الخبز المقدس التى تمثل لحم المسيح ، وجرعة النبيذ المقدس التى تمثل دمه وهى ترتدى ثوباً بذراعين عاريتين . ولم تغسل «مينا» وجهها ، وأزالت بفوطة بقايا أحمر الشفاه من شفتيها ، وأخذت من الغرفة كتاب الصلوات

والطرحة وخرجت إلى الشارع ، ولكنها عادت إلى البيت بعد ربع ساعة . وقالت الجدة الضريرة وهى جالسة أمام شجر الورد فى الحوش :

ـ ستصلين إلى الكنيسة بعد تلاوة الإنجيل .

وتوجهت «مينا» رأساً إلى المرحاض وقالت :

ـ لن أستطيع الذهاب للقداس . الكُمان مبتلان ، وثوبى كله غير مكوى .

وشعرت بأن نظرة فاحصة تلاحقها .

قالت الجدة الضريرة :

ـ أول جمعة من الشهر وتتخلفين عن القداس ؟

وحين عادت «مينا» من «المرحاض» سكبت لنفسها فنجاناً من القهوة وجلست إلى جوار جدتها الضريرة وهى تستند إلى أحد قائمى الباب المصنوعين من الجير ، ولكنها عافت القهوة وتمتمت حانقة وفى حلقها غصة :

ـ كله منك .

وصاحت الجدة الضريرة :

ـ أنت تبكين !

وقامت ووضعت الرشاشة إلى جوار أصص الزهور وخرجت إلى الحوش وهى تردد :

ـ أنت تبكين !

ووضعت «مينا» الفنجان على الأرض ثم نهضت وهى تقول :

ـ من الغيظ .

وأضافت وهى تمر غير بعيد عن الجدة :

ـ يجب أن تعترفى بدورك فى هذه الفعلة للقسيس لكى يغفر لك ذنبك ، أنت التى حرمتنى من تناول القربان فى هذا اليوم المقدس .

وظلت الجدة فى مكانها بدون حركة حتى أغلقت «مينا» باب غرفة النوم ، ثم سارت حتى نهاية الطرقة ، وانحنت وظلت تتحسس بيديها إلى أن عثرت فى الأرض على الفنجان الذى تركته حفيدتها بدون أن تمسه ، وبينما كانت تفرغ مافيه من جديد فى وعاء القهوة غمغمت لنفسها :

ـ الله يعلم أنى مرتاحة الضمير . وخرجت أم «مينا» من غرفة النوم وسألتها :

ـ مع من تتحدثين ؟

وقالت الجدة الضريرة :

ـ لا أتحدث مع أحد ، وقد قلت لك من قبل إنَّ عقلى قد خف .

دخلت «مينا» غرفتها وأغلقت الباب على نفسها .

وفكت أزرار «بلوزتها» ، وأخرجت ثلاثة مفاتيح كانت مشبوكة فيها بدبوس مشبك ، وفتحت بأحدها درجاً داخليًّا بالدولاب وأخرجت منه صندوقاً خشبياً صغيراً فتحته بالمفتاح الآخر . كان فى داخل الصندوق

مجموعة من الخطابات ورقها ملون ملفوفة فى رزمة وحولها حلقة من «الاستيك» . ودست «مينا» هذه الخطابات داخل بلوزتها وأعادت الصندوق إلى مكانه وقفلت درج الدولاب بالمفتاح ، ثم ذهبت إلى «المرحاض» وألقت الرزمة فى قاعه .

وقالت أمها :

ـ كنت أحسب أنك فى الكنيسة .

وتدخلت الجدة الضريرة :

ـ هى لم تتمكن من الذهاب إلى القداس ، كانت قد نسيت أن اليوم هو أول جمعة فى الشهر فغسلت الكمين عصر أمس .

وغمغمت «مينا» :

ـ وهما لايزالان مبتلين .

قالت الجدة :

ـ عملك يا «مينا» كان مرهقاً هذه الأيام .

فردت «مينا» :

ـ علىَّ أن أسلم مائة وخمسين «دستة» من الورد فى عيد القيامة .

واشتد صهد الشمس والساعة لم تبلغ السابعة صباحاً ، وأحضرت «مينا» إلى الصالة ـ مشغل الورود الصناعية ـ سبتاً مملوءاً بأوراق ممَّا يُصنع منه تويج الورد ، وأسلاك ، وتشكيلة من الورق المطاط ، ومقصين ، و«شلة» خيط ،

وإناء صمغ ، وبعدها بلحظة حضرت «تريندادا» وتحت ذراعها علبة من الكرتون ، وسألت «مينا» لماذا لم تذهب إلى القداس ؟

فردَّت «مينا» :

ـ لم يكن عندى « كُمَّان » لثوبى .

قالت «تريندادا» :

ـ كان بوسعك أن تستعيرى كُمين من أى واحدة .

وجرَّت كرسيًّا لتجلس إلى جوار سلة أوراق الورد التويجية .

وقالت «مينا» :

ـ كان الوقت قد تأخر .

وانتهت من صنع وردة ، ثم قربت السلة لتجعد بالمقص أوراق الورد ، ووضعت «تريندادا» العلبة الكرتون على الأرض وانكبت على العمل .

ولاحظت «مينا» العلبة فسألت صديقتها :

ـ اشتريت حذاء ؟

فأجابت «تريندادا» :

ـ بل هى فئران ميتة .

ولما كانت «تريندادا» متخصصة فى تجعيد ورق الورد عكفت «مينا» على صنع سيقان من السلك للورود كانت تغطيها بأوراق خضراء ، وظلت الفتاتان تعملان فى صمت بدون أن تتنبها إلى أن أشعة الشمس كانت تتقدم

فى الصالة المزينة بصور لمناظر رعوية وصور عائلية . وحين انتهت «مينا» من إعداد سيقان الورود تحولت إلى «تريندادا» بوجه مستغرق فى ملكوت لا مادى . وكانت «تريندادا» تجعد أوراق الورد بمهارة تثير الإعجاب ولاتحرك إلا أطراف أصابعها بحركات لاتكاد تُحَس وساقاها مضمومتان بشدة . ولاحظت «مينا» حذاء صديقتها الرجالى ، وزاغت «تريندادا» من نظرتها بدون أن ترفع رأسها من عملها واكتفت بسحب قدميها إلى الوراء ، ثم توقفت عن العمل وسألت صديقتها :

ـ ما الأخبار ؟

ومالت «مينا» ناحيتها وهمست :

ـ ذهب .

وأسقطت «تريندادا» المقص فى حجرها وسألت :

ـ أهذا ممكن ؟

فرددت «مينا» :

ـ ذهب .

ونظرت إليها «تريندادا» بدون أن تطرف عيناها ، وارتسم بين حاجبيها المفقودين خط أَسى . سألت :

ـ ماذا ستفعلين الآن ؟

وأجابت «مينا» بدون أن يرتجف صوتها :

ـ لاشىء .

وخرجت «ترينداد» قبل العاشرة .

وسرى عن «مينا» بعد أن أفضت بسرها إلى صديقتها ، وطلبت منها أن تتمهل لحظة ريثما تلقى بالفئران الميتة فى المرحاض ، وكانت الجدة الضريرة تقلم أشجار الورد ، وقالت لها «مينا» وهى تمر أمامها :

ـ أراهن أنك لاتستطعين أن تخمنى ما فى هذه العلبة ، وهزت الفئران فى العلبة .

واستمعت الجدة الضريرة إلى الصوت وقالت :

ـ هزيها مرة أخرى .

وكررت «مينا» الحركة ، ولكن الجدة لم تتمكن من اكتشاف مابداخل العلبة حتى بعد أن استمعت إلى الصوت مرة ثالثة ، وقد وضعت سبابتها على شحمة أذنها ، فقالت «مينا» :

ـ إنها الفئران التى وقعت ليلة أمس فى مصيدة الكنيسة .

وحين عادت «مينا» من المرحاض مرت أمام الجدة بدون أن تتكلم ، ولكن الضريرة تبعتها ، وحين وصلت إلى الصالة كانت «مينا» تجلس وحدها بالقرب من النافذة الموصدة لتنتهى من صنع الورود الصناعية .

قالت الجدة الضريرة :

ـ «مينا» ، إذا أردت أن تسعدى فى حياتك فلا تحكى أسرارك لغريب .

ورمقتها «مينا» بدون أن تنبس ببنت شفة . وجلست الجدة الضريرة فى الكرسى المواجه لها ، وأرادت أن تشترك فى العمل ، ولكن «مينا» نهتها عن ذلك . . وقالت الجدة :

ـ أنت عصبية .

فردت «مينا» :

ـ بسببك !

وسألتها الجدة :

ـ لماذا لم تذهبى إلى القداس ؟

فردت عليها :

ـ أنت أكثر من أى شخص آخر ـ تعرفين السبب .

وقالت الجدة :

ـ لو أن المسألة هى مسألة الكُمين فقط لما حملت نفسك مشقة الخروج من البيت . . ولكنك خرجت للقاء شخص كان فى انتظارك فى الطريق ، وقال لك هذا الشخص شيئاً كدّرك .

ومرت «مينا» بيدها أمام عينى الجدة وكأنها تمسح مرآة غير منظورة ، وقالت

ـ أنت تخمنين كل شىء !

وقالت الجدة :

ـ أنت ذهبت إلى المرحاض مرتين هذا الصباح ، ومن عادتك ألاَّ تذهبى إليه إلا مرة واحدة .

واستمرت «مينا» فى صنع الورود .

وسألت الجدة :

ـ أيمكنك أن تُرينى ما تحتفظين به فى درج «الدولاب» ؟

وثقت «مينا» الوردة التى كانت بيدها فى إطار النافذة بدون تعجُّل ، وأخذت المفاتيح الثلاثة من «بلوزتها» ووضعتها فى يد الجدة الضريرة وضمت أصابعها عليها وقالت :

ـ اذهبى لرؤيتها بعينى رأسك .

وتحسست الجدة المفاتيح الصغيرة بأطراف أصابعها ، وقالت :

ـ عينا رأسى لاتستطيعان النظر فى قاع المرحاض .

ورفعت «مينا» رأسها وأحست للتوِّ بأن الجدة الضريرة كانت تعلم أنها تنظر إليها .

وقالت :

ـ أَلْقِ بنفسك فى قاع المرحاض إذا كانت أشيائى تهمك إلى هذا الحد .

وتجاهلت الجدة هذه المقاطعة وقالت :

ـ أنت تكتبين دائماً فى الفراش حتى يطلع الفجر .

وقالت «مينا» :

ـ كيف يتأتى لكِ أن تعرفى إذا كُنتِ تطفئين النور بنفسك ؟

فقالت الجدة :

ـ أنت تضيئين «بطارية» اليد الصغيرة ، ومن طريقة تنفسك أستطيع أن أعرف ماذا تكتبين .

وبذلت «مينا» جهداً للسيطرة على أعصابها ، وقالت بدون أن ترفع رأسها :

ـ على فرض أن هذا صحيح ، ماوجه الغرابة فيه ؟

وأجابت الجدة الضريرة :

ـ ليس فيه غرابة . كل مافى الأمر أنه يفوت عليك قداس الجمعة الأولى من الشهر .

وجمعت «مينا» بكلتا يديها «شلة » الخيط والمقصين ، وحفنة من السيقان والورود التى لم تنته من صنعها ووضعت الكل فى السلة ونظرت إلى الجدة الضريرة وبادرتها :

ـ تريدين أن تعلمى ما الذى فعلته فى المرحاض ؟

وبقيت الجدة فى حالة ترقب إلى أن أجابت «مينا» على السؤال الذى طرحته .

ـ ذهبت لأتبرز .

ورمت الجدة المفاتيح الثلاثة الصغيرة فى السلة وتمتمت وهى تتجه إلى المطبخ :

ـ كان من الممكن أن يكون هذا عذراً مقبولاً ، وكان من الممكن أن أقتنع به لولا أن هذه هى المرة الأولى التى أسمع منك فيها كلمة بذيئة .

وجاءت أم «مينا» من الطرقة فى الاتجاه العكسى وهى محملة بأفرع شائكة وسألت :

ـ ما الحكاية ؟

وأجابت الجدة الضريرة :

ـ الحكاية ؟ الحكاية أنى مجنونة ، ولكنكم ـ فيما أظن ـ لن تفكروا فى إرسالى إلى مستشفى المجاذيب مالم أبدأ فى رمى الناس بالحجارة !

الأم الكبيرة



الأم الكبيـــــــــــرة

هذه هى يا منكرى العالم أجمع، القصة الحقيـقيــــة للأم الكبيرة ، الحاكمة المطلقة فى مملكة «ماكوندو» ، التى عاشت تأمر وتنهى فيها خلال ٩٢ عاماً، وماتت ميتة القديسين ذات يوم من أيام الثلاثاء من شهر سبتمبر الماضى، والتى حضر قداسة البابا جنازتها .

الآن وقد استعادت الأمة التى اهتزت فى أعماقها توازنها . . الآن وقد نصب زمارو قرية «سان خاتينتو»، ومهربو قرية «جواخيرا» ، وزارعو الأرز فى «سينو»، وعاهرات «جواكامايال» ، وسحرة «سيربى» ، وزارعو الموز ـ خيامهم للراحة بعد ليالى السهر المضنية قرب جثمانها . . الآن وقد استرد رئيس الجمهورية ووزراؤه وجميع من كانوا يمثلون سلطة الدولة وقوى مـا وراء الطبيعة ـ فى أجل وأعظم مناسبة جنائزية سجلها التاريخ هيئتهم الرزينة وعادوا للاضطلاع بمسئولياتهم ـ الآن وقد صعد قداسة البابا جسداً وروحاً إلى السماء ، وأصبح التنقل فى شوارع «ماكوندو» مستحيلاً بسبب الزجاجات الفارغة ، وأعقاب السجائر ، وعظام الحيوان التى ألقاها الطاعمون ، وعلب الطعام المحفوظ الفارغة ، والهلاهيل ، والفضلات الآدمية التى خلفتها جموع من حضروا لتشييع الجنازة ، الآن . . . حلت الساعة التى

يستطيع المرء فيها أن يضع كرسيًّا لصق باب الشارع ويبدأ من البداية سرد تفاصيل هذا الحدث القومى الجليل قبل أن يتسع وقت المؤرخين للحضور .

لقد طلبت الأم الكبيرة ، منذ أربعة عشر أسبوعاً ـ بعد ليال لاتنتهى من الكمّادات ، ولزقات الخردل ، وكاسات الحجامة ، وقد هدّت قواها حُمى الاحتضار ـ أن يجلسوها على كرسيها الهزاز القديم المصنوع من البوص لتدلى بوصيتها الأخيرة ، كان هذا هو الشىء الوحيد الذى بقى أن تنجزه قبل أن تموت ، لقد رتبت هذا الصباح شئون روحها مع الأب «أنطونيو إيزابيل» ، وبقى أن ترتب شئون ثروتها مع أولاد إخوتها وأخواتها التسعة الذين سيئُول إليهم كل إرثها ، والذين كانوا يتناوبون السهر قرب فراشها . وبقى القسيس ، الذى قارب سن المائة ، والذى كان يخاطب نفسه فى الغرفة : لقد احتاج الأمر إلى عشرة رجال للصعود به إلى غرفة نوم الأم الكبيرة ، وتقرر ألاَّ يبرح الغرفة لكيلا يضطروا إلى إنزاله ثم إلى الصعود به حين ينتهى الأجل وتحل اللحظة الأخيرة .

وذهب «نيكانور» ، أكبر أبناء الإخوة ، وكان عملاقاً كالوحش ، يرتدى رداءً كاكى اللون وينتعل حذاءً طويلاً ذا مهماز ، ويحمل تحت قميصه غدَّارة طويلة من عيار ٣٨ ليبحث عن موثق العقود لتسجيل الوصية . وشُلت حركة البيت الكبير الذى يتكون من طابقين ، والذى تفوح فيه رائحة العسل الأسود والزعتر البرى ، بغرفه المظلمة المكتظة بدواليب وكراكيب أجيال أربعة صارت تراباً ، منذ أسبوع فى انتظار هذه اللحظة . وكان عمال الأرض فى الطرقة الرئيسية الطويلة التى ثُبتت على جدرانها خطاطيف كان يُعلق عليها فى الأيام الخالية خنازير مسلوخة ، أو ظباء مذبوحة ليسيل دمها فى أحد أيام الأحد الناعسة من شهر أغسطس ، كانوا يرقدون متكومين على

زكائب الملح وأدوات الفلاحة فى انتظار صدور الأمر بوضع السروج على ظهور الخيل لإذاعة الخبر السيىء فى الضيعة الكبيرة . أما بقية العائلة فكانت فى الصالة، وكانت النساء شاحبات اللون من أثر الأَرَق والسهر ، وكنّ يرتدين ملابس الحداد الكامل الذى كان حصيلة عدد لايحصى من مرات الحداد المتراكمة .

لقد ضرب تحكم الأم الكبيرة حول ثروتها واسمها نطاقاً من الأسلاك الشائكة الشرعية ، فتزوج الأعمام من بنات إخوتهم وأخواتهم، تزوج أولاد العم من العمات ، وتزوج الإخوة من زوجات إخوتهم ، وتشكَّلَ من ذلك كله نسيج معقد كخيط العنكبوت من زواج الأقارب جعل الإنجاب يدور فى حلقة مفرغة . وكانت «مجدالينا» ـ أصغر أولاد إخوة وأخوات الأم الكبيرة ـ هى الوحيدة التى استطاعت أن تنجو من دائرة الأسرة . كانت تصيبها نوبات من الهذيان تفزعها ، فلجأت إلى الأب «أنطونيو إيزابيل» الذى طرد منها الأرواح الشريرة ، وحلقت شعرها من جذوره ، وأولت ظهرها لمفاخر الدنيا وغرورها ، وترهبت ودخلت الدير . وعلى هامش الأسرة الرسمية ، وعملاً بحق «التفخيذ» الذى يسمح للسيد بمواقعة عروس تابعه ليلة الزفاف ملأ رجال الأسرة المزارع والقرى والنجوع بذرية غير شرعية كانت تعيش وسط الخدم كربائب أو تابعين أو محظيين أو محميين للأم الكبيرة بدون أن يحمل أحد من هؤلاء اسم أبيه .

وأزال اقتراب ساعة الموت تعب الترقب ، وبرغم أن صوت الجدة المحتضرة التى اعتادت على تلقى عبارات الحمد والثناء لم يكن أعلى من صوت آلة أُرغن خفيض فى الغرفة المغلقة ، فإن صداه كان يتردد فى أبعد أركان الضيعة الشاسعة . لم يكن هناك أحد لا تعنيه هذه الميتة ، فقد كانت

الأم الكبيرة خلال القرن الحالى هى مركز الثقل فى «ماكوندو» ، شأنها فى ذلك شأن إخوتها وآبائها وآباء آبائها فى الماضى ممن سيطروا على مصائر البلد طوال قرنين من الزمان ، لقد أسست البلدة حول اسمهم ، ولم يكن هناك من يعرف مصدر ثروة الأسرة ولاحدودها ولاقيمتها الحقيقية ، ولكن الجميع تعودوا على اعتبار أن الأم الكبيرة كانت تملك المياه الجارية والمياه الساكنة ، وما هطل وماسيهطل من مطر ، والطرق القروية ، والبريد والتلغراف ، والسنين الكبيسة ، وحرارة الجو ، وأن لها ـ علاوة على ذلك ـ حقًّا وراثيًّا على الحياة والممتلكات . وكانت حين تجلس للاسترواح فى طراوة العصر بشرفة بيتها ، بكل وزن أحشائها وسلطتها ، على كرسيها الهزاز القديم المصنوع من البوص ، كانت تبدو فى الواقع غنية وقوية إلى أقصى حد . . أغنى وأقوى من أى امرأة فى العالم .

وما كان يخطر على بال أحد ـ بخلاف قبيلتها ، وباستثنائها هى حين كانت تخزها تنبؤات الأب «انطونيو إيزابيل» المخرف ـ أنها معرضة كسائر البشر للموت فى يوم من الأيام . وكانت على ثقة من أنها ستعيش أكثر من مائة عام كجدتها لأمها التى واجهت بمفردها داورية يقودها الكولونيل «أوريليانو بوينديا» وهى متحصنة فى مطبخ الضيعة . ولم تفهم الأم الكبيرة إلا فى شهر أبريل من هذا العام أن الله لن يمنحها شرف أن تقوم شخصيًّا ، فى معركة حرة ، بتصفية ثلة من الماسونيين الاتحاديين .

وفى الأسبوع الأول الذى أحست فيه الأم الكبيرة بالأوجاع عالجها طبيب الأسرة بكمادات خردل وجوارب من الصوف ، كان طبيباً بالوراثة من خريجى جامعة مونبلييه بفرنسا ، وكان مؤمناً بفلسفة تجعله يجحد تقدم العلم فى فرعه ، وقد منحته الأم الكبيرة امتيازاً يتمثل فى منع أى طبيب غيره من ممارسة

الطب فى «ماكوندو» . وكان هذا الطبيب ـ لفترة من الزمن ـ يطوف القرية على صهوة جواد ويزور مرضى المساء ، وقد وهبته الطبيعة ميزة الأبوة لكثير من الأطفال الآخرين ، ولكن داء المفاصل ألزمه الفراش ، وانتهى به الأمر إلى علاج مرضاه بدون زيارتهم ، عن طريق الافتراض والشائعات وكلام الناس والرسائل . وطلبته الأم الكبيرة فعبر الميدان بالبيجاما متكئاً على عكازين ، واستقر فى مخدعها ، وعندما أدرك أنها دخلت رحلة المرض الأخيرة ـ عند ذلك فقط ـ أمر بإحضار حقيبة تحتوى على «برطمانات» من الخزف عليها كتابات باللاتينية ، وعلى مدى ثلاثة أسابيع كان يعالجها من الداخل والخارج بأنواع شتى من اللزقات الأكاديمية ، وبتركيبات عجيبة من الجُلّاب يكونها بخلط الماء والصمغ وبعض العقاقير ، وأنواع اللبوس التى لاتخيب . ثم بدأ بعد ذلك يضع على مواضع الألم من جسمها صراصير محترقة يصعد منها الدخان ، ويضع علقات حول الكليتين ، واستمر فى هذا العلاج حتى فجر اليوم الذى وجد نفسه مضطرًّا فيه أن يختار ما بين استدعاء الحلاق لكى يفصدها أو الأب «أنطونيو إيزابيل» لكى يطرد منها الأرواح الشريرة .

وأرسل «نيكانور» لاستدعاء القسيس . وحمل عشرة من رجاله الأشداء القسيس من بيته الملحق بالكنيسة إلى غرفة نوم الأم الكبيرة ، وهو جالس على كرسيه الهزاز ذى الصرير ، المصنوع من البوص تحت المظلة المعطنة التى كان يستعملها فى المناسبات المهمة . وكان جرس التناول الأخير فى الكنيسة فى ذلك الصباح الباكر الدافىء من شهر سبتمبر هو الإشارة التى عرف سكان قرية «ماكوندو» منها بالوفاة . وحين طلعت الشمس كان المنظر فى الميدان الصغير المقابل لبيت الأم الكبيرة أشبه بعيد ريفى .

كان منظراً يُذكر بالزمن الماضى ، كانت الأم الكبيرة إلى أن بلغت السبعين من عمرها تحتفل بعيد ميلادها بإقامة احتفالات كانت أطول احتفالات يذكرها الناس وأكثرها صخباً . كانت «دمجانات» الخمر تحت تصرف كل شارب ، وكانت الأبقار تُذبح فى الميدان العمومى . وكانت فرقة موسيقية يجلس أفرادها على مائدة كبيرة تعزف الموسيقا بلا انقطاع ثلاثة أيام تباعاً . وتحت أشجار اللوز المتربة التى عسكرت تحتها قوات الكولونيل «أوريليانو بوينديا» فى الأسابيع الأولى من هذا القرن كانت تنصب موائد حافلة بكل ما هو شهى من المأكولات وأنواع الشراب ، كان هناك شراب «المازاتو» المصنوع من نقيع الأرز والذرة ، والمحلى بالسكر وعصير الفواكه ، وفطائر الذرة المحشوة باللحم ، والـ «مورثياس» أو أمعاء الخنزير المحشوة بالدم المطبوخ ، والمضاف إليها بصل وتوابل ، وأنواع مختلفة من اللحوم المشوية ، وفطائر اللحم العادية والسجق ، والـ «كاريبانيولاس»، والـ «بانديوكا» ، وهو نوع من أنواع الخبز يُصنع من البطاطا ، والـ «مجنباس» المصنوعة من البن والدقيق ، والـ «بونويلوس» وهى فاكهة مقلية بالعجين ، والـ «أربويلاس» وهى عجة مصنوعة بدقيق الذرة ، والـ «هوخالدرس» وهى نوع من البقلاوة تُخبز عجينتها فى الفرن ، والـ «لونجانيذاس» وهى قطع من الأمعاء تحشى بلحم الخنزير وتُتَبَّل بالمخلل ، والـ «موندونجوس» وهى كرشة الحيوان وحواشيه المقلية ، وكعك الـ «كوكاراس» المصنوع من جوز الهند المبشور ، والـ «جوارابو» وهو شراب مخمر من قصب السكر ، وأصناف شتى من لحوم الطير والمتبلات . كل هذا وسط زينات كثيرة ، ومباريات لصراع الديكة ، وألعاب اليانصيب ذات الجوائز، ووسط الجمهور المنتشر الجذلان كان الباعة يبيعون صوراً وقمصاناً عليها صورة الأم الكبيرة .

وكانت الاحتفالات تبدأ قبل تاريخ ميلاد الأم الكبيرة بيومين وتنتهى فى يوم ميلادها . وفى مساء ذلك اليوم كانت تُطلق صواريخ الألعاب النارية ، ويُقام حفل راقص عائلى فى بيت الأم الكبيرة ، وكان المدعوون من صفوة القوم إلى هذا الحفل ومن أفراد الأسرة الشرعيين يملئون بطونهم بكل ما لذَّ وطاب، وكان الابناء غير الشرعيين يطوفون عليهم ويخدمونهم . وكان المدعوون والأبناء الشرعيون يرقصون على أنغام «بيانولا» قديمة ركبت عليها أشرطة لأشهر الأغانى والموسيقا الحديثة . وكانت الأم الكبيرة تترأس الحفل من آخر الصالون وهى جالسة على كنبة ذات مخدة من الكتان ، وكانت تعطى تعليماتها بإيماءات غير ملحوظة من يدها اليمنى التى تزين الخواتم كل أصبع من أصابعها . وكانت تقرر فى هذه الليلة زيجات العام التالى بالتواطؤ مع المحبين أحياناً ، ولكن ـ فى كل الحالات تقريباً ـ بدون أن تستشير أحداً غير إلهامها الخاص . وكانت تختتم الحفل بأن تخرج إلى الشرفة التى تزينها الأكاليل ومصابيح الورق الملون وتنثر قطعاً من النقود المعدنية على جمهور المحتفلين خارج البيت .

وقد انقطعت هذه العادة أولاً بسبب الحداد على بعض أفراد الأسرة الذين ماتوا واحدًا بعد الآخر ، ثم بسبب المخاوف السياسية التى خيمت على البلد فى الحقبة الأخيرة . ولم تحضر الأجيال الجديدة هذه الاحتفالات الفاخرة ، ولم تعرفها إلا بالسماع ، ولم يسعدها الحظ برؤية الأم الكبيرة فى القداس وأحد رجال السلطة المدنية الكبار يُهَوِّى لها بالمروحة . وقد أعفتها الكنيسة من واجب الركوع حتى فى لحظة رفع كأس القربان ـ وهو امتياز لم يتمتع به غيرها ـ لكيلا تفسد ثنيات ثيابها المستوردة من هولندا والـ «جوبون» المنشى المصنوع من قماش «التافتاه» . ويروى المسنون من ذكريات شبابهم الحالم

كيف فرشت الأرض بالحصر على مسافة مائتى متر ، هى المسافة التى تفصل بيت الأسرة العريقة عن الكنيسة ، فى عصر ذلك اليوم الذى ذهبت فيه «ماريا ديلروزاريو كاستنييدا أى مونتيرو» إليها لحضور جنازة أبيها ، ثم عادت من الشارع المفروش بالحصير وقد تبوأت مركزها الجديد ، بكل إشراقه وجلاله ، مركز الأم الكبيرة ولمّا تتجاوز الثانية والعشرين . ولم تكن هذه الرؤيا التى تبدو وكأنها ترجع إلى العصور الوسطى تتعلق حين ذاك بماضى الأسرة وحسب ، بل كانت تتعلق بماضى الأمة أيضاً ، على أن صورة الأم الكبيرة أصبحت بمرور الأيام أقل وضوحاً وأكثر بعدًا . ولم تكن الأم الكبيرة تظهر بشخصها إلاَّ لماماً فى شرفة بيتها التى كانت زهور الجيرانيوم تجعل جوها خانقاً ساعة العصر . وتلاشت الأم الكبيرة فى أسطورتها ، وأصبحت تمارس سلطتها عن طريق «نيكانور» . وكان هناك وعد ضمنى من الورثة صاغته العادة يقضى بأن تُقام فى اليوم الذى تختم فيه الأم الكبيرة وصيتها أفراح عامة صاخبة ثلاث ليال مستمرة ، ومع ذلك فإن الأم الكبيرة قررت ألاَّ تعبّر بالوصية عن إرادتها الأخيرة إلا قبل وفاتها بساعات ، ولم يكن أحد يظن جادًّا أن من الممكن أن تموت الأم الكبيرة كسائر البشر . على أن سكان قرية «ماكوندو» الذين أيقظتهم دقات جرس التناول فى الكنيسة لمن أوشك على الموت فى ذلك الصباح تيقنوا من أن الأم الكبيرة قابلة للموت ، بل إنها ـ أكثر من ذلك ـ فى طريقها إلى العالم الآخر .

لقد حان أجلها ، ما فى ذلك من شك . كانت ترقد على فراشها الكتانى ، وقد دُهنت حتى أذنيها بسائل يُستخرج من نبات الصبر ، تحت مظلّة من قماش الكريب المترب . ولم يكن الناظر إليها يرى حياة فى تنفس صدرها الذى لايكاد يبين إلا بصعوبة . إن الأم الكبيرة ، التى كانت حتى

سن الخمسين ترفض الخُطَّاب المدلهين الذين كانوا يتقدمون لطلب يدها ، والتى حبتها الطبيعة بثديين كانا يكفيان وحدهما لإرضاع كل وليد من بنى جنسها ـ كانت تحتضر وهى عذراء لم تتزوج ولم تنجب . وعندما أراد الأب «أنطونيو إيزابيل» أن يمسح راحتها بالزيت المقدس كان محتاجاً إلى من يسانده على فتح يدها ، فقد قبضت الأم الكبيرة يديها بقوة منذ بدء احتضارها . واستعان الأب ببنات إخوتها فلم يُجْدِ عونهن شيئاً . وخلال هذه العملية ، وللمرة الأولى منذ أسبوع ، ضمت المحتضرة يدها المرصعة بالأحجار الكريمة إلى صدرها وركزت فى بنات إخوتها نظرة لا لون فيها وقالت : «لصوص» ، ثم رأت الأب «أنطونيو إيزابيل» فى لبس القسيس ، ومساعده الطفل الذى يمسك الأدوات المقدسة ، وتمتمت باقتناع مطمئن : «حانت ساعة موتى» ثم خلعت الخاتم الذى رُكبت فيه الماسة الكبرى وأعطته للراهبة الصغيرة «مجدلينا» أصغر ورثتها . وكان هذا آخر العهد بتقليد من التقاليد القديمة ، فقد تنازلت «مجدلينا» عن كل إرثها للكنيسة .

وعند الفجر طلبت الأم الكبيرة أن تترك وحدها مع «نيكانور» لتملى عليه آخر تعليماتها . وظلت نصف ساعة وبتحكم كامل فى ملكاتها تستعلم منه عن سير الأمور ، وأعطت توجيهات خاصة بشأن كيفية التصرف فى جثتها ، ثم بشأن من يحضرون للسهر بجوارها ، وقالت له : «افتح عينيك ، اقفل بالمفتاح على كل شىء ذى قيمة ، فكثير من الناس يحضرون للسهر بجوار الميت بغرض السرقة » وبعد ذلك ، حين انفردت بالقسيس ، اعترفت بذنوبها اعترافاً كاملاً وصادقاً وتفصيليًّا ، ثم تناولت القربان المقدس بحضور أبناء إخوتها ، وطلبت أن يجلسوها على الكرسى الهزاز لكى تملى وصيتها .

كان «نيكانور» قد أعد قائمة دقيقة بأموالها فى ٢٤ صفحة مكتوبة بخط واضح جدًّا ،وأخذت الأم الكبيرة تملى على الموثق بيان أملاكها ، وهى تتنفس تنفساً هادئاً بحضور الطبيب والأب «أنطونيو إيزابيل» كشاهدين ، أملاكها التى هى المصدر الوحيد لعظمتها وسلطانها . كانت تركتها المادية ـ إذا نظر إليها على حقيقتها الفعلية ـ تنحصر فى ثلاث إقطاعيات مُنحت لأسرتها بمرسوم ملكى فى عهد الاستعمار الإسبانى وتجمعت مع مرور الوقت، ونتيجة لزيجات مصلحة معقدة ، تحت سلطتها . وفى هذه الأرض العاطلة ، غير معينة الحدود ، التى تدخل فى إقليم خمس بلديات ، والتى لم تبذر فيها قط حبة واحدة لحساب الملاك ، كانت تعيش ٣٥٢ أسرة من الزُراع ، وكانت الأم الكبيرة تقوم فى كل سنة ، عشية يوم مولدها ، بالإجراء الوحيد الذى يؤكد سلطتها كمالكة ، والذى كان يحول دون عودة الأرض إلى ملكية الدولة ، وهو تحصيل الإيجارات ، كانت تتلقى شخصيًّا ـ وهى جالسة فى الطرقة الداخلية لبيتها ـ قيمة حق السكنى على أرضها ، كما كان يتلقاها أسلافها مدى قرن من الزمان ، من أسلاف الزرّاع . وبعد ثلاثة أيام من تحصيل الإيجارات كانت ساحة البيت تمتلىء بالخنازير والديوك الرومية والدجاج وبالعشور وبواكير الفاكهة من الشجر المزروع فى الأرض ، التى كان يحضرها الزراع معهم كهدية ، والواقع أن هذا كان المحصول الوحيد الذى كانت تجنيه الأسرة من أراض كانت مواتاً منذ البداية ، تقدر للوهلة الأولى بمائة ألف هكتار (*) .

ومع ذلك أرادت الظروف التاريخية أن تظهر وتزدهر داخل هذه الحدود قرى مقاطعة «ماكوندو» الست ، بما فى ذلك عاصمة المقاطعة ، وألاَّ يكـون

(*) الهكتار ١٠ آلاف متر مربع .

لساكن أى بيت من البيوت حق يتجاوز ملكية المواد التى صُنع منها البناء ، أما الأرض فكانت مملوكة للأم الكبيرة ، وإليها كان يُدفع الإيجار ، كما أن الحكومة كان عليها أن تدفع إيجاراً عن استخدام الناس للشوارع .

وحول القرى الصغيرة كان يحوم عدد لم يحصه أحد قط من الحيوانات التى لم يكن هناك من يرعاها ، وكان كل منها يحمل فى مؤخرته علامة بالحديد المحمى على شكل قفل . وكانت هذه العلامة الوراثية من أقوى الدعائم التى قامت عليها الأسطورة ، لا لعدد الحيوانات التى أصبحت معروفة فى أقاصى المقاطعات حين كانت تصل إليها فى الصيف مشتتة وهى تموت عطشاً ، بل لاختلاطها وفوضاها .

ولأسباب لم يهتم أحد بتفسيرها خلت أسطبلات البيت الواسعة تدريجياً من الخيل منذ الحرب الأهلية الأخيرة ، وحل محلها فى الفترة الأخيرة طواحين للسكر ، وحظائر يحلب فيها البقر ، ومضرب للأرز .

وسجل فى الوصية ، بالإضافة إلى ماتقدم ، وجود ثلاث جرار ملأى بالعملات الذهبية دفنت فى مكان ما من البيت خلال حرب الاستقلال ، ولم يمكن العثور عليها برغم عمليات الحفر التى كانت تتم بجدية وانتظام . وقد آل إلى الورثة مع حق الاستمرار فى استغلال الأرض المؤجرة ، وتحصيل العشور وبواكير الفواكه وكل أنواع الهدايا غير العادية ـ رسم كان يرسم من جيل لجيل ، وتدخل عليه فى كل مرة عدة تحسينات لتسهيل مهمة العثور على الكنز المدفون .

واحتاجت الأم الكبيرة إلى ثلاث ساعات لتعدد عناصر ماتملكه فى هذه الدنيا . وكان صوتها فى جو المخدع الخانق يبدو وكأنه يضفى على كل شىء

تذكره شيئاً من الوقار . وحين وقّعت بإمضائها المرتعش ووقع الشاهدان أسفل توقيعها انتابت رعدة خفيفة قلوب الحشد الغفير من الناس الذين أخذوا يتوافدون أمام باب بيتها فى ظل أشجار اللوز المتربة .

لم يبق ساعتها إلا تسجيل الأموال المعنوية ، وبذلت الأم الكبيرة جهداً خارقاً ـ نفس الجهد الذى بذله أسلافها قبل وفاتهم ليكفلوا سيادة جنسهم ـ وشدت نصفها الأعلى مرتكزة على ردفيها الهائلين ، واستسلمت لذاكرتها ، وبصوت مسيطر وصادق أملت على الموثق قائمة بأملاكها غير المنظورة .

ثروة باطن الأرض ، والمياه الإقليمية ، وألوان العلم والسيادة الوطنية ، والأحزاب التقليدية ، وحقوق الإنسان ، وحقوق المواطن ورئيس الدولة ، والهيئة الثانية ، والمناقشة الثالثة ، وخطابات التوصية ، والثوابت التاريخية ، والانتخابات الحرة ، وملكات الجمال ، والخطب العصماء ، والمظاهرات العظيمة ، والآنسات الراقيات ، والسادة المهذبون ، والعسكريون الغضوبون، وأصحاب السماحة والعظمة ، والمحكمة العليا ، والسلع المحظور استيرادها ، والسيدات اللبراليات ، ومشكلة الجسد ، ونقاء اللغة، وضرب الأمثلة للعالم ، والنظام القانونى ، والصحافة الحرة المسئولة مع ذلك ، «وأثينا» أمريكا الجنوبية ، والرأى العام والدروس الديمقراطية ، والأخلاق المسيحية ، وقلة العملات الصعبة ، وحق اللجوء ، والخطر الشيوعى ، وسفينة الدولة ، وغلاء المعيشة ، والتقاليد الجمهورية ، والطبقات المغبونة ، ورسائل التأييد .

ولم تصل إلى نهاية السرد فقد قطع العد المضنى نفسها الأخير وغرقت فى بحر الصيغ المجردة العميق ، هذه الصيغ التى كانت تمثل لقرنين من الزمان

أساليب التبرير المعنوى لسلطان أسرتها . وصدرت من الأم الكبيرة شخرة عالية ، ثم أسلمت الروح .

ورأى سكان العاصمة البعيدة المظلمة بعد ظهر هذا اليوم صورة امرأة فى العشرين فى الصفحة الأولى من طبعات استثنائية أصدرتها الصحف ، وحسبوا أنها ملكة جديدة من ملكات الجمال . وعاشت الأم الكبيرة من جديد فى شباب صورتها الفوتوغرافية المؤقت . صورتها التى ظهرت مكبرة على أربعة أعمدة مع رتوش اقتضاها الحال ، وقد جمعت شعرها الغزير فى أعلى رأسها بمشط عاجى وإكليل على باقة من «الدانتلا» لقد قُدِّرَ لهذه الصورة ـ التى التقطها مصور متنقل كان مارًّا ببلدة «ماكوندو» فى بداية القرن، وظلت محفوظة فى أرشيف الصحف سنوات طويلة فى قسم الشخصيات المجهولة ـ أن تبقى فى ذاكرة الأجيال القادمة . وكان الناس فى الأتوبيسات المخلعة ، وفى مصاعد الوزارات ، وفى صالونات الشاى الكئيبة التى غطيت جدرانها بقماش مزركش حائل اللون يذكرون فى همس أفضال هذه السيدة الجليلة التى قضت نحبها فى مقاطعتها التى يسودها الحر وتنتشر بها الملاريا ، والتى كان اسمها مجهولاً فى باقى أنحاء البلد إلى ساعات قليلة ، قبل أن يخلع الكلام المطبوع عليها قداسة خاصة . وسقط رذاذ مطر خفيف فغطى المارة برهبة ولون أخضر فاتح . ودقت نواقيس جميع الكنائس دقة إعلان الموت . واقترح رئيس الجمهورية ، الذى فاجأه الخبر وهو فى الكلية الحربية التى ذهب إليها لحضور احتفال بتخريج دفعة جديدة من الضباط ، على وزير الحربية ، بكلمة كتبها بيده على ظهر التلغراف ـ أن يختم خطابه بطلب مراعاة لحظة صمت حدادًا على الأم الكبيرة .

لقد مس الموت نظام البلد الاجتماعى ، حتى رئيس الجمهورية ، الذى

تصل إليه مشاعر أهل الحضر وكأنها مرت بمرشح تنقية ـ استطاع أن يلحظ الصدمة التى أصابت البلد ، من سيارته ، رؤية فورية ولكن عنيفة إلى حد ما . لقد أغلقت جميع الحوانيت أبوابها ، ولم يبق مفتوحاً سوى بعض المقاهى التى جار عليها الزمن ، وكاتدرائية العاصمة التى أُعدت لاستقبال المصلين فى المساء تسعة أيام متوالية . وفى مبنى «الكابيتول» الوطنى الذى كان الشحاذون ينامون فيه وقد غطوا أنفسهم بالورق فى حماية الأعمدة ذات الطراز «الدوريكى» القديم ، وتماثيل الرؤساء السابقين الصامتة وأضيئت أنوار «الكونجرس» . وحين دخل رئيس الوزراء إلى مكتبه متأثراً بمنظر العاصمة الحزينة كان وزراؤه فى انتظاره وقوفاً ، وقد وضعوا شارة الحداد وبدوا واجمين وشاحبين أكثر من المعتاد .

إن أحداث هذه الليلة والليالى التالية ستوصف فيما بعد بأنها درس تاريخى ، ليس فقط للروح المسيحية التى ألهمت أهم رجالات الحكومة خلالها ، بل لإنكار الذات الذى ائتلفت بفضله مصالح متباينة ومعايير متناقضة فيما يتعلق بالغاية المشتركة المتمثلة فى دفن جثمان شخصية من الشخصيات البارزة . لقد حققت الأم الكبيرة عوامل الأمن الاجتماعى والوفاق السياسى لإمبراطوريتها بفضل حقائب ثلاث ملأى ببطاقات انتخاب مزيفة كانت جزءاً من ثروتها السرية . وكان أعوانها ومن تشملهم بحمايتها ومستأجرو أراضيها ، من بلغ منهم سن الرشد ومن لم يبلغه ، لايمارسون حقهم فى الانتخاب وحسب ، بل يمارسون أيضاً حق من ماتوا من الناخبين خلال قرن من الزمان . كانت هى تمثل أولوية السلطة التقليدية بالنسبة للسلطة العارضة ، وهيمنة الطبقة الراقية على الرعاع ، وعلو العلم الربانى على ارتجال أهل الدنيا .

وكانت فى وقت السلم المرجع الأخير فى التعيين فى الوظائف ذات المرتب الكبير والعمل القليل ، وفى الحصول على معاشات ومزايا لرجال الدين وغيرهم ، وفى المناصب التى يتقاضى أصحابها أجوراً بدون مقابل من عمل . وكانت تسهر على خير مساعديها ، حتى إذا اقتضى الأمر أن تلجأ إلى المشاكسة أو إلى تزييف الانتخابات . وفى الأيام المضطربة كانت الأم الكبيرة تساهم سرًّا فى تسليح أنصارها ، وتخفُّ علناً لنجدة ضحاياها ، وقد أهلتها غيرتها الوطنية لأرفع مراكز الشرف .

ولم يكن رئيس الجمهورية بحاجة إلى رأى مستشاريه ليقدر مدى مسئوليته ، كانت هناك ـ بين قاعة الاجتماعات فى قصر الرئاسة والساحة المرصوفة التى كان نواب الملك يستخدمونها فى الماضى كمكان لوقوف العربات ـ حديقة داخلية من شجر السرو الداكن شنق فيها راهب برتغالى نفسه بعد أن وقع فى غرام امرأة فى السنوات الأخيرة من الاستعمار الإسبانى ، ولم يكن الرئيس ـ بالرغم من أبهة المنصب الصاخبة وياورانه من حملة النياشين ـ يقوى على مغالبة رجفة خفيفة من الرهبة حين يمر بهذا المكان بعد الغروب ، ومع ذلك فقد كان للرجفة هذا المساء قوة الهاجس القوى ، وأحس رئيس الجمهورية إحساساً كاملاً بمصيره التاريخى ، فقرر إعلان الحداد الوطنى تسعة أيام تكريماً للأم الكبيرة ، باعتبارها بطلة من فئة الأبطال الذين ماتوا فى سبيل الوطن فى ميدان القتال . وكان على ثقة ـ كما قال فى الخطاب المؤثر الذى ألقاه فى ساعة مبكرة من هذا الصباح فى الراديو وفى التليفزيون ـ من أن مراسيم جنازة الأم الكبيرة ستكون مثلاً جديداً يضرب للعالم .

وكان حتماً أن تصطدم هذه العبارات البليغة بعقبات كبيرة ، فإن الهيكل

القانونى للبلد الذى وضعه أسلاف الأم الكبيرة الأوائل ـ لم يكن معدًّا لمواجهة الأحداث التى بدأت تحدث . وبذل أساطين القانون وفقهاؤه فى استكناه أسرار النصوص كل جهد ، واستخدموا كل طرق التفسير والقياس ليجدوا صيغة تسمح لرئيس الجمهورية بحضور الجنازة ، وأُعلن مايشبه حالة الطوارىء فى أوساط السياسة والكنيسة والمال العليا . وفى قاعة «الكونجرس» نصف الدائرية ـ التى تقلص حجمها بعد قرن من التشريع المجرد ـ بين صور الأبطال الوطنيين الزيتية ، والتماثيل النصفية للمفكرين اليونانيين، اتخذت سيرة الأم الكبيرة أبعاداً لم يكن أحد يتصورها ، هذا فى حين كانت جثتها تمتلىء فى «ماكوندو» بالفقاقيع فى شهر سبتمبر الأليم . وللمرة الأولى تحدثوا عنها وتصوروها بدون كرسيها الهزاز المصنوع من البوص وإغفاءاتها فى قيلولة الثانية بعد الظهر ، ولبخات الخردل التى كانت تستعملها ، ورأوها نقية طاهرة ، لا سن لها ، مقطرة كالماء الصافى الذى تصنع منه الأساطير .

ودارت ساعات لا آخر لها من الكلام والكلام ، الكلام الذى كان يتردد فى أنحاء الجمهورية ، وكانت تضخمه أبواق الكلمة المكتوبة ، إلى أن قام عضو عملى التفكير فى هذا المجلس الذى يتكون من قانونيين جهابذة ، وقطع الكلام التاريخى الفارغ ليذكِّر الجميع بأن جثة الأم الكبيرة تنتظر قرارهم فى بلد تبلغ درجة الحرارة فيه ٤٠ درجة فى الظل . ولم يهتز أحد لهذا التدخل الذى يمليه حكم العقل فى صميم مجال القانون الوضعى ، وأعطيت تعليمات لتحنيط الجثة ، فى حين استمرت المقابلة بين الصيغ ومحاولات تقريب وجهات النظر وإدخال تعديلات على الدستور تسمح لرئيس الجمهورية بحضور الدفنة .

وبلغ من كثرة الكلام أن اجتاز الحدود وعبر المحيط ، ووصل كالنذير إلى حجرات البابوية بـ « كاستيل جاندولفو » بروما . وبعد أن استرد قداسة البابا نشاطه بعد عطلة عيد العذراء فى شهر أغسطس ، وقف قداسته فى النافذة يراقب الغواصين وهم يغوصون فى البحيرة بحثًا عن رأس الفتاة التى قطع رأسها . ولم يكن فى صحف المساء حديث غير هذا خلال الأسابيع الأخيرة ، وما كان يجوز للبابا ألاَّ يكترث للغز مطروح على مسافة قريبة من مسكنه الصيفى ، ولكن الذى حدث فى عصر هذا اليوم أن الصحف غيرت ـ بصورة مفاجئة ـ صور الفتيات التى كان يُظَّن أن إحداهن هى التى قطعت رأسها ، واستبدلت بها صورة امرأة واحدة فى العشرين من عِمرها ، داخل إطار حداد أسود . وهتف قداسة البابا : « الأم الكبيرة » ! بعد أن عرف للتو صاحبة الصورة المهزوزة قليلاً (والتى صُورت بطريقة الـ « اجيروتيب ») التى أُهديت له منذ سنوات عديدة بمناسبة انتخابه للبابوية . وهتف أعضاء محفل الكرادلة بنَفَس واحد فى غرفهم الخاصة : « الأم الكبيرة » ! وللمرة الثالثة على مدى عشرين قرنًا مرت ساعة عصيبة من البلبلة والحيرة والارتباك فى إمبراطورية المسيحية التى لا تحدها حدود ، إلى أن جلس قداسة البابا فى « جندوله » الطويل الأسود ، وانطلق لحضور الجنازة العجيبة البعيدة، جنازة الأم الكبيرة !

وترك البابا وراءه مزارع الخوخ المضيئة وشارع « إبيا » القديم بممثلات السينما الفاتنات الجالسات على مقاهيه للتشمس ، واللاتى لم يكن خبر الحدث الجليل قد وصل إلى علمهن بعد ، كما ترك وراءه مرتفع « كاستيل سان آنجلو » على أفق نهر الـ « تيبر » . وعند الغسق اختلطت دقات ناقوس كنيسة القديس بطرس العميق بروما بدقات ناقوس بلدة « ماكوندو »

البرونزي المتشقق . ومن تحت غطائه الخانق ـ وعبر شبكة القنوات المعقدة والمستنقعات السرية التى تتحدد بها أطراف الإمبراطورية الرومانية ، وقطعان الأم الكبيرة ـ سمع قداسة البابا طوال الليل لغط النسانيس التى أفزعها مرور جموع الناس . كان زورق البابا يمتلىء خلال رحلته الليلية بزكائب البطاطا ، وبسباطات الموز الأخضر ، وبأقفاص الفراخ ، وبرجال ونساء تركوا أعمالهم العادية ليرتزقوا من بيع ما يستطيعون بيعه فى جنازة الأم الكبيرة. وعانى صاحب القداسة هذه الليلة ـ للمرة الأولى فى تاريخ الكنيسة ـ من حُمى الأرق ، وعذاب البعوض ، ولكن شروق الشمس الباهر على مملكة العجوز الكبيرة ، ومنظر نبات البلسمينة ، وحيوان الأجوان البدائى فى هذه المملكة أزالا من ذاكرته وعثاء السفر ، وعوضاه خيرًا عن تضحيته .

وصحا « نيكانور » من نومه على ثلاث طرقات على بابه أعلنت قرب وصول صاحب القداسة . لقد خيم الموت على البيت ، وكان من تأثير خطب الرئيس المتوالية القوية ومناقشات النواب فى البرلمان ، تلك المناقشات المنفعلة التى بُحَّتْ فيها أصواتهم فاستمروا يتناقشون بالإشارة ـ أن هجر الناس أفرادًا وجماعات فى جميع الضواحى والأنحاء ما بيدهم ، وزحموا طرقات البيت المظلمة ، وممراته المكتظة بالمعزين وغرف السطح الخانقة . والناس الذين وصلوا متأخرين صعدوا وحاولوا بطريقة من الطرق أن يجدوا لأنفسهم مكانًا فى البرابخ ، والمساحات المسورة ، والأبراج ، والسقالات ، والشرفات . وفى الصالون الرئيسى كان جثمان الأم الكبيرة المحنط كالمومياء ينتظر القرارات الكبرى تحت كومة هائلة من البرقيات . وسهر أبناء وبنات الإخوة التسعة إلى جوار الجسد المسجى وقد هدّتهم الدموع ، فى نشوة من الرقابة المتبادلة .

واضطر العالم إلى الانتظار أيامًا عديدة بعد ذلك ، وفى صالون المجلس البلدى الذى وُضِع فيه أربعة كراسى جلـد ، وزير من الماء المقطر ، وهَمَك (أى سرير معلق بدون حشية) من الألياف ـ كان قداسة البابا يذوق الأمرّين من الأرق والعرق ، وكان يسلى نفسه فى الليالى الطويلة الخانقة بقراءة مذكرات وتعليمات إدارية . أما خلال النهار فكان يوزع حلوى إيطالية على الأطفال الذين كانوا يقتربون لرؤيته من النافذة ، وكان يتنـاول الغداء تحـت « البرجولا » التى عرشت فيها زهور « الاستروميلياس » ، مع الأب « أنطونيو إيزابيل » وأحيانًا مع « نيكانور » . وعاش على هذا النحو وكأنها أسابيع لا تنتـهى ، وأشهـر أطالهـا التوقـع والحـر ، إلى أن أتى اليـوم الذى وقـف فيـه « باستور باسترانا » بطبلته وقرأ مرسومًا ينص على أن رئيس الجمهورية (تم ترم تم) وقد اضطرب النظام العام (تم ترم تم) يملك السلطات الاستثنائية (تم ترم تم) التى تخوله حضور جنازة الأم الكبيرة (تم ترم تم تم تم تم تم) .

وجاء اليوم المشهود ، وازدحمت الشوارع بموائد « الروليت » ، ومواقد تحمير البطاطس ، وموائد اليانصيب ، ورجال تحيط بأعناقهم ثعابين يعرضون على المارة بلسمًا يقطع دابر مرض الحمرة ، ويضمن حياة الخُلد . وفى الميدان الصغير المُوَشَّى الذى نصبت فيه الجماهير خيامها ، وفردت حصرها ، جعل بعض الرجال الأشداء من حملة « الأرباليت » (التى تستخدم كالقوس لرمى السهام) يفسحون الطريق أمام ممثلى السلطة . وكان هناك ، فى انتظار اللحظة الكبرى ، غسالات مدينة « القديس خورخ» وصيادو لآلىء « كابودى فيلا » ، وصيادو « ثيناجا » الذين يصطادون السمك بالشباك ، وصيادو « تأساخيرا » الذين يصيدون الجمبرى ، وسحرة « موخانـا » ، ورجال ملاحات « مانـاورى » ، وعازفـو

« الأكورديـون » مـن « فالودوبار » ومروضو « أيابيل » ، وزارعو شجر البابای من « سان بيلايو »، ومزغطو الديكة من « لاكويفا » ، ومرتجلو «ساباناس دى بوليفار » وأصحاب شحاتيف « ريبولو » ، وملاحو الزوارق المصنوعة من جذوع الشجر فى « ماجدالينا » ، ومحامو « مومبكس » الخاملون ، فضلاً عمن ورد ذكرهم فى أول هذه الرواية ، وكثيرون غيرهم ، حتى المحاربون القدماء من رفاق الكولونيل « أورليانو بويندیا » ـ وعلى رأسهم دوق « مالبورو » مرتديًا جلد النمر بمخالبه وأنيابه كالمعتاد ـ غَالَبُوا حنقهم على الأم الكبيرة الذى استمر قرنًا من الزمان ، وحنقهم على من هم على شاكلتها ، اشتركوا فى الجنازة ليطلبوا من رئيس الجمهورية رفع معاشهم العسكرى الذى ينتظرونه منذ قرابة ستين عامًا .

وقبل الحادية عشرة بقليل إذا بالجمع المحتشد الذى كان يختنق فى هجير الحر ، والذى فقد السيطرة على حماسه ، والذى كانت تحجزه قوات مختارة من المحاربين الرصينين فى لباس التشريفة الذى يتكون من سترة مزركشة وقلنسوة ذات عُفرة ـ يهدر هديرًا فرحًا مجلجلاً . ها هو ذا رئيس الجمهورية ، وها هم وزراؤه ، ولجان البرلمان ، وقضاة المحكمة العليا ، ومجلس الدولة ، والأحزاب التقليدية ، ورجال الدين ، وممثلو البنوك والتجارة والصناعة ـ يظهرون عند منعطف شارع التلغراف فى خطوتهم الموقرة ، وقد تخشبوا فى زيهم الرسمى وقبعاتهم السوداء الغالية . ومر رئيس الجمهورية الأصلع البدين الكهل المريض أمام أعين الناس ، فأخذت منهم الدهشة كل مأخذ . لقد سلموه السلطة بدون أن يعرفوه وهم ـ الآن فقط ـ يستطيعون أن يشهدوا حقًّا وصدقًا أنه موجود ، وكان رئيس الدولة يعرق عرق السلطة الذى لا يشبهه عرق آخر ، بين كبار الأساقفة الذين أبهظتهم جسامة

مسئوليتهم الدينية ، والعسكريين ذوى الصدور القوية التى رُصعت بالنياشين .

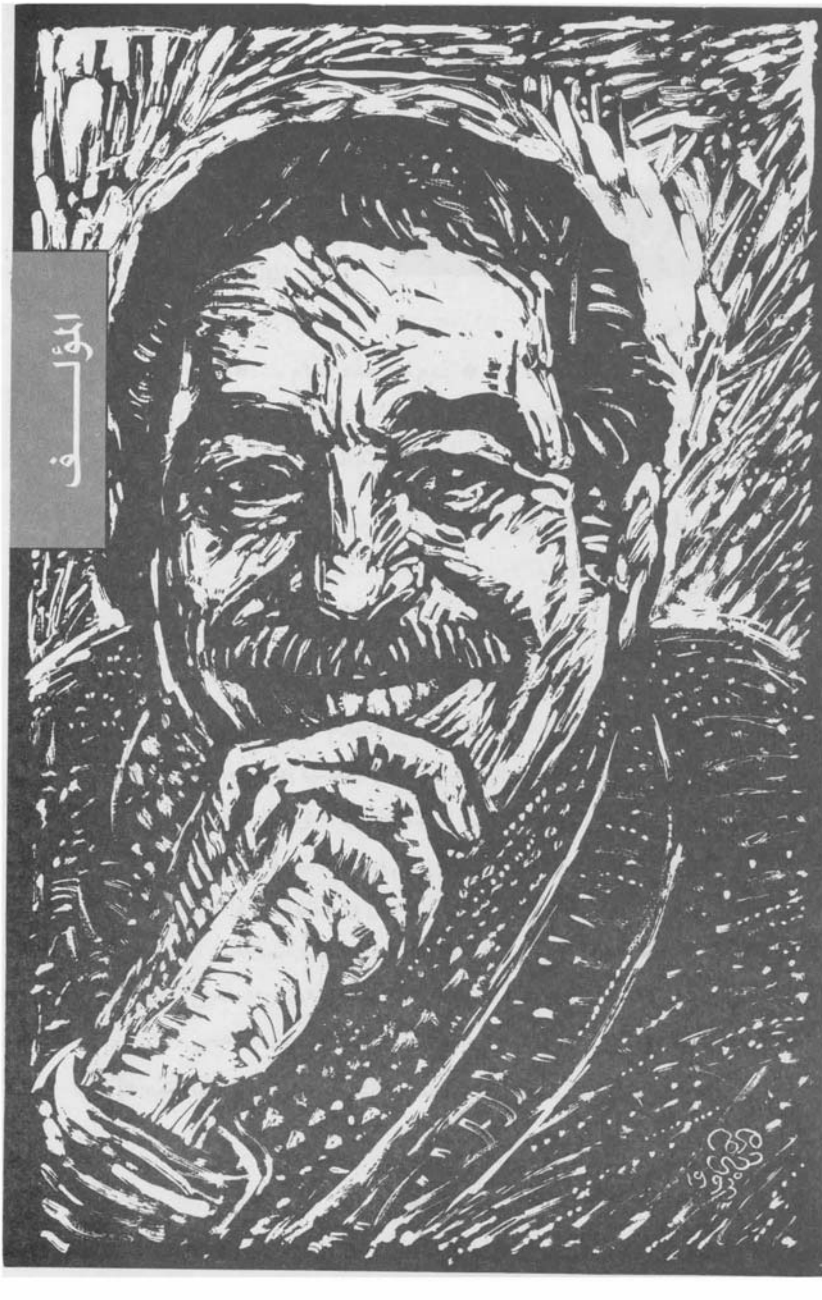
بعد هؤلاء سارت فى وقار كبير ملكات كل شىء فى البلد ، سواء فزن به فى الماضى أو سيفزن به فى المستقبل ، وقد كست كل منهن وجهها بخمار الحداد ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى يتجردن فيها من عظمتهن الدنيوية . وسارت فى المقدمة ملكة العالم ، وملكة المانجو ذات الألياف ، وملكة ثمرة « الأهوياما » الخضراء ، وملكة الموز الأصفر ، وملكة البطاطا النشوية ، وملكة الجوافة البيروفية ، وملكة جوز الهند ذى الماء ، وملكة اللوبيا أم عين سوداء ، وملكة ٤٢٦ كيلو متراً من عقود بيض الأغوان ، وكل الملكات اللاتى أغفلت ذكرهن لئلا يطول هذا الحديث إلى ما لا نهاية .

وكانت الأم الكبيرة ترقد فى نعشها ذى الثنيات الحمراء ، وكانت تفصلها عن الواقع ثمانية ألواح من النحاس ، وكان تشبعها بأبديتها فى مادة « الفورمول » المطهرة يجعلها لا تدرك مدى عظمتها ، وكل البذخ الذى كانت تحلم به فى شرفة بيتها خلال ليالى الحر المؤرقة تحقق فى هذه الثمانى والأربعين المجيدة التى أثنى على ذكراها فيها كل من لهم حيثية فى هذا الزمن ، حتى صاحب القداسة الأكبر الذى كانت تتخيله حين تستغرق فى أحلامها معلقًا فى عربة فاخرة فوق حدائق الفاتيكان ، حتى صاحب القداسة نفسه قاوم الحر بمروحة من سعف النخيل المجدول وشرّف بحضوره الشخصى أعظم جنازة فى العالم .

والجمهور الذى بهره منظر السلطة لم يلحظ رفرفة الأجنحة الملهوفة التى حدثت فى سقف البيت حين تم فض الخلاف القائم بين الشخصيات البارزة وخرج النعش إلى الشارع محمولاً على أكتاف أبرز الشخصيات . ولم

ير أحد ظل طيور العقاب اليقظة التى كانت تتبع الموكب فى شوارع «موكاندو» الصغيرة المحرقة ، كما لم يتنبه أحد إلى أن موجة من القاذورات النتنة غطت هذه الشوارع مع مرور تلك الشخصيات البارزة ، ولم يلفت نظر أحد أن أولاد الإخوة والربائب والخدم ومن كانت الأم الكبيرة تشملهم بحمايتها أغلقوا الأبواب فور خروج الجثة ، ثم فكوا مفصلاتها وخلعوا خشب الأرضية ، وأخرجوا أساس البيت الأسمنتى ليوزعوه على أنفسهم . والشيء الوحيد الذى لم يغب عن ملاحظة الناس فى هذه الدفنة الصاخبة كان صوت الجماهير المدوى وهى تتنفس الصعداء بعد انقضاء الأيام الأربعة عشر ، وما حفلت به من صلوات ومديح وحمد حين أُقفل القبر ببلاطة من الرصاص ، وكان لدى بعض الحاضرين من الفطنة ما جعلهم يدركون أنهم يشهدون ميلاد عهد جديد ، وبوسع قداسة الأب الأعظم أن يصعد الآن روحًا وجسدًا إلى السماء بعد أن انتهت مهمته على الأرض . وبوسع رئيس الجمهورية أن يجلس ليحكم وفقًا لمعياره السليم ، وتستطيع ملكات كل شيء فزن به فى الماضى أو سيفزن به فى المستقبل أن يتزوجن ويسعدن ويحملن ويضعن أبناء كثيرين ، وبوسع الناس أن ينصبوا خيامهم وفقًا لطريقتهم الأمينة فى العلم والفهم فى أملاك الأم الكبيرة التى لا تحدها الحدود؛ لأن الإنسان الوحيد الذى كان فى مقدوره أن يقف فى وجههم ولديه القوة الكافية لذلك قد بدأ يتعفن تحت بلاطة مصنوعة من الرصاص ، ولم يبق الآن إلا أن يضع شخص كرسيًّا بدون ظهر لصق الباب ليحكى هذه القصة لتكون عبرة ودرسًا للأجيال المقبلة ، ولكيلا يظل أحدٌ من المنكرين فى هذا العالم على جهل بنبأ الأم الكبيرة ، فإن الكناسين سيأتون غدًا الأربعاء لإزالة القاذورات التى خلفتها جنازتها إلى أبد الآبدين .

المؤلف



جابريل جارسيا ماركيز

تتكون هذه المجموعة من ثمانى قصص مختلفة الطول كتبها المؤلف جميعًا عام ١٩٦٢ وهى :

● قيلولة يوم الثلاثاء . . ● يـوم من هذه الأيام . . ● ليس فى هـذه القرية لصوص . . ● عصرية بلتزار العجيبة . . ● أرملة مونتييل . . ● يوم بعد يوم السبت . . ● زهور صناعية . . ● الأم الكبيرة . .

وفيما يلى تحليل سريع لكل منها :

قيلولة يوم الثلاثاء :

هى قصة امرأة فقيرة تستقل القطار مع ابنتها العنيدة لتزور قبر ابنها الوحيد الذى قُتل منذ أسبوع فى بلدة غير تلك التى يعيـش فيـها ثلاثـتهم ، (وقد قتل هذا الابن وهو يحاول تحت جنح الظلام أن يفتح بوابة بيت سيدة غنية اسمها « ربيكا » بقصد السرقة برصاصة أطلقتها عليه هذه السيدة) . وحين تصل الأم والأخت إلى هذه البلدة تجدانها « وكأنها تطفو فوق صهد الشمس » . وتذهب المرأة وابنتها إلى بيت قسيس البلدة لأخذ مفتاح المقبرة التى دُفن فيها الابن . وكان القسيس ـ حين وصلت المرأة وابنتها إلى بيته ـ نائمًا فى قيلولة العصر ، شأن كل أهل البلدة فى تلك الساعة ، ولكن أخته توقظه حين تشرح لها المرأة أنها مضطرة لأخذ قطار العودة بعد قليل . ويصل القسيس ويعطيها المفتاح ، وتخرج المرأة والصبية فى هجير الشمس .

وأهم شىء فى القصة هو الحوار القصير التالى ، الذى أورده الكاتب على لسان القسيس والمرأة :

القسيس : ألم تُحاولى قط هدايته إلى الطريق المستقيم ؟

المـــرأة : كان رجلاً غاية فى الطيبة . . وكنت أقول له : لا تسرق أبدًا شيئًا يحتاج إليه إنسان ليأكل ، وقد سمع كلامى . . لقد كان فى الماضى يكسب عيشه من الملاكمة . . وكان لكل لقمة أكَلْتُهَا فى تلك الأيام طعم اللكمات الشديدة التى كان ابنى يتلقاها فى مباريات ليلة السبت (وهى مباريات كانت تضطره أحيانًا إلى أن يلزم الفراش ثلاثة أيام متتالية ، وقد اضطر إلى خلع جميع أسنانه) .

وفى القصة مقابلة بين هـذه الأسـرة التى فقـدت عائلـها وبـين السيـدة « ربيكـا » الأرمـلـة التـى تعيـش بمفـردهـا منـذ ٢٨ سـنة فى بيـــت مملـوء « بكراكيب » قديمة لا قيمة لها .

وواضح من سياق القصة أن الكاتب متعاطف مع المرأة الفقيرة التى لم تتبرأ من ابنها ، ولم تبكِ خجلاً وهى تتحدث عن فعله بل حاولت الدفاع عنه . وواضح أيضاً أن الكاتب لا يوافق القسيس الذى وقف فى صف السيدة الغنية ، والذى حكم بأن «كارلوس كونتينو» مجرمٌ حَادَ عن الطريق المستقيم ، ولم يتحر عن السبب الذى جعله يقدم على السرقة ، والذى لم يواس المرأة بكلمة عزاء واحدة ، ولم يرق قلبه لحالها ، ولم ير عدم التناسب الصارخ بين الثمن الذى دفعه ابنها وبين تفاهة الجُرم الذى ارتكبه حين أراد أن يسرق شيئاً من «كراكيب قديمة لاقيمة لها» ، ولم يتبع تعاليم الديانة التى هو من رجالها ، الديانة التى تدعو إلى العدل وتأمر بالمغفرة ، وتعطف على الفقير والمحتاج .

يـوم مـن هـذه الأيـام :

هذه الأُقصوصة تصف زيارة يقوم بها عمدة بلدة كولومبية إلى عيادة طبيب أسنان ليخلع له الطبيب ضرس العقل الذى يؤلمه منذ خمسة أيام .

ويقول المؤلف فى هذه القصة : إن طبيب الأسنان لا يحمل شهادة ، ويصف العيادة فيقول : إنها عيادة فقيرة ، سقفها متهدم ، نسجت فيه العنكبوت بيتاً ووضعت فيه بيضها ، وعلقت به بعض الحشرات الميتة . ويصف المؤلف كذلك ألم الضرس المبرح الذى يجعل حياة العمدة جحيماً واستعدادات طبيب الأسنان لخلع الضرس ثم عملية الخلع ذاتها وماسببه للعمدة من ألم شديد ؛ لأنها تمت بدون تخدير .

على أن ما أراد المؤلف أن يقوله فى القصة ليس فى الواقع وصف العيادة ، ولا ظروف عملية خلع الضرس ، وإنما شىء أخطر من ذلك بكثير .

لقد أراد أن يسجل أولاً أن العمدة قتل ـ فى ممارسته لسلطته ـ عشرين شخصاً ، هذا علماً بأن العبارة التى قالها له فى هذا الصدد ، أى عبارة «ستدفع هنا ثمن قتل عشرين شخصاً ، يا سيدى الملازم» قد تعنى أن من قتلهم العمدة كثيرون ، وأن الألم الذى سيحس به فى عملية خلع الضرس هو ثمن قتل عشرين منهم .

وأراد المؤلف أن يسجل ثانياً أسف هذا الحاكم الذى يهدد بأنه سيطلق الرصاص على طبيب الأسنان إنْ لم يخلع له ضرسه .

أما الشىء الثالث الذى أراد المؤلف أن يشير إليه فى القصة فهو جو العنف السائد فى البلدة ، هذا الجو الذى يضطر شخصاً مدنيًّا مسالمًا مثل

طبيب الأسنان إلى الاحتفاظ فى درج مكتبه بمسدس يدافع به عن نفسه إذا تعرضت حياته للخطر فى هذه البلدة التى يقتل الناس فيها لأوهى الأسباب .

ليس فى هذه القرية لصوص :

هذه قصة صعلوك شاب اسمه «دامازو» ، يعيش فى بلدة صغيرة ليس له من المؤهلات سوى وسامته وأناقته وعينيه الجميلتين . وقد تزوج من امرأة تشتغل بغسل الملابس وكَيِّها ، وهى تنفق عليه ، وخطر لدامازو أن يسرق «صالون البلياردو» الذى كان يتردد عليه ، فكسر قفل باب الصالون ليلاً ، ثم تسلل إلى داخله وفَتَحَ درج الخزانة ، ولكن لم يجد فيها شيئاً . ولكيلا يَئُوب من الغنيمة بالإياب سرق كُرات البلياردو الثلاث وأخفاها فى حفرة فى بيته ، تحت الفراش . وبحثت الشرطة عن سارق الكرات ، ثم قبضت على زنجى من غير سكان البلدة وأوسعته ضرباً ، ثم رَحَّلَتْه إلى مدينة أخرى ، وذات ليلة عاد «دامازو» إلى بيته وقد لعبت الخمر برأسه ، وأخرج الكرات من مخبئها وذهب إلى «صالون البلياردو» وكسر القفل الذى وضعوه مكان القفل القديم ودخل إلى الصالون وتهيأ ليضع الكرات مكانها وإذا بصاحب الصالون الذى كان نائماً فيه يوقد النور ويفاجئه ، ويتهمه بسرقة ٢٠٠ «بيزو» علاوة على كرات البلياردو .

وأهم شىء أراد المؤلف إبرازه فى هذه القصة هو عسف السلطة وفسادها ، لقد قبضت الشرطة على الزنجى بتهمة السرقة وهو برىء براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، لا لشىء إلا لأنه أجنبى أسود . ولم يكن لدى الشرطة سند أو سبب للقبض عليه ، ولكنها خشيت أن يُقال إنها عجزت

عن اكتشاف سارق كرات البلياردو . وأصر العمدة على حبس الزنجى واتهامه ، بالرغم من أن إحدى بنات الهوى اعترفت بأنه قضى فى بيتها الليلة التى حدثت فيها السرقة . وهدد العمدة هذه المرأة باتهامها هى الأخرى باعتبارها شريكة فى السرقة إن لم تكتم هذه الحقيقة ، ولم يكتف بهذا ، بل ابتز منها مبلغاً من المال لكيلا يوجه إليها الاتهام عن الجريمة . ومن جهة أخرى تعرض الزنجى البرىء لتعذيب شديد على يد رجال الشرطة ، فقد انهال أحد رجال الشرطة عليه ضرباً فى دار السينما بحزامه ذى المشبك النحاسى الثقيل ، ثم انضم إليه زميل له فى ضربه ضرباً مبرحاً إلى أن تمكنا من القبض عليه . وساقه رجال الشرطة يوم ترحيله أمام الناس وقد ربطوا معصميه إلى كتفه بحبل ، وقد شقت شفته السفلى ، وظهر أثر الكدمات على وجهه . ثم ربطوا يديه وقدميه إلى برميل بترول على ظهر اللنش وتركوه بلا قميص تحت الشمس المحرقة ، لا يحميه من وهجها شىء . والذى ارتكب كل هذا المظالم وهذه الوحشية هم رجال الإدارة، والمفروض أن وظيفتهم هى حماية الناس ومكافحة الإجرام .

وقد ارتكب العمدة ورجاله كل هذه المخالفات التى تصل إلى حد الجريمة بعد أن قدم صاحب صالون البلياردو بلاغه ، فمن هو هذا الرجل؟ إنه رجل يملك صالوناً يؤمه الناس للعب البلياردو وللفرجة على لاعبى البلياردو ، ولسماع إذاعة مباريات البيسبول ، ولشرب «البيرة» هو رجل غنى، ولولا ذلك مافكر «دامازو» فى سرقة محله ، وهو رجل خَرِبُ الذمة ، فقد ادعى أن اللص الذى سرق كرات البلياردو سرق معها مائتى «بيزو» ، وهو يعلم تماماً أن خزينته لم يكن فيها «بيزو» واحد . وهو رجل لايعرف الصفح ، فقد أصر على اقتياد «دامازو» إلى قسم الشرطة ، برغم أن «دامازو»

أبدى ندمه على فعله وأنه أعاد الكرات ، وهو رجل غادر ، فقد أصر على موضوع المائتى «بيزو» الذى يعلم قبل غيره أنه ملفق ولا أساس له من الصحة .

وصاحب الصالون أسوأ وأكثر نذالة حتى من «دامازو» العاطل ، الذى يعيش عالة على زوجته ، والذى يقضى وقته متنقلاً بين صالون البلياردو، والسينما ، وصالة الرقص ، والذى يعاقر الخمر ، ولايتورع عن رذيلة ، ويضرب زوجته التى تطعمه وتكسوه وتعطيه مصروف يده ، ويسىء معاملتها ويتخيل مشروعات لسرقة كرات البلياردو فى القرى المجاورة كما سرقها فى بلدته ، هو أسوأ منه ؛ لأن «دامازو» ، برغم كل عيوبه ، يرجو أن يتمكن فى يوم من الأيام من إعفاء زوجته من غسيل الملابس ، ثم إنه شخص ليس عديم الإحساس ، بالرغم من دناءته ، فقد أفسد عليه منظر الزنجى ورجال الشرطة وهم يضربونه متعة الفيلم الكوميدى الذى كان يشاهده فى السينما ، وأهم من ذلك أنه ندم على سرقة كرات البلياردو حين شاهد الكساد الذى أصاب الصالون ، وحُزن صاحبه ، وحاول أن يساعد صاحب الصالون فى عمله ، ثم أعاد الكرات ، هو إذن شاب عابثٌ منحل أكثر منه مجرماً مفطوراً على الجريمة، وندمه على ما فعل يُعَدُّ ظرفاً مخففاً لجريرته . أما صاحب الصالون فهو إنسان سيىء الطَّوية ، عديم الضمير .

ودامازو ، من جهة أخرى ، أفضل من العمدة ، ومن رجاله الذين خالفوا القانون ، وهم حُماته ، مخالفات جسيمة ، تهون إلى جوارها سرقة ثلاث من كرات البلياردو .

وفى قصة «ليس فى هذه القرية لصوص » امرأتان : إحداهما هى «آنا»

زوجة «دامازو» ، والأخرى «صديقة» له ، وهما تستحقان أن نقف عندهما لحظة .

لقد تزوجت «آنا» من «دامازو» الذى يصغرها بستة عشر عاماً لإعجابها بشكله ، وهى ، لفارق السن الذى يفصل بينهما ، تشعر فى قرارة نفسها أن قبوله الزواج منها كان تضحية من جانبه ، وهى تحاول أن تعوضه عن هذه التضحية بتحمل نفقاته الضرورية والكمالية . وهى تحرص على أن يظهر زوجها أمام الناس بأجمل مظهر ، وتتفادى إغضابه ، ولاتخاصمه إذا عاد إليها مخموراً آخر الليل . وبرغم أن زوجها لايبادلها مشاعرها ويخونها ، بل يعنفها أحياناً فإنها تقبله على علاته ، وتحبه إلى درجة التدله، وهى تخاف عليه من حماقاته ، وتظل طوال الليل فى انتظاره نهبة للهواجس ، حين تعلم أنه ذهب ليسرق صالون البلياردو . وهى تقترح أن تقوم هى بإعادة كرات البلياردو، لكيلا يتعرض زوجها لأذى . وهى تستميت ـ برغم أنها حامل فى الشهر السادس ـ فى محاولة منع زوجها من إعادة الكرات وهو مخمور ، ولا تفك قبضتها عنه إلا بعد أن يضربها ويطرحها أرضاً فترتطم بجدار الغرفة، وتعجز عن النهوض ، وهى امرأة عاملة تقضى سحابة يومها فى العمل ، وهى رحيمة القلب ترثى لحال الزنجى الذى أُخِذَ بذنب زوجها ، وتقترح على زوجها أن يرد الكرات ليطلق العمدة سراحه .

أما صديقة «دامازو» فهى فتاة فقيرة من بنات الهوى ، كان يقابلها فى حانة الرقص ، والظاهر أنها كانت حديثة عهد بالدعارة ، فقد كانت صغيرة السن ، وكان وجهها يحمر حياء حين تنفعل ، كما أن تعلقها بدامازو لم يكن باعثه الوحيد فيما يبدو هو جمال عينيه ، بل عاطفة أخرى أقرب إلى الميل أو

حتى الحب . ولم يشرح المؤلف الظروف التى جعلت هذه الفتاة الرقيقة تحترف البغاء ، ولكنه ذكر لنا أنها تعيش فى غرفة ضيقة مظلمة فى بيت تشترك فيه مع البهائم ، وأنها تلف مولودها ، الذى لاتعرف له أباً ، فى خرقة بالية وتضعه فى صندوق فارغ ، وهو مايشير إلى أن الذى أوقعها فى هذا المصير هو الحاجة لا الاختيار الشخصى ، وأنها ضحية أخرى من ضحايا المجتمع .

وقد أراد المؤلف أن تكون «آنا» وهذه الفتاة صورة للفقر ، وليوضح أن فى بعض الفقراء صفات من السذاجة والطيبة والاستعداد للعطاء يفتقر إليها صاحب صالون البلياردو وعمدة البلدة ورجاله القُساة .

عصرية بلتزار العجيبة :

هذه قصة نجار رقيق الحال اسمه «بلتزار» طلب منه ابن رجل غنى اسمه «خوزيه مونتييل» أن يصنع له قفصاً كبيراً ، وصنع بلتزار القفص ، وتفنن فى صنعه ، وذهب إلى بيت «مونتييل» ولكن هذا الأخير رفض أن يشترى القفص ، ولام بلتزار لأنه نفذ طلب ابنه بدون أن يرجع إليه . وحضر الطفل فعنفه أبوه وأفهمه أنه لن يشترى له القفص ، فارتمى الطفل على الأرض وانخرط فى بكاء مؤثر ، وأشفق بلتزار على الطفل وقدم له القفص هدية بدون مقابل .

و إذا قارنا بين شخصية «بلتزار» وشخصية «مونتييل» وجدنا مايأتى :

- بلتزار نجار أمين يعمل بيديه ، وهو متفانٍ فى عمله ، وهو فنان يصنع القفص لمجرد إرضاء طفل ولايدرى بكم يبيعه . أما «مونتييل» فهو تاجر جشع ، وهو على استعداد لعمل أى شىء ليغتنى .

- بلتزار رجل يحب الناس ، وقد وفدوا إلى بيته بأعداد كبيرة ليشاهدوا

القفص، وكان بينهم أطفال كثيرون ، أما بيت «مونتييل» فقد قفل بابه لمنع الناس من الدخول .

- ويبلغ البخل بمونتييل أن يرفض شراء القفص الذى صُنع خصيصاً لابنه ، ويبلغ الكرم ببلتزار أن يقدم هذا القفص لابن «مونتييل» كهدية عن طيب خاطر ، ثم إن «بلتزار» يطلب شراباً لكل من كانوا فى صالون البلياردو احتفالاً «ببيع» القفص ، ولايرضى لنفسه أن يشهر بمونتييل وبخله ، أو أن يحكى تفاصيل ما وقع بينهما .

- «وبلتزار» لم يكن لديه سبب واحد يدعوه للخوف . أما «مونتييل» فكان رجلاً حذراً ، وكان ينام بدون مروحة كهربائية ؛ ليتمكن خلال نومه من مراقبة ما يدور فى البيت .

ونتيجةُ هذه المقارنة ليست فى صالح «مونتييل» كما هو واضح ، بل هى فى صالح بلتزار .

على أن فى القصة شخصية أخرى أراد المؤلف عن طريقها أن يبرز مثالب «مونتييل» ، وهى شخصية الدكتور «جيرالدو» ، إن هذا الطبيب ، بخلاف «مونتييل» الذى سمع بنبأ القفص ولكنه لم يكترث له ، كان معجباً بالقفص، وكان يُعده «مغامرة من مغامرات الخيال» ، وكان يعتز ببلتزار ويقول إنه كان من الممكن أن يكون مهندساً معماريًا فَذًّا . وكان راضياً عن الحياة ، محبًّا لزوجته المقعدة . أما «مونتييل» فإن مقابلته لبلتزار ولهجة حديثه معه لا يدلان على أنه يُكن له أدنى تقدير أو احترام ؛ لذلك فإن طريقة معاملته لزوجه ولابنه لاتدل على أنه إنسان عطوف ، حتى على أقرب الناس إليه . والطبيب رجل فقير لايملك من المال مايسمح له بشراء القفص .

أما «مونتييل» فقد كان غنيًّا ، وكان باستطاعته أن يشترى القفص لابنه ، ولكنه تعوَّدَ ألاَّ يشترى شيئاً إلاَّ إذا كان فى استطاعته بيعه بربح . وأخيراً فإن الطبيب دَمِثُ الأخلاق ، حلو المعشر ، لم تبدر منه بادرة غضب ، ولا كلمة فيها أقل إساءة لبلتزار حين رفض هذا أن يبيعه القفص ، بل أثنى على القفص وخرج وهو يبتسم ، أما «مونتييل» فكان فظًّا فى كلامه مع «بلتزار» ، ولم يسمح له حتى بفرصة الرد عليه .

لقد كان «بلتزار» لايشعر بالارتياح بين الأغنياء ، وكان يخالجه حيالهم دائماً شعور بالرثاء ، وكان حين يدخل بيوتهم يجد صعوبة فى التحرك بدون أن يجر قدميه . والطريقة التى عالج بها ماركيز موضوع هذه القصة تدل على أنه ـ بدوره ـ لم يكن يحب الأغنياء .

أرملـــــة مونتييـــــل :

هذه القصة ـ إن جاز أن نَصِفَها بهذا الوصف ـ تكمل القصة السابقة . وقد أطلق المؤلف عليها اسم «أرملة مونتييل» وكان بإمكانه أن يسميها «ثروة مونتييل» فإن محورها فى الواقع هو هذه الثروة : كيف تكونت ، وما الذى ترتب على جمعها فيما يتعلق بأسرة صاحبها وبالمجتمع الذى يحيط به ، وما آلت إليه ، وأحوال أرملة صاحبها بعد وفاة زوجها .

لقد كان «مونتييل» فى الأصل صاحب مضرب للأرز فى البلدة الصغيرة ، وكان الناس يرونه وهو جالس أمام مضرب الأرز حافى القدمين ، وقد كسب مبلغاً كبيراً فى اليانصيب ، وأهدى إلى كنيسة البلدة تمثالاً بالحجم الطبيعى للقديس «خوزيه» وفاءً بنذر نذره ؛ لهذا ولأنه كان يتردد على الكنيسة صباح كل يوم أحد ـ اعتبره الناس متديناً . . وعُين عمدةٌ جديد للبلدة فى عهد

الدكتاتورية كان شاويشاً سابقاً فى الشرطة ، وكان يحمل تعليمات صريحة بتصفية المعارضة ، واحتاج العمدة إلى جاسوس يدله على أعضاء المعارضة المطلوب تصفيتهم ، ووجده فى شخص «مونتييل» ، واستمر التعاون بين «مونتييل» وبين العمدة خمس سنوات ، ولقى كثير من الفقراء من خصوم «مونتييل» مصرعهم خلال هذه الفترة ، أما خصومه من الأغنياء فكان العمدة يأمر جنود الشرطة بإطلاق النار على أبواب بيوتهم ثم كان يمنحهم مهلة لمغادرة البلدة . وكان «مونتييل» يشترى تجارتهم وأراضيهم وبهائمهم بالثمن الذى يحدده هو ، أى بأبخس ثمن ، وأَثرى نتيجة لذلك ثراءً فاحشاً، فأصبح أغنى وأقوى رجل فى البلدة ، واستطاع بنفوذه أن يُعين ابنه فى السلك الديبلوماسى ، كما استطاع بثروته أن يرسل ابنتيه إلى فرنسا للدراسة .

ولم تتنبه زوجة «مونتييل» التى كانت امرأة تقية طيبة القلب ، ولاتعرف من أمور الدنيا شيئاً ـ إلى الدور الذى كان يقوم به زوجها فى عمليات القتل والطرد التى كانت تحدث فى البلدة ، وكانت تستنزل الرحمة على أرواح مَنْ يُقْتَلُون ، وتحقد على العمدة وتعتبره مجرماً ؛ لأنه ينكل بالناس ، ويتسبب فى خراب بيوتهم ، وكانت تحسب أن زوجها حين يشترى أملاك الأغنياء الذين يصدر الأمر بإجلائهم قهراً عن البلدة كان يشتريها بأضعاف ثمنها ، وكانت تؤنبه على التضحية بماله ، وتعتبره قِدِّيساً لأنه يؤثر غيره على نفسه ، وما درت أنه كان حين يجتمع مع العمدة فى مكتبه تحت سقفها إنما كان يدبر معه المذابح وعمليات التخلص من المعارضين ، ومن الأغنياء الذين كان يطمع فى الاستيلاء على أموالهم . وكانت تتوهم بسذاجة أن زوجها من الشخصيات المحبوبة فى البلدة ، ومادرت أن أهل البلدة ـ الذين كانوا

يعلمون عنه مالا تعلم ـ كانوا يكرهونه ويلعنونه ويتربصون به الدوائر .

ومات «مونتييل» فجأة ميتة طبيعية ، وكان أهل البلدة يتوقعون أن يوافيه أجله برصاصة من أحد أعدائه العديدين . ولم يحضر جنازته سوى أعضاء حزبه وكنيسته ، ولم تفتح فى بيوت جيرانه نافذة واحدة لمشاهدة تشييع جثمانه . واعتبرت أرملة «مونتييل» القرية جاحدة ناكرة للجميع ، وبقيت فى بيتها تقرض أظفارَهَا وتقتات على الغيظ والضغينة ، وتنعى سوء حظها .

واعتمدت الأرملة فى إدارة تركة زوجها وأمواله على تابع زنجى عجوز كان يعمل فى خدمة زوجها ، ولم يكن لهذا التابع خبرة بإدارة الأعمال ، فأرسل لابن «مونتييل» فى ألمانيا يطلب منه الحضور ، ولكنه كتَبَ يقول : إنه يخشى إنْ حَضَر أن يتعرض للقتل .

وبارت تجارة «مونتييل» وتبددت ثروته ، وذَكَر التابع لأرملة «مونتييل» أنها تجلس على خراب . وساءت صحة الأرملة ولم يعد لها من عزاء سوى ابنتيها اللتين كانت تراسلهما كل شهر . ولم تُبْدِ الابنتان بدورهما أى رغبة فى العودة إلى بلدهما ، وكانتا تقولان : إنه لم يعد فى مقدورهما أن تعيشا فى بلد همجى يقتل الناس فيه لأسباب سياسية . وفاضت روح أرملة «مونتييل» ذات مساء وهى غارقة فى النوم ، وكان آخر عهدها بالدنيا رؤيا رأت فيها «الأم الكبيرة» تُنبئها فيها عن علامة الموت .

يوم بعد يوم السبت :

تثير قصة العصافير التى تحدثنا عنها هذه القصة لدى القارىء عدة تساؤلات : أَهِىَ مِنَ القصص الخرافية التى كان ماركيز يسمعها من قريباته

ومن خادمات بيت جده الهنديات الحمر وهو حفيد؟ أم هى قصة مستلهمة من الكتاب المقدس الذى يتحدث عن بلاد ابتُلى الناس فيها بالضفادع والجراد والقمل ؟ أم هى قصة متأثرة بفيلم «هتشكوك» الذى تُغِير فيه أسرابٌ من الطيور المتوحشة على إحدى المدن الأمريكية الصغيرة ؟ أم هى ترمز إلى شىء آخر ! .

لقد رجعنا إلى قاموس الرموز الصادرة عن دار «روبير لا فوق / جوبيتر» فوجدنا شروحاً مطولة لما ترمز إليه أنواع مختلفة من الطيور ، كالصقر، والبطة، والطاووس ، والهدهد ، والحدأة ، واليمامة ، والبومة ، والكروان ، كما وجدنا شرحاً عاماً فى أكثر من أربع صفحات ترمز إليه العصافير فى مختلف العقائد، وعند مختلف الشعوب ، وفى هذا الشرح أن العصافير ترمز عموماً إلى العلاقات بين الأرض والسماء ، وأن العصفور هو الرمز العكسى للحَيّة ، فهو يرمز للعالم السماوى، فى حين ترمز الحية للعالم الأرضى . . وأن الطيور لا ترمز بصفة عامة إلى الحالات الروحية ، والملائكة ، وحالات الإنسان العليا ، وأن أحد الشعراء قد قال : إن الطيور تحفظ بيننا شيئاً من نشيد الخليقة . وإن أقدم نصوص الديانة الهندية تقول : إن العصفور يرمز لمشاعر المودَّة التى تحملها الآلهة للبشر ، وإن العصفور عند الصليبيين هو مبعوث الآلهة والعالم الآخر ، وإن كلمة الطائر أو العصفور باللغة اليونانية رمز للنبوءة ولرسالة السماء .

وهناك قرية أخرى تشير إلى أن المعنى الرمزى هو المقصود ، فقد ذكر المؤلف أن القس أنطونيو إيزابيل كان فى الفترة التى قضاها دارساً بمدرسة اللاهوت وهو شاب يقرأ دواوين الشعراء وأعمال كُتَّاب المسرح الكلاسيكى ،

وقد كان من هؤلاء مؤلف اسمه «أرِسْتُوفان» (٤٥٠ ـ ٣٨٥ ق.م) ، ألف مسرحية رمزية بعنوان «الطيور» .

ومما يعزز عنصر الرمزية فى هذا التفسير أن عصافير القصة ليست كسائر العصافير، فقد أُوتيت ـ برغم ضآلة حجمها ـ القدرة على تحطيم أسلاك النوافذ ، وهى فى العادة أسلاك متينة سميكة ، توضع على النوافذ لحماية البيوت من اللصوص ، وهى لاتفعل ذلك بحثاً عن طعام تعرف أنه موجود داخل البيوت ، أو لتحتمى من خطر ، بل لتموت من الداخل .

ويؤكد هذا التفسير أيضاً أن الأب أنطونيو إيزابيل ، الذى يحلو له أن يرتاد متاهات الميتافيزيقا أدرك ـ حين أمسك بالطائر الذى وجده على أريكة المحطة من مخلبيه الصغيرين ورفعه إلى مستوى عينيه ، وأداره وأنعم النظر إليه ـ حقيقة مايجرى فى القرية ، وأن يكون بصورة يشوبها كثير من الغموض، وأنه كان أول من شم رائحة الطيور الميتة وربط بينها وبين مكر الشيطان ومهارته فى التسلل إلى قلب الإنسان عن طريق حاسة الشم ، كذلك فإنه فى اليوم التالى لزيارته للأرملة «ربيكا» أخذ يتساءل عمّا إذا لم تكن العصافير الميتة نذيراً من النذر التى وردت فى الكتاب المقدس عن نهاية العالم.

هذه العصافير الميتة التى أمطرتها السماء على بلدة «ماكوندو» هى إذن ـ على الأرجح ـ رمز لغضب السماء على هذه البلدة ، ولكن . . ماهو السر فى غضب السماء على «ماكوندو» ؟

الاحتمال الأكبر هو أن يكون هجر الناس للكنيسة هو هذا السر . . لقد كإفر الناس عن الاختلاف إلى الكنيسة وتأدية الشعائر الدينية فيها بدعوى أن

الأب أنطونيو إيزابيل قسيس طاعن فى السن ، مخرف ، وأنه ادَّعَى أنه رأى الشيطان ثلاث مرات .

على أن الصورة التى يعطيها المؤلف عن هذا القسيس الشيخ لاتبرر انصراف الناس عنه وعن الدين ، إن أهل البلدة لاينكرون أنه رجل طيب خدوم . وإذا كانت الكنيسة الرسمية قد أخذت عليه إفراطه فى الخيال والشطحات التى كانت تظهر فى مواعظه ، وجرأته على تفسير النصوص الدينية ، فقد عاقبته على ذلك بما فيه الكفاية حين حرمته من رتبة الأسقف وعينته فى هذه البلدة الصغيرة الفقيرة . وهو رجل رحيم القلب يشفق حتى على الطيور الميتة . وهو رجل قليل الأكل ، متقشف فى لبسه ولايهتم بمتاع الدنيا . وهو دائم التفكير فى الخلق والخليقة ، لاينام إلا لماماً ، ولايكف عن إعداد مواعظه وإلقائها فى كنيسة بغير جمهور ، ويخف إلى جوار من يتأهبون للقاء ربهم ساعة الاحتضار . وهو قسيس متسامح لا يحقد على أهل القرية، بل يعتقد بسذاجة أن انغماسهم فى عادات العصر لا سوء طويتهم هو الذى يمنعهم من حضور قداسه . وهو رجل عميق الإيمان مُسَلم بقَدر، لايسخط على شىء ، ولايتبرم بشىء ، حتى حين يسقط على الأرض سقطة نظن أنه لن يقوم منها .

هو ـ على الجملة ـ إنسان خَيِّر ، وليس كبر السن أو كثرة النسيان والسرحان أو التخريف الناتج عن الشيخوخة بما فى ذلك ادعاء رؤية الشيطان ـ جريرة ، فهى أعراض خارجة عن إرادته . وهو لم يُذنب ، ولم يُخطىء ولم يظلم ، ولم يعص الله فى شىء ، فإذا أعرض الناس عنه فهم المخطئون ، وما أخذه الناس عليه مجرد ذرائع باطلة لعدم أداء الفرائض

الدينية ، ولعدم تقديم الصدقة الأسبوعية للكنيسة ، وقد غضبت السماء عليهم لذلك فأمطرتهم بوابل من العصافير الميتة .

ولم تسقط عصافير ميتة فى الكنيسة ذاتها ، وإنْ سقط واحد منها فى الغرفة الملحقة بها ، وواحد آخر فى طرقة بيت القسيس ، وسقط عصفور فى المحطة ، وعصفوران فى الفندق ، وسقطت عصافير كثيرة فى أماكن أخرى . سقطت كل هذه العصافير ميتة بدون أن تُحدث خسائر . ولكن العصافير أحدثت أضراراً فى مكانين هما : بيت الأرملة «ربيكا» ، ومكتب العمدة فى دار البلدية ، فقد حطمت أسلاك نوافذ الأرملة ومكتب العمدة ، ونفذت إلى داخل البيت والمكتب حيث ماتت ، ولم تتحدث القصة كثيراً عن العمدة، ولكنها تحدثت عن الأرملة «ربيكا» ، وسلطت عليها أضواءً من عدة جوانب لتظهرها على حقيقتها ، ولكى نفهم نحن السبب أو الأسباب التى جعلت العصافير تتجه إلى بيتها وتفتحه بعنف ، وبأعداد لم تشاهد فى أماكن أخرى .

إن السيدة «ربيكا» امرأة تعيش مع خادمة وحيدة فى بيت كبير به تسع غرف نوم غير باقى الغرف ، وهى امرأة غنية تخشى على بيتها من السرقة ، فتضع فى نوافذه أسلاكاً تحميها من سطو اللصوص . وهى سيدة ذات حسب ونسب ، فقد كان جدها الأكبر ممن قاتلوا أثناء حرب الاستقلال (فى القرن الثامن عشر) فى صفوف الجيش الإسبانى ، وابن عمها هو الكولونيل «أوريليانو بوبنديا» ، وهى تَمُتُّ بِصِلَة قُربى لأسقف الكنيسة الذى يعيش فى العاصمة ، هى ـ باختصار ـ سيدة من الأعيان ذات كبرياء وإحساس بمركزها الاجتماعى الرفيع ، وكان أول تفسير خطر على ذهنها حين تنبهت إلى تحطيم سلك نوافذها هو أن أولاد الحى قذفوا هذه النوافذ بالحجارة ، وهو

ما يرجح أنها كانت مكروهة من أبناء الحى . وكان أول شعور انتابها لدى تحطيم نوافذ بيتها هو الشعور بأن كرامتها قد جُرحت، ولم تفكر فى الخروج لهؤلاء الصبية ومخاطبتهم ، أو إرسال خادمتها إليهم ، بل كان مافكرت فيه هو الذهاب إلى العمدة وتقديم شكوى ضدهم . وأخيراً فإن مأساة العصافير التى ماتت بالجملة فى بيتها لم تحرك وتراً واحداً فى مشاعرها .

هذه هى صورة الأرملة «ربيكا» كما يتضح من وصف المؤلف فى أول القصة ، وقد ألقى المؤلف على هذه الصورة أضواءً جديدة بعد ذلك بوصف مشاعر الأب أنطونيو إيزابيل حيال حاجتها ، ورأيه فيها . لقد كانت الأرملة «ربيكا» تجيب إجابات مبهمة حين كان القسيس يحاول أن يستلم منها ساعة الاعتراف عن أسباب وفاة زوجها ، ولايستبعد أن يكون القسيس قد استنتج من غموض هذه الإجابات أنها هى التى قتلته ، أو أنها اشتركت فى قتله . ولم تكن هذه هى الجريمة الوحيدة التى يحتمل أن تكون الأرملة قد ارتكبتها ، فقد سمعت فى بيتها منذ عشرين عاماً طلقة من مسدس فر بعدها «خوريه أركاديو» أخو الكولونيل « أورليانو بوميديا » مسرعاً ، ولم تتعرض الأرملة من جانب السلطات لأى تحقيق أو مُساءلة عن هذين الحادثين ، نظراً ـ بطبيعة الحال ـ لغناها ونفوذها .

ولم يكن الأب «أنطونيو» يستريح لزيارة الأرملة «ربيكا» برغم أنها كانت من عِلْية القوم ، وهو لايذكر أن زيارة من زياراته لبيتها خلال السنوات الثلاثين الأخيرة دامت أكثر من خمس دقائق ، كذلك فإنها ، من جانبها انقطعت عن التردد على الكنيسة لحضور القداس الأسبوعى ، كما انقطعت عن الاعتراف أمامه إلاَّ مرة فى السنة . وهناك ما هو أكثر من ذلك ، فقد وصل بها الأمر أن أرسلت إلى قريبها الأسقف لتطلب تعيين قسيس آخر

شاب مكانه (وكان ابن عم الأرملة يقول : إن هذا الأسقف لم تطأ قدمه بلدة «ماكوندو» لكيلا يلتقى بها) . والمرة الأخيرة التى زار فيها القسيس «أنطونيو إيزابيل » الأرملة «ربيكا» كانت يوم أن عثر على عصفور فيه رمق حياة ، فطرق بابها ليطلب منها أن تغمره ـ أى العصفور ـ فى شىء من الماء ، وقد زادته هذه الزيارة نفوراً منها ، فقد بدا له ازدحام صالة بيتها بالأثاث والتحف ، وهذا ـ فى نظره ـ يُعَدُّ دليلاً واضحاً على شهوة التملك ، وهو شىء يرى القسيس أنه مستهجن لدى امرأة تربطها رابطة القُربى بأسقف تكره ديانته الغِنَى والأغنياء . وبرغم أن الأب «أنطونيو» حاول أن يثير شفقة الأرملة على الطائر المحتضر بقوله : إن حياة الحيوان لاتقل جمالاً عند الرب عن حياة الإنسان ، فقد لاحظ من حركاتها أنها مهملة ، وأن قلبها ليس فيه تقوى ، وأنها لاتعبأ بحياة الطائر ، بل لقد سمعها تقول : إنها ما كانت تهتم لموت الطيور على بكرة أبيها لولا الضرر الذى حدث لأسلاك نوافذها . وبدا للقس أنه لم ير قط قلباً أقسى من قلبها ؛ ولذلك بادر بترك بيتها الذى كان يشم فيه دائماً رائحة البارود .

هذه الأضواء الجديدة التى يلقيها المؤلف على صورة الأرملة «ربيكا» تبرز جوانب أخرى سلبية من شخصيتها ، وتوضح مدى بُعدها عن المثل الأعلى المسيحى .

وقد سَلَّطَ المؤلف أضواءً أخرى على الأرملة بالتحدث عن امرأة غيرها ، هى أم الشاب الذى رآه القس فى الكنيسة . لقد كانت هذه المرأة أرملة هى الأخرى ، وكانت تعمل مُدَرِّسَة وناظرة مدرسة أطفال فى قرية فقيرة ، ليس فيها مياه جارية ولا كهرباء ، وكانت هذه المرأة تحب مهنتها ، وتود البقاء فيها إلى سن التقاعد العادى ، ولكنها أُصيبت بروماتيزم عاقها عن

التدريس، فاعتزلته بعد ثمانية عشر عاماً على كُره منها ، وبقيت فى بيت كانت تكتفى فيه بتربية ابنها وبعض الدجاجات ، وكانت برغم شظف معيشتها راضية عن حالها ، قانعة بمصيرها ، وكانت تقول لابنها : إن قريتها الصغيرة الفقيرة هى أجمل بلد فى العالم .

هذه المرأة هى الصورة العكسية تماماً لـ «ربيكا»، فهى لم ترتكب جريمة مثلها ، وهى برغم مرضها وفقرها المدقع ـ راضية عن الدنيا وعن الناس ، وهى تحب العمل وتضيق بالراحة ، وتجد سعادتها فى الأمومة والعطاء ، هى صورة إذا قُورنت بصورة «ربيكا» رأى المرء فيها من النُّبل والجمال قَدْرَ مايراه فى صورة «ربيكا» من البشاعة والخِسَّة والغرور .

وقد كان ابن هذه السيدة العاملة مثل أمه فى صفاء النفس ونقاء السريرة، فلم يمنعه ماسمعه عن تخريف القس «أنطونيو إيزابيل» من الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد حين وفد على البلدة . وقد قُدِّرَ له أن يشهد فى هذه الكنيسة حدثاً أشبه بالمعجزة ، فقد جاءت الأرملة «ربيكا» كما جاء أهل البلد لحضور القداس بعد مقاطعة سنوات عديدة ، وكان الذى جاء بهم هو نبأ سمعوه عن موعظة القسيس الذى أقسم أنه رأى اليهودى التائه (واليهودى التائه أسطورة مسيحية قديمة مؤداها : أن يهوديًا كان يهزأ بالسيد المسيح ويسخر منه وهو يُعَذَّب ، فحلت به اللعنة ، وحُكم عليه بأن يظل هائماً على وجهه فى الأرض إلى أن يعود المسيح عودته الثانية قبل أن تقوم الساعة). وكان لنبأ إعلان «أنطونيو إيزابيل» أنه رأى اليهودى التائه وقع الصاعقة على أهل «ماكوندو» .

ولم يتشكك أحد هذه المرة فى أقوال القسيس أو يتهموه بالتخريف كما اتهموه حين قال إنه رأى الشيطان ، بل أدرك الجميع الفزع من أن تحل

الساعة وهم فى خطيئة ، فبادروا إلى الذهاب إلى الكنيسة وتقديم الصدقة بأمل أن تُغْفَر لهم ذنوبهم قبل حلول يوم القيامة ، الذى يعتقدون أن ظهور اليهودى التائه من علاماته . وأمر القسيس بجمع هذه الصدقات ، ولكنه لم يأخذها للكنيسة كالمعتاد ، بل تبرع بها للشاب الغريب الذى جاء للكنيسة من تلقاء نفسه . وبرغم أن القسيس كان مستاءً لأن هذا الشاب لم يخلع قبعته فى الكنيسة كما هو الواجب ، فإنه أحبه لأنه حضر القداس ، ورق لحاله عندما رأى أنه إنسان انطوائى يغلب عليه الحزن ، وأن ملابسه متسخة وغير مكوية ، فقرر أن يكافئه .

زهـــور صناعـــية :

هذه قصة من المحتمل أن تكون فى خطوطها العريضة على الأقل قد بُنيت على واقعة حقيقية شاهدها المؤلف وهو طفل فى بيت جده لأمه ، الذى كانت تعيش فيه جدته الكفيفة مع بناتها ، والذى كانت تَفِدُ إليه قريبات كثيرات .

وهى قصة فتاة وجدتها الكفيفة ، وتكمن طرافة القصة أساساً فى أن بين الفتاة والجدة ما يُشبه الصراع . إن عند الفتاة سرًّا شخصيًّا ، هو علاقتها بشاب ، تريد أن تحتفظ به لنفسها ، ولكن جدتها الكفيفة تطلع على هذا السر . وتتصور الفتاة حين تخبرها جدتها بشىء كانت تظن أنها تجهله أن هذه الجدة مبصرة ، ولكن الواقع أن ذكاء الجدة وحصافتها وقوة ملاحظتها وقدرتها على التحليل هى التى سمحت لها بالوقوف على أمور عملت الحفيدة بشتى الطرق على إخفائها .

لقد استطاعت الجدة ـ برغم عاهتها ـ لا أن تتحرك فى أنحاء البيت بدون صعوبة أو عون من أحد فحسب ، بل أن تقوم ببعض الأعمال الصغيرة التى

تحتاج فى الأحوال العادية إلى إبصار ، فهى تغسل الغسيل وتنشره ، وهى تسقى الزرع وتُقلمه ، وهى تضع القهوة على الموقد وتصبها فى الفناجين ، وهى فى الوقت ذاته تلحظ كل مايجرى فى البيت أكثر مما تلحظه ابنتها المبصرة، أُم الفتاة . إن هذه الأم مثلاً لاتعرف أن ابنتها على علاقة غرامية بشاب ، ولاتعرف أنها تتبادل مع هذا الشاب الرسائل ، ولاتعرف بالتالى عن تطورات القصة شيئاً . أما الجدة فهى على علم بهذه التطورات ؛ لأنها تراقب الفتاة فى غدوها ورواحها ، كما كانت تراقبها فى غرفة النوم التى كانت تجمع بينهما . وكانت تعرف أنها حتى بعد إطفاء نور الغرفة ، كانت تكتب رسائل على ضوء بطارية جيب صغيرة ، وكانت تفهم من متابعة أنفاس حفيدتها أن ماتكتبه هو خطابات غرامية .

وقالت الفتاة لجدتها فى يوم الجمعة الأول من الشهر إنها ذهبت إلى الكنيسة لحضور القُداس ، ولكن الجدة كانت تعلم أنها لم تذهب إلى الكنيسة ، وأنها إنما خرجت لمقابلة الشاب الذى كان يُراسلها ، وأَسَرَّتِ الفتاة بقصة لقائها مع هذا الشاب لصديقتها ، وكانت تحسب أن الجدة تجهل كل شىء عن الموضوع ، ولكن الجدة عرفت بها لأنها راقبت حفيدتها بسمعها حين خرجت من البيت ، ثم عادت بعد فترة قصيرة ، ثم دخلت الغرفة التى فيها الدولاب ، ففتحت الدولاب ، ثم أحد الأدراج الموجودة ، بداخله ، ثم صندوقاً أخرجته من هذا الدرج ، واستخدمت فى ذلك ثلاثة مفاتيح تحملها تحت «بلوزتها» ، ثم أقفلت الصندوق ووضعته فى الدرج ، وأقفلت الدولاب ، ثم ذهبت إلى المرحاض للمرة الثانية ، وكان من عادتها ألاَّ تذهب إليه إلاّ مرة واحدة فى الصباح . واستنتجت الجدة من هذا أن

الفتاة حين خرجت التقت بصديقها ، وحين عادت ألقت الشىء الذى أخرجته من الدولاب فى المرحاض .

واغتاظت الفتاة من جدتها حين اكتشفت أنها علمت بسرها ، فقالت لها كلمة نابية ، واستنتجت الجدة من هذه الكلمة ـ التى لم تسمع مثلها من حفيدتها من قبل ـ كذب ما كانت تقوله هذه الحفيدة لتفسير تحركاتها .

كل هذا وهى هادئة رصينة ، لاتغضب ولاتتغير مشاعرها نحو حفيدتها، بل كانت تنصحها بكتمان أسرارها عن صديقتها . وهى لاتفضح هذه الحفيدة أمام أمها ، بل تصون سرها . ويصل بها الأمر حين تسألها ابنتها عمّا حدث بينها وبين الحفيدة أن تصف نفسها بخفة العقل .

جنازة الأم الكبيرة :

هذه القصة أشبه بالأحلام ، أو بالأساطير ، وهى قصة ليس فى أحداثها من الواقع شىء ، وإن كانت خلفيتها تُعد واقعاً حقيقياً ، وهى كالأساطير والأحلام ، تلغى فروق الزمان والمكان فى مجرى الأحداث ، كما لاتتقيد بطبيعة الأشياء ، فتجمع بين المتناقضات ، أو تربط بين أمور لايربط بينها رباط ، وتتخطى المسافات والأحجام ، وتعمد إلى التهويل والمبالغة ، وتجافى المنطق، وتطلق العنان للخيال .

وقد أراد المؤلف أن يعبر فيها عن فكرة أساسية ، هى أن فى كولومبيا ـ وفى البلاد التى تشبهها ـ تحالفاً بين الأثرياء والحكومة من جهة ، وبينهم وبين الكنيسة من جهة أخرى ، وذلك بغض النظر عن مدى التزامهم ـ أى الأثرياء ـ بالواجب الوطنى ، وبأحكام القانون والدين والأخلاق .

والجديد فى أسطورة «جنازة الأم الكبيرة» العصرية هو أنها ـ على الرغم من

كونها تدور حول واقعة مؤسية هى الموت ـ لاتتخذ شكل المأساة ، ولاتتحدث عن أشياء جادة ومخيفة كما هو المعتاد فى الأساطير القديمة ، بل تعالج موضوعها معالجة ساخرة تنسحب على أبطالها الثلاثة : المرأة الغنية ، والهيئة الحاكمة ، والكنيسة ، وتخص الهيئة الحاكمة والكنيسة بقدر من السخرية يفوق ذلك الذى وصفت به المرأة الغنية .

والشخصية الرئيسية فى هذه القصة ـ أى الأم الكبيرة ـ امرأة بذل أسلافها «جهداً خارقاً ليكفلوا سيادة جنسهم »، وكانوا «هم الذين وضعوا الهيكل القانونى للبلد» . . وكانت تمثل أولوية السلطة التقليدية بالنسبة للسلطة العارضة ، وهيمنة الطبقة الراقية على الرعاع ، وعُلو العلم الربانى على ارتجال أهل الدنيا . وقد بذلت الأم الكبيرة جُهْدَ أسلافها للاحتفاظ بالسيادة ، واحتفظت بها فعلاً بفضل أملاكها ، التى كانت «المصدر الوحيد لعظمتها وسلطانها » ، وهى أملاك مُنحت لأسرتها بمرسوم ملكى فى عهد الاستعمار الإسبانى تبلغ مساحتها مائة ألف هكتار (أى مليون كيلو متر مربع) ، وعلى عدد لا يُحصى من الحيوانات ، وثلاث جرار مَلأًى ، بالعملات الذهبية . وقد جعلت هذه الأملاك الأم الكبيرة مركز الثقل فى «ماكوندو» ، شأن إخوتها وآبائها ، وآباء آبائها ، ممن سيطروا على مقدرات البلد طوال قرنين من الزمان، وكان لها حق وراثى على حياة الناس وأملاكهم، وأصبحت تبدو أغنى وأقوى من أية امرأة فى العالم .

وكانت الأم الكبيرة وأفراد أسرتها يرتكبون مخالفات وطنية وقانونية جسيمة، فقد كانوا يزوِّرون الانتخابات بطرق شتى ، منها استخدام بطاقات انتخاب زيفوها تُمْلأُ بأسماء ناخبين ماتوا خلال قرن من الزمان .

وكانت الأم الكبيرة ظالمة ، تُعَيِّنُ من تشاء فى الوظائف ذات المرتب الكبير والعمل القليل ، والوظائف التى يتقاضى أصحابها أجوراً بدون مقابل من عمل ، وفى منح المزايا والمعاشات لرجال الدين وغيرهم ، وكانت تحظر على غير طبيبها الاشتغال بمهنة الطب فى المدينة . وكانت متأففة : تساهم سرًّا فى تسليح أنصارها وقت الاضطرابات ، وتخف علناً لنجدة ضحاياها ، وكانت جاهلة : تؤمن بطبيب لايؤمن بالطب الحديث .

ولم تفعل الأم الكبيرة شيئاً للنهوض بحال الزُّرَّاع الذين يعيشون هم وأسرهم فى الضياع الشاسعة التى تملكها ، ولا لاستئصال الملاريا من قُراها ، ولا لإصلاح الأرض البور واستغلالها ، بل كانت تكتفى بتحصيل ما يأتى به الزُّرَّاع ومستأجرو الأرض من عائدها وثمارها ، وتترك كل شىء على حاله .

وكانت طريقتها فى التحبب إلى من يخضعون لسلطانها هى أن تقيم لهم بمناسبة عيد ميلادها احتفالات صاخبة حافلة بدنان الخمر ، وبما لذ وطاب من أنواع الطعام .

وكان للأم الكبيرة بعض الأعداء كالمحاربين القدماء ، ولكنهم لم يكونوا ذوى خطر ، أما من يُجِلُّونها فقد كانوا كثيرين . لقد اقترح رئيس الجمهورية على وزير الحربية فى احتفال تَخَرُّج دفعة جديدة من الضباط ـ حين تلقى نبأ وفاتها ـ أن يطلب من الحاضرين الوقوف دقيقة حداداً عليها ، وحين دخل رئيس الوزراء إلى مكتبه كان وزراؤه وقوفاً وقد وضعوا إشارة الحداد وبَدَوْا واجمين وشاحبين أكثر من المعتاد ، وقرر رئيس الجمهورية إعلان الحداد الوطنى تسعة أيام تكريماً لها ، باعتبارها بطلة من فئة الأبطال الذين بذلوا دماءهم فداء للوطن فى ميدان القتال . وأعلنت حالة تشبه حالة الطوارىء

فى أوساط السياسة والمال العليا ، ولم يذكر أحد شيئاً عن الانتخابات التى زيفتها ، ولا عن استخدامها نفوذها لخدمة محاسيبها ، ولا عن إهمالها شأن الزُرّاع واهتمامها بمصالحها ومصالح أسرتها دون سواها ، وحضر جنازتها رئيس الجمهورية ، ورئيس الوزراء ، والوزراء ، وأعضاء لجان البرلمان ، وقُضاة المحكمة العليا ، ومجلس الدولة والأحزاب التقليدية ، وممثلو البنوك والتجارة والصناعة ، وجميع من يمثلون سلطة الدولة ، وحضرها أيضاً العسكريون .

وكان رجال الكنيسة أيضاً ممن كرموا الأم الكبيرة أعظم تكريم برغم غناها الفاحش وحرصها على نفوذها وعلى سيادة جنسها وعدم صرفها على الفقراء (فى غير الاحتفال السنوى بعيد ميلادها) وسكوتها على فسق أفراد أسرتها وعلى زواج المحارم بينهم . إنَّ شيئاً من هذا لم يمنع الكنيسة من إعفائها من الركوع أثناء القداس ، لا لِمَرَضٍ ألمَّ بها ، بل حفاظاً على ثنيات ثوبها المستورد، كما لم يمنح أن تموت ميتة القديسين بعد أن رتبت شئون روحها مع الأب «أنطونيو إيزابيل» . وقد استولى الفزع على كرادلة روما وعلى البابا نفسه حين علموا بموتها ، وارتجت أوساط رجال الدين ، ودقت نواقيس الكنائس فى كل مكان ، وركب البابا جندوله على الفور وهرول لحضور جنازتها ، وتحمل عناء السفر ومشقة الانتظار أياماً وأسابيع حتى سار فى الجنازة يرافقه كبار أساقفة الكنيسة .

هذه هى القصة التى أراد راويها أن يحكيها في يوم الجنازة «قبل أن يتسع وقت المؤرخين للحضور» . وقد ملأها المؤلف بالمبالغات والتضخيم كوسيلة لإضفاء جو الأسطورة عليها ، فبدأ القصة بعبارة «يا منكرى العالم أجمع» ، وكأن موت الأم الكبيرة حدث عالمى ، ووصف جنازتها بأنها أجل وأعظم

مناسبة جنائزية سجلها التاريخ ، وقال : إنها كانت فى حياتها تملك المياه الجارية وما هطل وماسيهطل من أمطار ، والسنين الكبيسة ، وحرارة الجو ، وإن مناسبة تبوئها مركزها الجديد فى سن الثانية والعشرين لم تكن تتعلق بماضى الأسرة فحسب ، بل بماضى الأمة أيضاً ، وإن صورتها التى ظهرت بعد موتها كان مقدراً لها أن تبقى فى ذاكرة الأجيال القادمة . وإنه بلغ من كثرة الكلام عن الأم الكبيرة فى بلدها أن اجتاز الحدود وعبر المحيط ووصل كالنذير إلى حجرات البابوية فى روما ، وإن ساعة عصيبة من البلبلة والحيرة والارتباك حدثت بسبب وفاتها ، للمرة الثالثة* على مدى عشرين قرناً فى الإمبراطورية المسيحية التى لاتحدها حدود ، وإنه كان من أثر خطب رئيس الجمهورية القوية المتوالية ومناقشات النواب فى البرلمان أن هجر الناس أفراداً وجماعات فى جميع أنحاء العالم مابيدهم وذهبوا لحضور الجنازة ، وإن العالم اضطر إلى الانتظار أياماً عديدة بعد ذلك ، وإن كُلَّ من لهم حيثية فى هذا الزمن أثنوا على الأم الكبيرة ، وإن جنازتها كانت أعظم جنازة فى العالم .

ويمعن المؤلف فى السخرية من الأم الكبيرة فيقول : إن الطبيعة حبتها «ثديين كانا يكفيان وحدهما لإرضاع كل وليد من بنى جنسها» ، وإنها حققت عوامل الأمن الاجتماعى والوفاق السياسى لإمبراطوريتها بفضل حقائب ثلاث ملأى ببطاقات انتخابات مزيفة كانت جزءاً من ثروتها السرية، وإن غيرتها الوطنية أهَّلتها لأرفع مراكز الشرف ، وإن رجال الدولة «رَأَوْهَا نقية طاهرة ، لاسن لها ، مقطرة كالماء الصافى الذى تصنع منه الأساطير » .

وقد وصفها المؤلف وهى مريضة يعالجها طبيبها بأنواع قديمة من العلاج، كالكمادات ، ولزقات الخردل ، وكاسات الحجامة ، والتركيبات

العجيبة، وكالصراصير المحترقة التى تُوضع على موضع الألم من جسمها ، والعلقات التى تُوضع حول كليتيها ، وسخر المؤلف من الأم الكبيرة حين كانت تجلس « بكل وزن أحشائها وسُلطتها » على مقعدها ، ثم حين أدركت أن أجلها قد اقترب ، و «أن الله لن يمنحها شرف أن تقوم شخصيًّا فى معركة حرة بتصفية شلة من الماسونيين الاتحاديين» ، وصورها بعد أيام من موتها ، فجعل أحد نواب الكونجرس المجتمعين ينبه إلى أن «جثتها تمتلىء بالفقاقيع»، مما اضطر الرئيس إلى الأمر بتحنيطها ، كما صورها وهى فى طريقها إلى القبر «حين كان تشبعها بأبديتها فى مادة الفورمول يجعلها لا تدرك مدى عظمتها» . وكانت سخرية السخريات هى أن جنازة الأم الكبيرة ما كادت تنتهى حتى أخذ الأقارب والأبناء الشرعيون وغير الشرعيين يفكون كل ما فى البيت من أبواب وخشب أرضية ، بل يخلعون الأساس الأسمنتى ذاته ليوزعوه على أنفسهم .

أما سخرية المؤلف من الطبقة الحاكمة فقد كان من أمثلتها المجموعة المضحكة المختلطة من الصيغ التى تشكل «الأملاك غير المنظورة» فى ثروة الأم الكبيرة . وإذا كان المؤلف قد قال عن هذه الصيغ إنها كانت تمثل على مدى قرنين من الزمان أساليب التبرير المعنوى لسلطان أسرتها ، فإن الدلائل كلها تشير إلى أنها ـ أو إلى أن معظمها ـ هى فى الواقع أساليب التبرير المعنوى لسلطان الحكومة . وكان من أمثلتها أيضاً سخرية المؤلف من رئيس الجمهورية حين قال إنه لم يكن بحاجة إلى رأى مستشار ليقدر مسئوليته حيال موت الأم الكبيرة ، وإنه ـ إحساساً منه بمصيره التاريخى ـ قرر إعلان الحداد الوطنى تسعة أيام ، وإنه ألقى فى الراديو وفى التليفزيون فى

ساعة مبكرة من الصباح خطاباً مؤثراً قال فيه : إن مراسيم جنازة الأم الكبيرة ستكون مثلاً جديداً يُضرب للعالم .

وقد سخر المؤلف أيضاً من المجلس التشريعى سخرية مرة ، فبدأ بوصف قائمة الكونجرس التى غصت بصور زيتية للأبطال الوطنيين ، وبتماثيل نصفية للمفكرين اليونانيين ، مما يُوحى بأهمية المناقشات التى يفترض أن تدور بين جدرانها ، وقال : إن سيرة الأم الكبيرة اتخذت فى هذه القاعة أبعاداً لم يكن أحد يتصورها . ثم وصف مَنْ يتكون منهم المجلس وصفاً ساخراً فقال : إنه يتكون من قانونيين « مفعمين » ومن قطع الكلام التاريخى الفارغ ، ثم تحدث عن الموضوع الذى كان محور المناقشة فقال : إنه «الصدمة التى أصابت البلد » ، والموت الذى مس نظامه الاجتماعى . وتكلم عن النقطة القانونية التى تتوسط هذا الموضوع الخطير فقال : إنها معرفة ما إذا كانت نصوص الدستور والتشريعات تسمح - أو لا تسمح - لرئيس الجمهورية بحضور الجنازة . ثم تناول المناقشة نفسها فقال : إنها استمرت ساعات لا آخر لها من الكلام والكلام ، والكلام الذى كان يتردد فى أنحاء الجمهورية ، وإن أعضاء الكونجرس حين بُحَّتْ أصواتهم من المناقشات المنفعلة استمروا يتناقشون بالإشارة ، وإن هذه المناقشات استمرت أسابيع وأشهراً لاتنتهى ؛ لأن الهيكل القانونى للبلد لم يكن مُهَيَّأً لمواجهة الأحداث التى بدأت تحدث ، مما اضطر أساطين القانون وفقهاءه إلى بذل كل جهد لاستكناه أسرار النصوص ، واستخدام كل طرق التفسير والقياس والمقابلة بين الصيغ ، وكان الجميع يعلمون أن أحداث هذه الليلة والليالى التالية ستوصف فيما بعد بأنها درس تاريخى ، ليس فقط للروح المسيحية التى ألهمت أهم رجالات الحكومة ، بل ولإنكار الذات الذى ائتلفت بفضله

مصالح متباينة ومعايير متناقضة فيما يتعلق بالغاية المشتركة المتمثلة فى دفن جثمان شخصية من الشخصيات البارزة . .

أما سخرية المؤلف من الكنيسة ورجالها فتظهر فى وصف الطريقة التى حضر لها القس «أنطونيو إيزابيل» إلى جوار الأم الكبيرة . «وهى تظهر أيضاً فى اهتمام الكرادلة والأساقفة والبابا ذاته بموت الأم الكبيرة ، واعتبارهم أن هذا الحدث من الأحداث ذات الشأن التى تمس المسيحية والعالم المسيحى . وتظهر السخرية فضلاً عن ذلك فى كون البابا قد سافر لحضور الجنازة فى «ماكوندو» ، لا على متن طائرة كما هو طبيعى ، بل على ظهر جندول عبر به المحيط فى رحلة صادفته خلالها أشكال لاتحصى من البشر . وسخر المؤلف من البابا أخيراً حين وصف ظروف إقامته فى ماكوندو ، وحرص على أن يذكر أنه أقام فى صالون المجلس البلدى (أى مقر الحكومة المحلية) وقال إنه كان يذوق الأمرين فى الأرَق والعَرق ، وأنه كان يقضى نهاره فى توزيع قطع الحلوى الإيطالية على الأطفال الذين كانوا يقتربون من نافذته لرؤيته .

وتحدث المؤلف فى هذه القصة أيضاً عن الصحافة . لقد نشرت صحف العاصمة صورة مكبرة للأم الكبيرة ، يوم موتها ، على أربعة أعمدة . وخلعَ الكلامُ المطبوع قداسةً خاصة على هذه السيدة «التى قضت نحبها فى مقاطعة يسودها الحر ، وتنتشر فيها الملاريا» . سيدة كان اسمها مجهولاً فى باقى أنحاء العالم إلى أن نشرت هذه الصورة ، وكتبت فى شأن صاحبتها المقالات الطوال . وظهرت هذه الصورة أيضاً فى الصحف الإيطالية ، فأثارت مشاعر الكرادلة والبابا . ونقلت الصحف تفاصيل المناقشات التى دارت فى الكونجرس حول موضوع حضور رئيس الجمهورية الجنازة . ولم يسخر المؤلف من الصحافة سخريته من رجال الحُكم والكنيسة ، ولكنه أراد أن

يذكر من طرف خفى أنها لعبت دوراً كبيراً فى تضخيم الأحداث ، وفى تحول الحدث المحلى الصغير إلى حدث قوى وعالمى .

ملاحظــات عامــة

كتب جارثيا ماركيز مجموعة القصص التى نقدمها فى هذا الكتاب فى أوقات مختلفة وأماكن مختلفة . وفى هذه القصص ـ ولو أنها ، كما نرى، متباينة الطول والموضوع ـ مجموعة من السمات يمكن أن نبدى بشأنها الملاحظات العامة التالية .

صلة بعضها ببعض وبأعمال المؤلف الأخرى :

بلدة «ماكوندو» الخيالية التى تدور فيها أحداث بعض هذه القصص هى البلدة التى تدور فيها أحداث رواية «مائة سنة من الوحدة» ورواية أوراق الشجر الكثيفة» وبعض روايات المؤلف الأخرى . كذلك فإن بعض أشخاص قصص هذه المجموعة وبعض أحداثها وبعض من ورد ذكرهم فيها يعودون إلى الظهور فى قصص أخرى من نفس المجموعة ، أو فى روايات أخرى . وهذه بعض الأمثلة :

ـ اسم الكولونيل «أوريليا نونيديا» يرد فى عديد من قصص المؤلف ورواياته فالغَدارة التى استخدمتها الأرملة «ربيكا» فى «قيلولة يوم الثلاثاء» كانت غدارة هذا الكولونيل . وقصة «يوم بعد يوم السبت» تتحدث عنه كذلك . وقد واجهت جدة الأم الكبيرة لأنها فى «جنازة الأم الكبيرة» بمفردها داورية يقودها الكولونيل أوريليانو ، وهذا الكولونيل من الشخصيات الرئيسية فى رواية «مائة سنة من الوحدة» التى هى أعظم روايات المؤلف .

وقد وصل الطبيب إلى قرية ماكوندو فى رواية «أوراق الشجر الكثيفة» ومعه خطاب من هذا الكولونيل .

ـ الأب «أنطونيو إيزابيل» شخصية أساسية ، فى قصة «يوم بعد يوم السبت» وهو القسيس الذى استدعته الأم الكبيرة فى القصة التى تحمل اسمها .

ـ حين رأى الأب «أنطونيو إيزابيل» القطار يمر فى محطة بلدة ماكوندو تذكر أن هذا القطار كان يتكون أيام شركة الموز الأمريكية من أربعين عربة محملة بالموز ، بدلاً من عرباته الأربع . وجانب كبير من أحداث رواية «مائة سنة من الوحدة» يتعلق بالشركة المذكورة . كذلك فإن رواية «أوراق الشجر الكثيفة» تدور حول التطورات التى حدثت فى قرية «ماكوندو» حين ازدهر فيها نشاط شركة الموز .

ـ تدور أحداث رواية «الكولونيل لا يجد من يكتب له » حول كولونيل كان يذهب كل أسبوع إلى مكتب البريد ؛ لأنه كان يتوقع وصول خطاب ينتظره منذ ٥٩ سنة بتقرير معاش له عن مساهمته فى الحرب الأخيرة .

وهذا الكولونيل يذكرنا بالمحاربين القدماء من رفاق الكولونيل أوريليا نونيديا الذين اشتركوا فى جنازة الأم الكبيرة ليطلبوا من رئيس الجمهورية رفع معاش العسكرى الذى ينتظرونه منذ قرابة ستين عاماً .

ـ الأم الكبيرة تظهر فى المنام لأرملة مونتييل لتعلن لها علامة موتها .

ـ العمدة الذى ذهب إلى طبيب الأسنان فى قصة «يوم من هذه الأيام» ليخلع له ضرسه يظهر فى رواية «ساعة النحس» ويلعب فيها دوراً أساسيًّا .

والاضطهاد والقمع والقتل والإرهاب الذى ساد البلدة على يديه يذكرنا بالعمدة فى قصة «أرملة مونتييل» .

ـ «مينا» فتاة قصة «زهور صناعية» تظهر فى قصة «ساعة النحس» .

ـ «ربيكا» التى قتلت الشاب فى «قيلولة يوم الثلاثاء» هى السيدة الغنية التى حطمت العصافير أسلاك نوافذ بيتها فى «يوم بعد يوم السبت» .

ـ المعالجة الأسطورية «التى نراها فى قصة الأم الكبيرة» هى نفس المعالجة التى اختارها المؤلف فى رواية «مائة سنة من الوحدة» وفى غيرها .

والأمثلة أكثر من أن تحصى ، وهو توحى بأن قصص مجموعة «جنازة الأم الكبيرة» هى صورة مصغرة لروايات المؤلف الكبرى ، وهى تشير فى الوقت ذاته إلى أن كُلَّ قصة من هذه القصص جزء من كل ، وأن هذا الكل موزع على أعمال المؤلف كلها وإلى أنه ليس فى كتابات ماركيز فواصل تفصل القصة عن القصة ، والقصة عن الرواية ، والرواية عن الرواية ، وأن لعناصر الزمان والمكان والأشخاص والأحداث فى كل هذه الأعمال أبعاداً ومساحات تتجاوز حدود كل منها ، وهذه سمة يكاد ينفرد بها جارثيا ماركيز بين كُتَّاب القصة والرواية .

الغنـــى والفقـــير :

الغنى والفقير ، والفقراء والأغنياء ، من الموضوعات البارزة فى مجموعة «جنازة الأم الكبيرة » ، بل فى الواقع موضوعها الأساسى .

فقصة «قيلولة يوم الثلاثاء » قصة أسرة فقيرة كانت تعيش على الأجر الذى كان يتقاضاه «كارلوس كونتينو» قبل أن تقتله الأرملة التى حاول أن

يدخل بيتها للسرقة . وقصة «يوم من هذه الأيام» تصف عيادة طبيب أسنان فقير . وقصة «ليس فى هذه القرية لصوص» تصف بيت المرأة العاملة التى تشتغل بغسل الملابس وكَيِّها ، وبيت المومس الذى هو ، فى الحالين ، غرفة مظلمة ضيقة كالجحر . وفى قصة «عصرية بلتزار العجيبة» نلتقى بالنجار الأمين وبالتاجر البخيل الجشع . وفى قصة «أرملة مونتييل» نطَّلع على تفاصيل ثروة هذا الرجل ، وعلى الطريقة التى جمعها بها ، وما آلت إليه هذه الثروة بعد وفاته . وفى قصة «يوم بعد يوم السبت» نقابل السيدة ربيكا التى تعيش بمفردها فى بيتها الذى به تسع غرف نوم ، كما ندخل غرفة القس الفقير الملحقة بالكنيسة ، وبيت المُدَرِّسة الفقيرة التى تعيش فيه مع ابنها وعدد من الدجاجات التى تربيها . وإذا كان البيت الذى تسكنه «مينا» وأمها وجدتها فى قصة «زهور صناعية» بيتاً حقيقيًّا لا مجرد غرفة ، فإن المؤلف ـ حسب ماتصورنا وتصوَّر غيرنا ـ كان يصف فى هذه القصة بيت جده الكولونيل الذى كان يعيش فيه وهو طفل . على أن هذا لايمنع أن «مينا» فتاة رقيقة الحال ، تكسب قُوتَها وقوت أمها وجدَّتها من صناعة الزهور الصناعية ، وصديقتها تلبس حذاء رجاليًّا ؛ لأنها لاتمتلك ثمن حذاء نسائى . وأخيرًا فإن قصة «جنازة الأم الكبيرة» تصف لنا ثراء هذه السيدة التى يعيش أقاربها عيشة الترف والنعمة والفسوق ، فى حين يعانى مستأجرو أراضيها من الملاريا ومن شتى ضروب الفاقة .

وتصوير الفقر فى هذه القصص تصوير صادق يطابق ما نقرؤه فى الصحف والكتب ، وما نراه فى التليفزيون عن مجتمع «مدق الصفيح» فى كولومبيا ، وفى دول أمريكا اللاتينية عموماً . وتصوير الغنى ـ باستثناء غنى الأم الكبيرة بأموالها المادية والمعنوية ، الذى يختلط فيه الواقع بالخيال ـ ليس فيه مبالغة .

فإذا انتقلنا من وصف الفَقْر والغِنَى إلى وصف الفقراء والأغنياء وجدنا أنه ينطوى على عطف شديد على الفقراء ، وعلى كُرْهٍ شديد للأغنياء ، أو على سخرية منهم .

إن المرأة وابنتها فى «قيلولة يوم الثلاثاء» ، والمرأة العاملة ، بل والمومس فى قصة «ليس فى هذه القرية لصوص» ، وبلتزار فى «عصرية بلتزار العجيبة» ، والمُدَرِّسة فى «يوم بعد يوم السبت» أشخاص يستدرون المحبة أو الشفقة ، وعلى العكس من ذلك فإن أشخاصاً مثل الأرملة «ربيكا» و«مونتييل» والأم الكبيرة أشخاص لايثيرون لدى القارىء سوى النفور والكراهة . ونحن نلتمس العذر مع المؤلف لكارلوس كونتينو السارق المقتول فى قصة «قيلولة يوم الثلاثاء» . وحتى «دامازو» الصعلوك ، برغم كل عيوبه ، أفضل من صاحب صالون البلياردو ، فقد ندم على فِعْلِه ورَدَّ الكرات ، فى الوقت الذى اختلق صاحب الصالون فيه موضوع سرقة المائتى «بيزو» اختلاقاً . .

أما أرملة مونتييل فإنها ـ برغم تقواها ـ لاتثير عطفنا بسبب حماقتها التى لاتعرف حدودًا، ولأنها تعيش لنفسها ولاتعرف الإحسان .

عطف المؤلف إذن يشمل جميع الفقراء ، حتى أسوأهم ، وكراهية للأغنياء فى المقابل تشمل جميع الأغنياء ، حتى أحسنهم ، فهو إذن متعصب على طول الخط للفقراء ، متعصب على طول الخط ضد الأغنياء . وهذه سمة أخرى من سمات هذه المجموعة .

العنـــف :

العنف واحد من المكونات المهمة فى المجتمع الذى تصوره أو تتحدث عنه معظم قصص هذه المجموعة .

لقد كان بإمكان الأرملة فى قصة «قيلولة يوم الثلاثاء » أن تضىء نور بيتها، أو تحدث صوتاً حين أحست بوجود شخص فى الخارج يحاول فتح بوابة بيتها ، ولو فعلت لَلاَذَ السارق بالفرار وانتهى الأمر ، ولكنها أصَرَّتْ على إخراج الغَدَّارة من مخبئها وإطلاق الرصاص عليه .

وفى قصة «يوم من هذه الأيام» يهدد العمدة بقتل طبيب الأسنان إذا رفض خلع ضرسه الموجوع ، وكان قد سبق له قتل الكثيرين .

وفى قصة «ليس فى هذه القرية لصوص» يعذب الزنجى وُيعامَل معاملة وحشية ، لا لأن أحدًا رآه وهو يسرق كرات البلياردو ، بل لأن الشرطة لم تكتشف السارق الحقيقى ، وهو يُعامَل هذه المعاملة بالرغم من ثبوت أنه كان فى مكان آخر وقت السرقة . وفى قصة «أرملة مونتييل» يُقْتَلُ كثيرون من الفقراء بتعليمات من الحكومة المركزية لعمدة البلدة حين يشتبه فى كونهم خصوماً سياسيين للنظام القائم ، ويجبر بعض الأغنياء بالعنف على الرحيل من البلدة . ومنظر القطار فى قصة «يوم بعد يوم السبت» يذكر الأب «أنطونيو إيزابيل» بشركة الموز ، ويذكر القارىء الذى يعرف خلفية الموضوع التاريخية بالمذبحة التى راح ضحيتها آلاف من عمال الشركة المضربين ، كما تذكرنا القصة بأن جد السنيورة «ربيكا» قاتل أثناء حرب الاستقلال فى صفوف ملك إسبانيا . .

وقصة «جنازة الأم الكبيرة» تتحدث غن آخرة هذه السيدة «وآبائها وآباء آبائها فى الماضى ، ممن سيطروا على مصائر البلد طوال قرنين من الزمان» .

وعن جدتها التى واجهت بمفردها داورية يقودها الكولونيل أوريليا نوبونيديا وهى مستخفية فى مطبخ الضيعة . وهى تتحدث عن الاتحاديين

الذين أسفت الأم الكبيرة قبل موتها أن الله لن يمنحها شرف القيام بتصفيتهم، وعن تسليحها لأنصارها ، وعن حرب الاستقلال . وفى هذه الإشارات جميعاً بصفة عامَّة ، وفى الحديث عن الجهد الذى بذله أسلاف الأم الكبيرة ليكفلوا سيادة جنسهم بصفة خاصة ، إيماءات مقصودة فيها نرى إلى خلفية تاريخية تستحق أن نقف عندها لحظة .

لقد بدأ فى كولومبيا على أوسع نطاق ، وفى أبشع وأفظع صورة منذ اليوم الذى وَطِئَتْ فيه أقدام الإسبان أرض القارة الأمريكية غازين فاتحين ، وأراد أسلاف الأم الكبيرة وأمثالهم أن «يكفلوا سيادة جنسهم » ـ أى الجنس الأبيض ـ على أهالى البلاد الأصليين من الهنود الحمر .

لقد اكتشف خريستوف كولومبوس ـ الذى سُميت كولومبيا على اسمه ـ أمريكا سنة ١٤٩٢ ميلادية ، وهو نفس التاريخ الذى سقطت فيه غرناطة وأَفَل فيه نجم العرب والمسلمين فى الأندلس . وقد كتبت مؤلفات كثيرة عن الطريقة التى فتح بها الإسبان بلدان أمريكا التى أصبحت تُعرف فيها بعد بأمريكا اللاتينية ، والطريقة التى حكموا بها هذه البلدان فى أمريكا الجنوبية، وفى منطقة البحر الكاريبى ، وفى المكسيك بأمريكا الشمالية . ويجمع المؤرخون على أن الفتح الإسبانى والحكم الإسبانى بلغ أكبر درجات الوحشية ، وأن فتك الإسبان بالهنود الحمر كان حالة من أفظع حالات مايُعرف بإبادة الجنس Genocide فى تاريخ البشرية . وليس هناك اتفاق على عدد الملايين التى قتلها المستعمرون الإسبان فى بلاد أمريكا اللاتينية كلها ، ولكن أحدث الدراسات التى أُجريت عن بلد واحد من هذه البلدان، هو المكسيك ، تفيد أن عدد السكان الأصليين فى هذا البلد كان يبلغ ٢٥ مليوناً عند بدء الغزو الإسبانى ، وأنه انخفض إلى أكثر قليلاً من

ستة ملايين فى عام ١٥٤٨ م أى بعد نصف قرن من هذا الغزو (وقد ماتت نسبة كبيرة من الهنود الحمر نتيجة لأمراض جاء بها الغزاة معهم من إسبانيا) . وأن هذا العدد قد انخفض إلى مليون واحد فى عام ١٦٠٥ م ، أى بعد قرن من بداية الغزو الأسبانى . وتقول هذه الدراسات إن كل سكان جزر البحر الكاريبى فنوا على بكرة أبيهم قبل نهاية القرن السادس عشر . وكان «باتولوميه دى لامى كازامى» ـ وهو ابنُ واحدٍ من أصحاب خريستوف كولومبوس ـ قد قَدَّرَ عدد ضحايا الغزو الإسباني من سكان البلاد الأصليين بخمسة عشر مليوناً ، ناهيك بالملايين الذين أُبِيدوا فى بقية القرن السادس عشر ، أو هلكوا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، إلى أن استقلت بلدان أمريكا اللاتينية عن إسبانيا فى القرن التاسع عشر .

هذا وقد دمر الإسبان الجانب الأكبر من حضارات شعوب البلاد الأصلية التى تثبت الدراسات الحديثة أن بعضها بلغ درجة كبيرة من التقدم. وكان هَـمُّ الغزاة الأكبر فى الفترة الأولى هو جمع ما بيد الأهالى من الذهب وتصديره إلى إسبانيا ، وقد سخروا الشعوب المغلوبة بعد ذلك لخدمتهم وللعمل فى مناجم الذهب ، وكانت مناجم الذهب فى غرب كولومبيا أهم مناطق إنتاج الذهب فى الإمبراطورية الإسبانية . ووزع نواب ملك إسبانيا فى كولومبيا وغيرها من بلاد أمريكا اللاتينية بعد انتهاء رحلة الغزو العسكرى إقطاعيات شاسعة من الأراضى الخصبة التى انتزعوها من الهنود الحمر ، أو الأراضى التى لم تكنْ قد انتقلت بعد إلى النبلاء وضباط جيش الاستعمار الإسبانى وجنوده ، ومن وفدوا إلى أمريكا من الإسبان المستعمرين ، وكان لأصحاب هذه الأراضى ـ على من يعملون فى تلك الأراضى راضين ـ سلطانٌ مطلق ، وكانت الملايينُ العديدة من نساء الهنود

الحمر اللائى ارتفع عددهن كثيراً بالنسبة لعدد الرجال ـ نتيجة لإبادة هؤلاء على يد الإسبان ـ إماءً ونهباً مباحاً بلا حدود للجنود الإسبان ، ولمن وفدوا إلى أمريكا اللاتينية بعدهم من الرجال الإسبان كمستعمرين .

والصورة التى تعطيها قصة «جنازة الأم الكبيرة» عن «حق التفخيذ» الذى كان يمارسه الرجال من أفراد أسرتها على نساء ضياعها الواسعة ، هى صورة مخففة جدًّا بالنسبة لما كان عليه الوضع خلال القرون الثلاثة التى استغرقها الاستعمار الإسبانى قبل أن تحصل بلدان أمريكا اللاتينية على استقلالها . وقد ترتب على هذا الوضع اختلاط الدم الإسبانى بالدم الهندى الأمريكى ، ثم بالدم الزنجى حين استوردت بعض بلدان أمريكا اللاتينية، عبيدا من إفريقيا للعمل فى مزارع الموز والقصب .

وقد قامت خلال فترة الاستعمار الإسبانى الطويلة ، أى من بداية القرن السادس عشر إلى بداية القرن التاسع عشر ـ ثورات عديدة فى معظم بلاد أمريكا اللاتينية . وكانت هذه الثورات تقمع بالحديد والنار ، وكان ينكل بمن اشتركوا فيها أسوأ تنكيل .

وفى كولومبيا بدأ النضال من أجل الاستقلال عن إسبانيا فى عام ١٨١٠ ، وهزم البطل «سيمون بوليفار» الجيش الإسبانى عام ١٨١٩ ، وتكونت باسم «كولومبيا العظمى» دولة كانت تجمع كولومبيا الحالية ، وبنما وفنزويلا ، وإكوادور ، ثم انفصلت فنزويلا وإكوادور عن كولومبيا فى عام ١٨٣١ . وتكون بعد هذا التاريخ حزبان ، هما الحزب المحافظ والحزب الليبرالى ، كانا يتنازعان على الحكم ، وكان همهما الأول هو الحفاظ على الامتيازات الطبقية التى كان يتمتع بها أنصارهما خلال فترة الحكم الإسبانى ، وبدأ صراع طويل

ودام بين الحزبين ، كان كثيراً ما يصل إلى درجة الحرب الأهلية بكل ماتقترن به هذه الحروب من عنف وخراب . وقد بلغ النزاع بين الحزبين مداه فى ١٩ من أبريل سنة ١٩٤٨ حين اغتيل الزعيم اليسارى الليبرالى «خورخ جايتان» الذى كان من الزعماء ذوى الشعبية الكبيرة . وقد أثار اغتيال الزعيم موجة من الاضطرابات الدامية ومن أعمال القمع استمرت عشر سنوات ، وقتل خلالها نحو ٢٥٠ ألف شخص .

وتعاقب المحافظون والليبراليون بعد ذلك على الحكم ، ولكن الأوضاع الإقطاعية ، ونفوذ كبار الملاك وطبقة أثرياء المدن التى تحتكر التجارة والصناعة والتعدين ، بقيت على حالها ، بل إن المشكلات الاجتماعية والفوارق بين الطبقات تفاقمت وازدادت حدتها نتيجة لعوامل التخلف المعروفة فى بلدان العالم الثالث ، كارتفاع معدل الزيادة السكانية ، ونزوح سكان أهل القرى إلى المدن ، وانخفاض أسعار سلع التصدير ، والتضخم ، وضعف القوة الشرائية ، وارتفاع أثمان المواد الغذائية . كذلك فإن الميكنة الزراعية وأساليب الاستغلال الحديثة فى مجال الصناعة لم يترتب عليها تحسين فى أحوال الناس ، بل أدت إلى مزيد من البطالة بين الكثرة العاملة وإلى مزيد من الثراء للقلة المستفيدة .

وقد أدى سوء حال الطبقة الفقيرة منذ حوالى ٣٥ عاماً إلى قيام حركات ثورية مسلحة فى الريف وفى الحضر ، كان معظمها ذا نزعة يسارية . وكانت هذه الحركات تلجأ إلى حرب العصابات ، وكانت الحكومات الدكتاتورية تلجأ من جهتها إلى فرض الأحكام العرفية وإلى اتخاذ إجراءات قمع تهدر فيها الحريات ، ويعتقل فيها الناس بالجملة ، وإلى عمليات عسكرية ضد الثوار ومن يؤيدونهم من أفراد الشعب ، وتصفية للخصوم ،

واستخدام للتعذيب فى السجون . وقد نشأ عن هذه الأوضاع فى ـ كولومبيا وغيرها من بلاد أمريكا اللاتينية ـ قطيعة بين النُّظُم الحاكمة والسواد الأعظم من الأهالى. وقد فشلت جميع محاولات الإصلاح الزراعى التى بذلت حتى الآن تحقيقاً للعدالة الاجتماعية ، وقال أحد الخبراء عام ١٩٧٥ إن توزيع الأراضى إذا ـ استمر بالسرعة التى سار بها حتى الآن ـ لن يسمح بتحقيق أهداف الإصلاح الزراعى إلا بعد عشرة قرون !

وقد هدأت حرب العصابات وما أثارته من أعمال قمعية فى السنوات الأخيرة ولكن مشكلة أخرى بالغة الخطورة ظهرت فى البلد ، هى أن الزُّرَّاع الكولومبيين قد انصرفوا بأعداد كبيرة عن زراعة البن والمحاصيل الزراعية الأخرى التى لم تعد تحقق لهم عائداً مجزياً إلى زراعة نبات الكوكا ، وبيع أوراق الكوكا إلى من يسمون ببارونات المخدرات ليصنعوا منها مخدر «الكوكايين» . وقد أثرى هؤلاء «البارونات» ثراءً فاحشاً من تصدير «الكوكايين» إلى الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من الدول الصناعية ، وأصبحت لهم معاقل فى الجبال والغابات ، وقوات عسكرية مجهزة بأسلحة حديثة ومدربة على القتال، وأصبحوا يرشون كبار المسئولين فى الدولة ، ويشنون الغارات على أقسام الشرطة ، وعلى دور الصحف التى تهاجمهم ، ويغتالون الصحفيين الذين يناصبونهم العداء ، ورجال الشرطة الذين يغضبون على أفراد عصاباتهم ، والقضاة الذين يصدرون أحكاماً على من يقبضون عليه منهم ، أو الذين يحكمون بتسليمهم إلى القضاء الأمريكى لمحاكمتهم وعقابهم . وقد عقد فى شهر فبراير من هذا العام (١٩٩٠) مؤتمر قمة فى كولومبيا ، وبيرو ، وبوليفيا لبحث التدابير الأمنية والاقتصادية اللازمة للقضاء على هذه التجارة بعد أن أصبح بارونات المخدرات يشكلون

دولة داخل دولة فى البلاد التى يمارسون فيها نشاطهم . وقد نجحت القوات الحكومية الكولومبية أخيراً فى قتل أو اعتقال بعض بارونات المخدرات ، ولكن معركتها معهم ومع رجالهم لم تنته بعد .

ولم يتعرض جارثيا ماركيز للعنف الناتج عن حرب المخدرات فى مجموعة «جنازة الأم الكبيرة» أو فى أعماله الأخرى ، ربما لأن هذه الحرب حديثة نسبيًّا أو لاعتبارات تتعلق بسلامته الشخصية، وفى أنباء صباح اليوم الثالث من مارس عام ١٩٩٠ ذُكر أن عدد ضحايا العنف فى كولومبيا بلغ ثمانمائة وخمسين قتيلاً فى الشهرين الأخيرين .

الكنيســـة :

بالرغم من أن بعض قصص هذه المجموعة لاتتضمن أى عنصر دينى أو إشارة دينية ، فإن من الواضح أن مجتمع «كاكوندو» مجتمع يحتل فيه رجال الدين مكاناً مهمًّا .

إن فى الإمكان أن نقول إن قصة «قيلولة يوم الثلاثاء» هى قصة لقاء بين امرأة وقسيس البلدة التى قُتل فيها ابنها . وإذا كانت قصة «ليس فى هذه القرية لصوص» خالية من أى شخصية أو إشارة دينية ذات شأن ، فإن علامة الصليب التى رسمها «دامازو» على صدره وهو يدخل صالون البلياردو ليعيد الكرات تفيد أن هذا الشاب ، برغم عيوبه كلها ، لايزال يحتفظ بأثر من الشعور الدينى الذى هو سمة من سمات الناس فى أمريكا اللاتينية .

وفى قصة «عصرية بلتزار العجيبة» إشارة سريعة إلى الدين ، فقد تحدثت هذه القصة عن النسوة اللاتى مررن فى الصباح ببلتزار وهن فى طريقهن إلى

الكنيسة لحضور قُداس الساعة الخامسة ، وهذا دليل آخر على تعلق نساء البلدة الكولومبية بعادات دينية لم يعد يراعيها فى غير بلدان أمريكا اللاتينية من العالم المسيحى إلاَّ قِلَّة من الأتقياء . وفى قصة «أرملة مونتييل» حديث عن تدين هذا التاجر وزوجه . لقد كان خوزيه مونتييل يتردد على الكنيسة أسبوعيًّا لحضور قداس يوم الأحد ، وقد وصفه المؤلف وهو مُسَجى فى نعشه «لايمسك سوطاً بل صليباً» ، ولكن تديُّنه لم يمنعه من الاشتراك مع العمدة فى عملية تصفية المعارضين بقتل الفقراء ونفى الأغنياء والاستيلاء على أموالهم، كما أن هذا النشاط الذى يتنافى مع أبسط مبادىء الدين ، وكراهية الناس لمونتييل وحنقهم عليهم لم تمنع أعضاء كنيسته من السير فى جنازته ، أما زوجته فقد كان تَدَيُّنُها تديُّن امرأة مزقتها الخرافات فهى امرأة تعترض على الخَلْق والخالق ، وترى أن «الله لو لم يسترح يوم السبت لاتَّسَع وقته لإتمام صنع العالم» وكانت تقول : « كان من الواجب أن يستغل هذا اليوم فى استكمال صنع مخلوقاته حتى لايترك وراءه كل هذه الأشياء ناقصة الصنعة . . كانت أمامه الأبدية كلها بعد ذلك ليستريح» . وبرغم أن طيبة قلبها كانت تجعلها تصلى على أرواح مَن يُقْتَلُون ، فإن هذه الطيبة لم تجعلها تفكر بعد وفاة زوجها فى التصدق بشىء من ماله أو إنفاق جزء من ثروته فى أوجه الخير . أما قصة «يوم بعد يوم السبت» فهى فى التحليل الأخير قصة دينية رمزية . إنها تحدثنا حديثاً طويلاً عن القس «أنطونيو إيزابيل» . . . عن حياته ودراسته وقراءاته وأساتذته فى مدرسة اللاهوت ، وأفكاره الخاصة التى أخرت ترقيته فى سلك رجال الدين ، وجعلت الكنيسة تعينه فى قرية ماكوندو الصغيرة ، وعن مواعظه وأحلامه ، وشطحاته ومشاعره ، وموقف أهل القرية منه ، ورأيه هو فى الأرملة «ربيكا» وفى أهل القرية . وهى تحدثنا

عن الطيور التى تمثل ـ كما رأينا ـ رمزاً لغضب السماء على الأرض ، وعن الناس الذين لايهرعون إلى الكنيسة إلاَّ خوفاً من اقتراب نهاية العالم . وزمن قصة «زهور صناعية» ـ وهو يوم الجمعة الأول من الشهر ، أى اليوم الذى يجب أن تذهب فيه «مينا» إلى الكنيسة لحضور القُداس أو عدم حضوره ـ هو محور القصة . وإذا كانت «مينا» لم تحضر القداس فى النهاية لأنها ذهبت لرؤية صديقها ، فإن صديقتها قد حضرته .

وأخيراً فإن فى قصة «جنازة الأم الكبيرة» ثلاث شخصيات دينية ، بالإضافة إلى كرادلة الفاتيكان الذين فزعوا لنبأ موت الأم الكبيرة والأساقفة العديدين الذين حضروا جنازتها . وأولى هذه الشخصيات هى الأب أنطونيو إيزابيل العجوز ، الذى أحضروه من بيته محمولاً ، والذى بقى فى غرفة نوم الأم الكبيرة ، وتلقى اعترافها ، وقام بالمراسيم الدينية قبل وفاتها وبعد أن فرغ أجلها ، والشخصية الثانية هى «مجد لينا» أصغر ورثتها ، وكانت تصيبها نوبات من الهذَيان ، فلجأت إلى الأب أنطونيو إيزابيل الذى طرد منها الأرواح الشريرة ، وحلقت شعرها من جذوره وأولت ظهرها لمفاخر الدنيا وغرورها ، وترهبت ودخلت الدير ، ثم تنازلت عن كل إرثها للكنيسة ، والشخصية الثالثة والأهم هى البابا الذى جاء من مقره فى الفاتيكان لحضور الجنازة .

وتروى القصة كيف كانت الأم الكبيرة تذهب إلى القداس وأحد رجال السلطة المدنية الكبار يُهَوِّى لها بالمروحة ، وكيف أعفتها الكنيسة من واجب الركوع حتى فى لحظة رفع كأس القربان لكيلا تفسد ثنيات ثيابها ، والأُبَّهة التى أُحِيطتْ بها حين ذهبت إلى الكنيسة وهى فى الثانية والعشرين من عمرها لحضور جنازة أبيها، ولتتبوأ مركزها الجديد بكل إشراقه وجلاله ،

وكيف أن كاتدرائية العاصمة أُعدت لاستقبال المصلين على روحها تسعة أيام تباعاً . وتحدثنا القصة عن البلبلة التى حدثت للمرة الثالثة على مدى عشرين قرناً « فى الإمبراطورية المسيحية التى لا تحدها حدود » لدى نبأ وفاة الأم الكبيرة ، وعن أجراس الكنائس التى أخذت تدق فى أرجاء العالم المسيحى كله حداداً على وفاتها .

وواضح من كل ما سبق أن الصورة التى يرسمها المؤلف لطريقة فهم الناس فى ماكوندو لدينهم ، والتى يُطبقون بها أحكام هذا الدين ، وكذلك الصورة التى يرسم بها رجال الكنيسة ـ ربما باستثناء الأب أنطونيو إيزابيل والراهبة مجدلينا إلى حد ما ـ هى صورة سلبية .

وجارثيا ماركيز ليس الوحيد بين كُتَّاب إمريكا أو كُتاب العالم الغربى عموماً ـ الذى رسم هذه الصورة السلبية ، فقد رسمها قبله ـ منذ بداية القرن الثامن عشر ـ عشرات من الكُتَّاب والفلاسفة والمفكرين وإنْ اختلفت مذاهبهم ، ولكن لكتابة جارثيا ماركيز فى هذا الصدد دلالة خاصة نظراً لأهمية دور الكنيسة الكاثوليكية فى كولومبيا وفى مجتمعات أمريكا اللاتينية بوجه عام .

لقد كان الغزو الإسبانى لأمريكا اللاتينية دينياً بقدر ما كان غزواً عسكرياً . وبالرغم من أن بعض رجال الكنيسة الكاثوليكية قد نددوا ـ خلال فترة الاستعمار الإسبانى لأمريكا اللاتينية ـ بالأعمال الوحشية التى ارتكبها العسكريون والمدنيون الإسبان ، فالثابت الذى لا خلاف عليه بين المؤرخين هو أن عملية « إبادة الجنس » الرهيبة التى ارتكبها الغزاة الإسبان قد تمت تحت سمع وبصر ـ بل وبمباركة ـ رجال الكنيسة الكاثوليكية ، وباسم

المسيحية ، باعتبار أن نصر الأوروبيين على الهنود الحمر انتصار لله على الشيطان .

ظلت الكنيسة الكاثوليكية على صلة وثيقة بالحكم الإسبانى بأمريكا اللاتينية ، وكانت تمثل دعامته الروحية . وقد أُجبر سكان البلد الأصليون على اعتناق الكاثوليكية هم وذريتهم ، وكانت هذه الديانة هى الديانة الرسمية للدولة ، ولم يكن من المسموح لأى فرد فيها باعتناق ديانة غيرها ، أو الاحتفاظ بمعتقداته القديمة . ولكن نفوذ الكنيسة ـ فيما عدا المسائل الروحية ـ بدأ يضعف ابتداء من القرن التاسع عشر ، بعد أن حصلت بلدان أمريكا اللاتينية على استقلالها ، وفى كولومبيا بالذات ما كادت تمضى عشر سنوات على الاستقلال ـ وبالذات فى السنة التى توفى فيها سيمون بوليفار ، أى سنة ١٩٣٠ ـ حتى أصبحت المسألة التى تهيمن على الحياة السياسية فى هذا البلد هى علاقة الكنيسة بالدولة ، وكانت هذه المسألة ـ وظلت زمناً طويلا ـ محور الصراع الطويل بين الحزبين اللَّذَيْن كانا يتعاقبان على حكم البلد ، أى حزب المحافظين وحزب الأحرار .

وقد أعلن الليبراليون حين تولوا الحكم فى الخمسينيات والستينيات من القرن التاسع عشر حرية العقيدة ، والفصل بين الكنيسة والدولة ، وصادروا أموال الكنيسة ، وفرضوا قيوداً على رجالها ، وألغوا نظام الرهبنة والأديرة . وقد حدث رد فعل عنيف على هذه الإجراءات حين تولى المحافظون الحكم فى الثمانينيات من القرن التاسع عشر ، فألغيت القيود الكبرى التى فرضها الليبراليون على الكنيسة ، ولكن الليبراليين عارضوا فى ذلك معارضة شديدة وعنيفة ، قابلتها السلطة الحاكمة بعنف مماثل ، وقامت بسبب هذا النزاع أساساً الحروب الأهلية التى تحدثنا عنها من قبل ، والتى كان أطولها وأكثرها

ضراوة الحرب التى شبت فى الفترة من ١٨٩٩ ـ ١٩٠٢ . وقد جعلت ضراوة هذه الحرب وانفصال بناما عن كولومبيا فى عام ١٩٠٣ زعماء الفريقين يخففون من غلوائهم ويلقون السلاح . وأعقب ذلك خمسون سنة من الاستقرار النسبى تضاءل خلالها تدريجياً دور الكنيسة فى الحكم ، وإنْ بَقى تأثير الكنيسة الروحى قوياً .

وقد حدث فى العقدين الأخيرين تحول كبير فى موقف الكنيسة الكاثوليكية فى بلاد أمريكا اللاتينية ، وبدأ يظهر بين رجالها تيار واضح يتعاطف مع الطبقات الفقيرة ، ويؤيد الحركات الإصلاحية التى تدعو إلى الديمقراطية والحد من امتيازات الطبقة الغنية ، وقد تعرض بعض قساوسة الكنيسة ـ نتيجة لمواقفهم هذه ـ لسخط الأحزاب اليمينية المحافظة ، وُقتل نفر منهم بأيدى المتطرفين من رجال هذه الأحزاب (كما حدث أخيراً فى سان سلفادور) . وقد زار البابا الحالى يوحنا بولس الثانى كثيراً من بلدان أمريكا اللاتينية ، وهو يحرص دائماً على الدعوة فيها لاحترام حقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية ، وعلى التذكير بمبادىء المسيحية السمحاء التى ترفض الظلم والظالمين ، وتحض على رعاية الفقراء والمساكين .

محمود على مراد

جنيف فى ٣ من مارس ١٩٩٠



محمود على مراد

من مواليد الاسكندرية عام ١٩٢٧ .

تخرج فى كلية الحقوق ودرس اللغتين الفرنسية والانجليزية .

سافر إلى فرنسا عام ١٩٦٨ وعمل مترجماً بالأمم المتحدة ومدرساً فى جامعة جنيف ثم رئيساً لقسم الترجمة فاستاذاً غير متفرغ بها .

ترجم العديد من الروايات عن الفرنسية مثل السمفونية الرعوية لاندرية جيد (والاباء المزعجون) لجان كوكتو ومجموعة أعمال برنارد شو الذى أصدر عنه كتاب بعنوان برنارد شو والإسلام .

كلمة إلى القارئ

الذين فازوا "بجائزة نوبل" في الآداب. هل فازوا بها عن جدارة؟ وهل فازوا بها لأسباب موضوعية؟

هذه السلسلة "روايات جائزة نوبل" ..

تصدر للإجابة عن هذه التساؤلات فهي لا تكتفي بترجمة أفضل روايات هؤلاء الكتّاب وأشهرها، ترجمة كاملة وأمينة بلغة عربية رصينة وأسلوب بلاغي عصري، ولكنها تضمّن الترجمة مقدّمة تاريخية وافية عن الكاتب، وتحليلية دقيقة عن فكره وأدبه ولغته وأسلوبه ورواياته، حتى يجد القارئ والدارس والأديب الناشئ ما يسعده ويفيده ويلبّي حاجته الثقافية ..

من هذا المنطلق لا بد من إعادة الفضل إلى أصحابه والاعتراف باستجابة ناشرنا المثقف «محمد رشاد» لهذا المشروع الطموح ثقافياً رغم مغامراته المادية في عالم النشر. والله الموفق دائماً

فتحي العشري

الفنيـــون

الإشراف الفني : محمد طنطاوى

التصفيف : بثينة جمال

التصحيح : عبد الحكيم بيومى

مونتاج : جودة عبد الصادق

عربية للطباعة والنشر

٧ ـ ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين

تليفون : ٣٠٢١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨

صدر من هذه السلسلة

الا أخلاقى .. أندريه جيد

العجوز والبحر .. أرنست هيمنجواى

الأم الكبيرة ..جابريل جارسيا ماركيز

صحراء الحب .. فرانسوا موریاك

شعب يوليو .. نادين جورديمر

أمير الذباب .. وليام جولدينج

أنطوانيت .. رومان رولان

الغريب ..ألبيركامى

أحلام الناى ..هيرمان هسّه

الأم .. جراتسيا ديليدا

ولم يقل كلمة .. هاينرش بل

مراعى الفردوس .. جون شتاينبك

مغامرات نلز العجيب .. سلمى لاجرلوف

رياح الشرق ورياح الغرب .. بيرل باك

الآلهة عطشى .. أناتول فرانس

الدار المصرية اللبنانية

6 222006 300715

تصميم ورسوم : محمد حجى